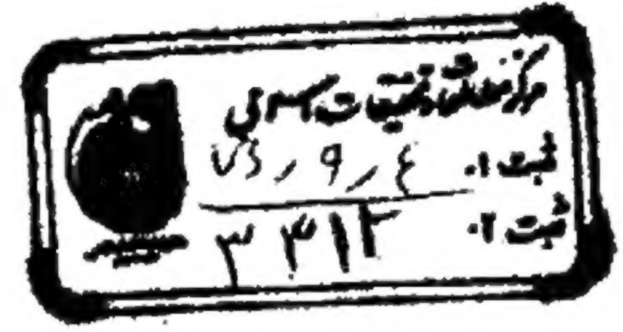
مجلة
المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

١٦
العدد السادس عشر
(القسم الأول)



١٤٠١هـ = ١٩٨١م

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

محتويات العدد السادس عشر (القسم الأول)
الخاص بالقرن الخامس عشر الهجري


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

اللجنة الاستشارية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المقدمـــة

تتشرف الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب أن تساهم في استقبال القرن الخامس عشر العربي الاسلامي بإصدار هذا العدد الخاص من المؤرخ العربي مجلة المؤرخين العرب، تكريماً لتاريخنا العربي الاسلامي واحتفاء بالقرن الجديد والذي نرجو أن يكون عهد تقدم للأمة العربية والاسلامية عامراً بالإيمان والخير مقروناً بالبناء والانتصار والقوة.

إن اتحاد المؤرخين العرب، والذي كان صاحب المبادرة الأولى في دعوة العالمين العربي والاسلامي إلى ضرورة الاحتفاء بالقرن الخامس عشر العربي الاسلامي والقيام بنشاطات مختلفة ثقافية وعمرانية واجتماعية يشارك فيها كل العرب وكل المسلمين يستعيدون فيها الذكريات العطرة من أريج تاريخنا الخالد وتراثنا العظيم ويتدارسون مواقفهم في أوضاعهم الراهنة وليخططوا للغد الأفضل للأمة العربية والاسلامية مقتبسين من سيرة الرسول الأعظم سيدنا محمد (ص) تلك المبادىء السامية التي نادى بها ودعا إليها ومقتفين أثر صحابته الكرام رضي الله عنهم في فدائهم وتضحياتهم ونكرانهم للذات وعملهم المخلص من أجل بناء ذلك البناء الحضاري الشامخ.

إن حلول القرن الخامس عشر العربي الاسلامي معناه نهاية أربعة عشر قرناً من الكفاح والبناء من الجهاد والتقدم، ومن تشييد المدن والدول، ومن ظهور الفكر العربي الاسلامي ظاهرة عظيمة في الفكر العالمي وبروز الثقافة العربية الاسلامية كأبرز جانب من جوانب الحضارة الانسانية في عظمة أهدافها وتعدد مواضيعها ودورها الفعّال في تطوير وازدهار الثقافة الانسانية، أربعة عشر قرناً من بناء الانسان في نهجه العقائدي السليم

وتوجيه النشىء وجهة إنسانية وتزويده بالمبادىء النبيلة التي تدعو إلى حماية الانسانية والدعوة إلى الخير والسعي إلى السلام الذي يحقق للفرد حريته وسيادته واستقلاله.

إن اتحاد المؤرخين العرب والذي يقود الدعوة النبيلة هذه والتي تدعو الشعوب العربية والاسلامية وحكوماتها إلى الاحتفاء بالقرن الخامس عشر العربي الاسلامي يعاهد الجميع على أن يبقى المخلص الأمين لمبادىء الدين الاسلامي الحنيف، والحافظ لتراث الأمة وتاريخها المجيد، والساعي إلى توحيد الكلمة من أجل رفعة الأمة والعمل على تقدمها وازدهارها، ويعمل بكل طاقاته وإمكاناته لكتابة تاريخ الأمة بروح موضوعية وأسلوب علمي يبرز الجوانب المشرقة من تاريخنا العربي والاسلامي.

إن هذا الجزء من المؤرخ العربي هو صورة حيّة عن جهود المؤرخين العرب وسعيهم المتواصل لإبراز عملهم ونشاطهم للمشاركة في الاحتفاء بالقرن الجديد الذي نريده أن يكون للعرب والمسلمين فيه منار الانسانية ورمز العمل الجاد وعنوان الوطنية في تحرير كل الأراضي المغتصبة واستعادة مجدنا الغابر وتحقيق الغد الأفضل للانسان العربي والاسلامي.

تحيّة خالصة من المؤرخين العرب إلى كل الذين استجابوا لدعوته المؤرخين العرب وقدموا من العمل المخلص ما يناسب وحلول القرن الجديد من نشاطات وفعاليّات وتحية إلى كل من بادر إلى عمل يليق بهذه المناسبة التاريخية العظيمة في كل أرجاء الوطن العربي والعالم الاسلامي.

ونسأل الله تعالى أن يحفظ الأمة العربية والاسلامية ويسدد خطا ملوكها ورؤسائها وأمرائها ويدرأ عنها كل خطر وشر ويجعل الخير قرينها والتقدم رائدها وأن يكون قرنها الجديد مليئاً بالمحبة والأخاء وبالوحدة والصفاء.

ولله الحمد أبداً وله الشكر دائمًا

الدكتور حسين أمين
الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب

أثر الرسالة الإسلامية
في الحضارة الإنسانية

الأستاذ/ الدكتور عمر فروخ
(بيروت - لبنان)

«أثر الرسالة الاسلامية في الحضارة الانسانية» موضوع جليل ومفيد، ولكنه موضوع واسع جداً. ان الحضارة نمط من أنماط المعيشة الانسانية. وأنماط المعيشة الانسانية كثيرة جداً. وكل هذه الأنماط تمثل حضارات لا يزال معظمها قائماً إلى اليوم، في أقطار العالم التي نسميها متمدنة متقدمة والتي هي متوحشة (كما يقول ابن خلدون: أي بعيدة عن الحضر) متخلفة. وكل حضارة من هذه الحضارات - على اختلاف أنواعها وتعدد أشكالها - تنطوي على وجوه كثيرة من النشاط الانساني في الدين واللغة والعلم والفن والادب ثم في السياسة والاقتصاد والتعليم والطعام واللباس والسلوك وما إلى ذلك. ولا ضرب على ذلك مثلاً واحداً:

قال لي أستاذي يوسف هل (١٨٧٥ - ١٩٥٠ م)، رحمه الله: ان لوثر لما وضع أسس الاصلاح الديني للنصرانية - ما يعرف بالحركة البرتستانتية - كان، بلا ريب، يضع أمامه نسخة من القرآن الكريم. ان القرآن الكريم كان قد نقل إلى اللغة اللاتينية في النصف الأول من القرن الثاني عشر للميلاد: نقله روبرت أوف تشتر الانكليزي وهو مانوس دالماتا الفرنجي. ولا ريب في ان هذه النسخة كانت موجودة ومعروفة في أيام

لوثر، كانت قد نشرت في سنة ١٥٤٣ م، قبل وفاة لوثر بثلاث سنوات وإذا نحن درسنا خصائص البروتستانتية من رفض للسلطة البابوية والغاء للرهبة وإقرار الطلاق بالاضافة إلى التخلي عن الرموز كالصور والصلبان وعن الثياب الخاصة بالإساقفة والقسس مما كان معروفاً في الديانات الوثنية والمجوسية واليهودية والنصرانية، ومما جاء الاسلام بإبطاله، لم تشك لحظة في ان هذه الوجوه من الاصلاح قد جاءت من الاسلام، وإلا فمن أين يجب أن تكون قد أتت؟ ثم ان النصرانية التي ما زالت تعادي الاسلام قروناً كثيرة لاسباب مختلفة وتتهم الاسلام بالقسوة من أجل الطلاق، عادت تلك النصرانية نفسها، في جميع أقطارها، وفي روما حاضرة الفاتيكان نفسها، إلى إجازة الطلاق.

فإذا كان الاصلاح الديني في أوروبة المسيحية أثر من آثار الرسالة الاسلامية، فكم يجب ان يكون اتساع البحث الذي يتناول أثر الاسلام في القارات الخمس وعند جميع الأمم وفي وجوه الحياة كلها؟ من أجل ذلك أحببت ان أقصر بحثي على أثر الاسلام في الحركة العلمية وحدها. وكذلك رأيت من المفيد ان استعرض آراء نفر من المسلمين حاولوا تبيان أثر الاسلام في العلم وفي الحياة الانسانية.

* * *

أما الاسلام وحثه للمسلمين على العلم في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف فلن أتكلم فيه لانه ليس من الموضوع المطلوب وكذلك لن أتناول بالكلام تفاصيل المعارف، فان حديث ذلك يطول. ولكنني سأقف على المعالم التي بدل بها الاسلام حياة البشر تبديلاً لا سبيل إلى إنكاره أو تجاهله لانه ظاهر للعيان معروف في التاريخ.

والعرب كانوا حملة الاسلام يوم جاءتهم الرسالة الاسلامية فانتشروا في العالم ونشروا في العالم حضارة لا عهد للعالم بها من قبل. كان العرب،

من قبل، في شبه جزيرتهم أهل قوة وعصبية، وكان لهم أدب زاهر وعلم بالفلك والطب وتتبع الاثر باهر، ولكن ذلك كله لم يخرج بهم من جزيرتهم ولم ينشىء لهم فيها حضارة مادية نافعة، بل حملتهم قوتهم وعصبيتهم على أن يتقاتلوا أو على أن يغزو بعضهم بعضاً. فلما جاء الاسلام جمع شملهم وحزم أمرهم فبدل نفوسهم فخرجوا من شبه جزيرتهم يحملون الاسلام إلى الناس والحضارة إلى الأمم. ومن أغرب ما نعالج في تعليل التاريخ - أو فلسفة التاريخ، إذا شئت - تفسير تلك الظاهرة التاريخية: أمة قليلة العدد والعدة لم تعرف حضارة مادية مستقرة ولا مستبحرة نازلت أمتين ذواتي عدد وعدد وتاريخ طويل في العلم والفن والحرب فتغلبت عليهما وأبدعت حضارة عفت على حضارتيهما. وأعجب من ذلك في التاريخ أن الرومان بنوا امبراطوريتهم في ألف عام - وكانوا أمة على علم ونظام وقوة في الحرب وبراعة في العمران - ثم عصفت بهم ريح البرابرة الجرمان فزال كل أثر للامبراطورية الرومانية في أقل من قرن واحد. أما العرب الذين حملوا الاسلام فقد فتحوا من العالم أرضاً أوسع من الامبراطورية التي بناها الرومان - فتحوا من كاشغر على حدود الصين إلى شواطىء البحر الأخضر أو البحر المحيط المعروف عندنا اليوم بالمحيط الأطلسي أو الأطلانطيكي.

ثم زالت الدولة العربية والخلافة الاسلامية من عالم السياسة، ولكن بقي الاسلام ولغة الاسلام ونظام الاسلام وحضارة الاسلام وثقافة الاسلام وروح الاسلام في هذا العالم الفسيح منذ أربعة عشر قرناً. وأعجب من ذلك كله أن أقواماً لم يدخلوا في الاسلام قد تكلموا لغة الاسلام أو تأثروا بلغة الاسلام في استخدام الحروف العربية واستعمال الالفاظ العربية واتباع النظم الاسلامية. فكيف اتفق هذا الاثر البالغ في تاريخ الحضارة الانسانية؟

جاء الاسلام فرأى في العالم نظمًا وقوانين غير معقولة ولا محمودة فدعا إلى إبطالها فبطل أكثرها بعد زمن قصير أو زمن طويل.

فمن الامور التي دعا الاسلام إلى إبطالها:

- الوثنية
- الرق.
- العصبية أو ما يسمى في العصر الحاضر بالعنصرية.
- ثم الفسق والقمار والخمر والخنزير وغيرها.

وإذا أنا تكلمت على هذه بإيجاز فلن أتكلم عليها من الناحية الدينية أو الفقهية، بل من الناحية العلمية الاجتماعية، من حيث أثرها في الحضارة الانسانية. وساؤكد ان الدعوات المستمرة بهذا الشأن إنما كان بأثر الاسلام وأثر الرسالة التي جاء بها الاسلام إلى الناس أجمعين.

ومع ان نفراً كثيرين من المسلمين - ومن زعماء المسلمين أيضاً - لا يزالون يعملون بما دعا الاسلام منذ أربعة عشر قرناً إلى إبطاله، فإن الاسلام لا يحمل وزر هؤلاء، فان من القواعد التي جاء بها الاسلام قول الله تعالى (١٧ : ١٥، سورة الاسراء): - «من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها».

«ولا تزر وازرة أخرى. وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً». ثم ورد هذا المعنى في عدد آخر من الآيات الكريمة (٦: ٤٦ سورة الانعام، ٣٥: ١٨ سورة فاطر، ٣٩: ٧ سورة الزمر، ٥٣ : ٣٨ سورة النجم).

* * *

وكما ان الاسلام قد دعا إلى إبطال المساوىء فإنه قد دعا أيضاً إلى المحاسن، فمما له صلة بموضوعنا في إطاره من الحضارة الانسانية:

- التوحيد.
- الكرامة الانسانية.
- العدل.
- السلم.
- العلم.

رغب الاسلام في إبطال الوثنية لانها لا تليق بالعقل الانساني:

ليس من المعقول ولا من الصحيح ان يعبد الانسان الحجر أو الشجر أو التمساح أو الثور أو البقر. ولكن أقواماً فعلوا ذلك، ولا يزال عدد من هذه الاقوام يفعل ما كان يفعله الأقدمون. إن الاعتقاد «بالله» في الاسلام والتعبد له بالقلب واللسان والجوارح (أعضاء البدن) يرجع إلى الشعور بأن الله القوي الحكيم القدير هو واهب الوجود ومسير الأمور ومثبت النظام الاجتماعي الذي به عمران العالم وصلاحه.

وليس في التوحيد خرافات من الصور والرموز ونسبة أعمال إلى الله لا تليق به نسبة أعمال إلى البشر ليست من خصائصهم، بل هي راجعة إلى الله وحده.

ولما جاءت الرسالة الاسلامية كان العالم غارقاً في الأحوال الوثنية. من أجل ذلك قامت أعمال الاصلاح في الاديان. وقد كنا أشرنا إلى الحركة البروتستانتية في مطلع هذا المقال. غير ان الحركة البروتستانتية لم تكن الحركة الاصلاحية الوحيدة في النصرانية وفي اليهودية. ولكن يكفي هنا إلى أن نشير إلى أن الاسلام كان الذي حث المصلحين النصارى واليهود على العمل في ديانتهم بالرجوع إلى العقل، وإلا فكيف يقبل العاقل أن يبيع باباوات رومة بقاعاً من السماء للاغنياء فنجوا أولئك الاغنياء - ولو كانوا في الحياة الدنيا أشراراً - من عذاب الآخرة بينما الصالحين من الفقراء لا يمكن ان يجدوا لهم مكاناً في نعيم الآخرة لأنهم لم يستطيعوا ان يدفعوا ثمنه بمال كسبوه في حياتهم الدنيا بطرق شريفة أو بطرق غير شريفة؟ وكيف يمكن أن يقبل اليهودي العاقل ما جاء في التوراة الموجودة بأيدي الناس من أن الرب الاله صنع لادم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما (تكوين ٣: ٢٠). من أجل هذه الآية ومثيلاتها عمد نفر من المفسرين اليهود إلى تفسير توراتهم تفسيراً رمزياً. وكان في ذلك أيضاً شيء من الاصلاح الديني. وكان هذا أيضاً من أثر الرسالة الاسلامية.

ولما جاء الاسلام كان الرق في جميع الأمم معروفاً ومألوفاً، عند العرب وغير العرب أيضاً.

كان الرق في العالم القديم عند الوثنيين وعند اليهود وفي النصرانية ثم في البيئة الجرمانية المتخلفة والبيئتين اليونانية والرومانية المتقدمتين نظاماً اجتماعياً مقبولاً لا يثير تساؤلاً: بعض الناس يولد عبداً وبعضهم يستعبد في الحرب أو يشترى من السوق، وبعضهم يعجز عن وفاء دين عليه فيستعبده الدائن بشرع العالم القديم. وربما افتقر أب فباع بعض أولاده عبيداً أرقاء.

وجاء الاسلام فحرم الاسترقاق ودعا إلى «تحرير الرقاب» (تحرير العبيد الأرقاء) ومع أنه قد ظل في المسلمين من يجد وجهاً من الحيلة في اتخاذ الرقيق، فإن قيمة الرقيق أصبحت كبيرة ومعاملته أضحت حسنة ومكانته أعلى مما ينتظر في مثل هذه الأحوال. ثم إننا إذا علمنا ان العبيد نالوا في الاسلام مراتب سامية، إذ أصبح كافور الأخشيدي مثلاً، ملكاً في مصر ثم أصبح المماليك سلاطين في الشام ومصر، أدركنا أن منزلة الأرقاء في الحياة عند المسلمين قد اختلفت كثيراً مما كان يُعرف في غير العالم الاسلامي. ولن أحدثك عن الجارية التي بيعت بمليون دينار لان مثل هذه الانثى ليست جارية رقيقة مستعبدة بالمعنى الذي عرفه العالم القديم والعالم الحديث إلى القرن التاسع عشر.

ونشأ في العالم الغربي حركات لتحرير العبيد. سأشير إلى أشهرها: الحرب الأهلية في الولايات المتحدة. أعلن ابراهام لنكولن إلغاء الرق (عام ١٨٥٩ م) فثارت الحرب الأهلية، عام ١٨٦١ م، ودامت خمسة أعوام انتهت بانتصار الدعاة إلى تحرير الرقيق. لم يكن ذلك بحافز من التوراة واليهودية ولا بدافع من الانجيل والنصرانية. ان الاسترقاق كان قاعدة من قواعد الحياة المألوفة في البيئة اليهودية وفي البيئة المسيحية. فإذا لم يكن ابراهام لنكولن وأنصاره في حركة تحرير العبيد قد تأثروا بالتوراة

أو بالانجيل - أي باليهودية أو بالنصرانية - فلابد من أن يكون تأثرهم قد جاء من الاسلام لان الاسلام هو الذي جاء بالدعوة إلى «فك الرقاب» من أسر الرق.

وربما اعترض ناقد فقال: ان ابراهام لنكولن لا نعلم عنه أنه عرف ذلك من الاسلام، والمفروض انه جاء بذلك من دافع في إنسانيته ومنطق من عقله. فنحن نقول حينئذ: وهذا أيضاً من فضل الاسلام. إذا كان الاسلام قد جاء قبل أربعة عشر قرناً بقاعدة بنيت على الدافع الانساني والمنطق العقلي ثم طبقها رجل عاقل بعد ثلاثة عشر قرناً، فمعنى ذلك ان الاسلام لم يضع هذه القاعدة لزمانه ومكانه، ولكنه وضعها لكل زمان ومكان: انه وضعها للانسان. وإذا كانت قواعد حركة من الحركات تعمل من غير ان يعرف الذين يعملون بها أنها موجودة، فتلك فضيلة جديدة لتلك القاعدة العاقلة الحكيمة.

وكذلك كانت العصبية قاعدة اجتماعية مألوفة في البيئات القديمة كلها قبل الاسلام. وفي شبه جزيرة العرب أيضاً.

كل أمة كانت تنظر إلى نفسها على أنها من طينة غير طينة سائر الأمم، أن أسلافنا قبل الاسلام قسموا الناس قسمين: عرباً (يفصحون فيفهمون إذا تكلموا) وعجماً (لا يفهم العرب عنهم ما يقولون). وكذلك اليهود قسموا الناس ثلاثة أقسام: دعوا أنفسهم اليهود العبرانيين (لأنهم من نسل عبراني)، ودعوا الداخلين من غير نسلهم في اليهودية «الصائبين المتهودين» ودعوا جميع من هم غير ذلك أميين (أي من أمم غير أمتهم). واليونان قسموا البشر يوناناً وبربراً، والرومان جعلوا الناس أيضاً رومانيين وبربراً؛ وإذا بلغ أهل شعب إلى أن يصلوا في الحضارة والعلم إلى مستوى الرومان سموهم مواطنين.

ولقد عاش اليهود على هذه العصبية الجنسية إلى اليوم، وهم يطبقون ذلك اليوم فيما يسمونه اسرائيل. فاليهودي الغربي من الدرجة الأولى.

واليهودي الشرقي من درجة أدنى منها. أما العرب فالله أعلم بحالهم هناك. وكذلك النصارى عاشوا إلى اليوم على العصبية الجنسية أو العنصرية في جنوب أفريقية وفي زيمباوي روديسيا. ما عهد هتلر منا ببعيد. والسود والبيض في الولايات المتحدة متساوون في النصوص المكتوبة في القوانين، ولكن الأبيض في الحياة الاجتماعية العملية فوق الأسود في كل شيء.

ورأي اليهود والنصارى في الرق يرجع إلى قول في التوراة الموجودة بأيديهم هو أن الله جعل أولاد حام الكنعانيين عبيداً لأولاد سام، زعموا أن نوحاً غضب على ابنه فدعا عليه بأن يجعل الله أولاده عبيداً. وكان من أثر دعوة نوح على ابنه حام أن أصبح أولاد حام أيضاً سود البشرة. هذه الخرافة جعلت نفراً من علماء العرب منهم الجاحظ ومنهم ابن خلدون يتهكمون بهذه البداثية القاصرة والدالة على جهل واضعها بالغفلة عن أثر المناخ وعوامل الطبيعة من حر وبرد في ألوان البشر.

أما الاسلام فلم ينظر إلى البشر من حيث لونهم أو من حيث نسبهم أو من حيث قطرهم بل من حيث قيمتهم الذاتية ومن حيث عملهم. ففي القرآن الكريم (٤٩ : ١٣ سورة الحجرات): ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم. ان الله عليم خبير﴾.

وأما في الحديث فالكلام في ذلك متسع جداً. من ذلك مثلاً قوله صلى الله عليه وسلم: «ليس منّا من دعا إلى عصبية». والاسلام لم يجعل لتلك القواعد نظريات، بل سلكها في الحياة فنحن نجد في كرام صحابة رسول الله طلحة العربي وسلمان الفارسي وصهيبا الرومي وبلالاً الحبشي. ونجد في القادة العظام عمرو بن العاص العربي والأفقشني والتركي وعبد الله بن طاهر الفارسي وصلاح الدين الكردي والظاهر بيبرس الجركسي. وفي الملوك العظام نجد المأمون وأمه فارسية ثم المعتصم وأمه تركية كما نجد

قبلها عبد الرحمن الداخل وكانت أمه بربرية ثم جاء بعده الخليفة الحكم المستنصر وكانت أمه بشكنسية (من أهل الشمال من الأندلس).

فالاسلام هو الذي ساعد على بناء حضارة واسعة شاملة تستفيد من جميع جهود بني الانسان أو من جهود بني الاسلام.

قامت الحضارة التي أرسى الاسلام قواعدها على أربعة مدارك: على الكرامة الانسانية وعلى العدل وعلى السلم وعلى العلم وعلى العمل.

١- في الكرامة الانسانية:

ان الاسلام لم يعرف الطبقات الاجتماعية، أو هو عرفها عند الأمم الأجنبية ثم دعا إلى هجرها:

- ان اليهودية اعتقدت أن شعوباً هي في العبيد الأرقاء منذ الولادة ومن الجنس أيضاً. وأما النصرانية فإنها تعتقد أن الانسان يولد نجساً مذنباً لما لحقه من الخطيئة المميتة - خطيئة آدم، فيما زعموا، لما اتصل بحواء - ثم هم يعتقدون ان المسيح جاء ليحمل عن البشر خطيئاتهم. وأما المجوس في الهند فلا يزالون إلى اليوم يعتقدون أن البشر طبقات في أسفلها المنبوذون، فإذا مسّ أحد هؤلاء المنبوذين هندياً ممن يعتقدون في أنفسهم الشرف لتحدرهم من البراهمة أو من الفرسان والطهارة، وجب على هذا المعتقد شرف نفسه أن يقتل ذلك المنبوذ ثم يتطهر مما كان قد علق به من الدنس لما مسه أخوه في الدين والوطن.

أما الاسلام فأعلن أن الانسان يولد على الفطرة الزكية الطاهرة. ثم الانسان يولد كريماً مستحقاً للاحترام. ففي القرآن الكريم في هذا النطاق قوله تعالى (١٧ : ٧٠ سورة الاسراء): «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا».

لا يستطيع أحد أن ينكر أن العصبية أو ما يسمى في أيامنا «التمييز العنصري» سبب من الاسباب المسؤولة عن الحياة الانسانية المضطربة في

الشرق والغرب، كما لا يستطيع أن ينكر أن هذا الاضطراب مسؤول عن بقاء جانب كثير من العالم الانساني في حال من التخلف المعيب. أن النظرة الانسانية الشاملة التي جاء بها الاسلام ساعدت على استقرار الأمن. وفي ظل الأمن وحدة ترقي الحضارة، ولا يمكن أن تنشأ حضارة - كما لا يمكن أن تستمر حضارة إذا كانت قد نشأت من قبل - إلا إذا كان في البلاد أمن. وأهل لبنان اليوم، والذين يزورون لبنان اليوم، وكانوا قد زاروه من قبل، يدركون قيمة الأمن في نشأة الحضارات وفي حياتها. أن الحياة اليوم في لبنان تتقهقر نحو البداوة باضطراب الأمن فيه. والمسلمون في لبنان وفي كثير من البلاد العربية، مسؤولون عما يجري في لبنان ويخشى أن يحدث في غير لبنان ما يحدث في لبنان. وسبب ذلك أن جانباً كبيراً من العرب قد نسي أنه جزء من الأمة الاسلامية، فالنزاع دائر في البلاد، في المشرق والمغرب، وفي قلب عدد من البلاد نفسها. ان الذي جمعه الاسلام بالتوحيد وبالاعتصام بحبل الله قد فرقه انتساب جماعات من العرب إلى آراء سياسية واجتماعية واقتصادية ليست من الاسلام ولا من العقل ولا من السياسة ولا من الاجتماع ولا من الاقتصاد.

هذا يدخل في باب الكرامة الانسانية التي جاء بها الاسلام. والعرب الذين يعملون بدوافع عصبية قد نسوا هذه القاعدة التي تقوم عليها الكرامة الانسانية، أو تقوم عليها الحياة الانسانية. ان زعماء الاحزاب اليوم - في كل مكان في الشرق وفي الغرب - يصدرون عن أن قومهم هم الذين ينتسبون إلى حزبهم، ولو كانوا لهم من قبل أعداء. هذا موضوع طويل أخشى أن ينتقل البحث فيه من العلم المنطقي إلى السياسات المحلية. من أجل ذلك سأنتقل إلى قاعدة تالية من قواعد الاسلام في بناء الحضارة الانسانية.

٢ - العدل:

العدل الاسلامي هو العنصر الثاني الذي نشأت به الحضارة في بلاد

الاسلام وفي البلاد التي حكمها الاسلام. هذا العدل الاسلامي مختلف عما يسمى «عدلاً» في كثير من البلاد الأجنبية وفي البلاد الاسلامية نفسها. ان عدداً من الشعوب وعدداً من الجماعات يعتقد أن العدل يجب أن يكون للقريب والنسيب والحبيب. ان هذا العدل تجارة. أما العدل الاسلامي فإنه مبذول لجميع الناس من صديق أو عدو ومن قريب أو غريب، ذلك لأن العدل يدل على القيمة الذاتية في نفس العادل عينه، تلك القيمة التي تمكنه من أن يسير في الحياة سيراً صحيحاً صالحاً نافعاً. وان الاعتقاد بأنك أنت وحدك على حق وان كل انسان آخر مخطّئ يدلّ على نقص فيك أنت ثم يمنعك من أن ترى الأمور كما هي.

لقد علمنا الاسلام هذا العدل في آيات كثيرة من آي القرآن الكريم قال الله تعالى (٤ : ٥٨ سورة النساء): ﴿ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾. ان الله سبحانه وتعالى لم يقل «وإذا حكمتم بين المسلمين» ولا «وإذا حكمتم بين الأقربين»، بل قال عزّ من قائل: ﴿وإذا حكمتم بين الناس﴾، أي بين كل فريقين من الناس. وهذا التفسير واضح من الآية الكريمة التالية (٥ : ٨ سورة المائدة).

﴿يا أيها الذين آمنوا، كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط. ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا. أعدلوا، هو أقرب للتقوى. واتقوا الله، ان الله خبير بما تعملون﴾..

في هذا المدرك للعدل الانساني لا أريد أن أناقش الموضوع من ناحيته النظرية، بل من جانبه العملي. ان قصة اسرائيل مع العالم العربي خاصة ومع العالم الاسلامي عامة معروفة. ولعل خطأنا الأول فيما وصلنا إليه أننا لم نكن عادلين في النظر إلى أنفسنا نحن. نحن كنا نسميها «دولة مزعومة ثم نخفي الحقائق المتعلقة بنا وبها عن أعيننا وأعين الذين ولانا الله أمرهم وجعلنا مسؤولين لديه عنهم. ولم نكتف بكتمان أخبارها، بل كنا دائماً

نصغّر من شأنها ونهوّن من أمرها ونغمض بأيدينا عيوننا وعيون قومنا عن شرها. وبين ليلة وضحاها أصبحت هي حيث هي وأصبحنا نحن حيث نحن.

بلغت الحضارة الاسلامية ذروة من ذرواتها في أيام الخليفة الأموي عمر ابن عبد العزيز، وهو معروف في تاريخنا بأنه «الامام العادل». وفي أيام عمر ابن عبد العزيز كان المسلم يحمل زكاته في كفّه ويطوف بها بلاد الدولة الإسلامية فلا يرى من يستحقّ أخذها لأن الازدهار الاقتصادي كان عاما. لقد كان ذلك في أيام عمر بن عبد العزيز لأنه كان عادلاً في قومه وعادلاً في غير قومه. ومما يجب علينا نحن اليوم أن نتعلمه في الحياة السياسية سلوك عمر بن عبد العزيز.

كان بنو أمية قد أخذوا الخلافة من بني هاشم في حديث طويل يعرفه المسلمون وغير المسلمين. وكان الخلفاء الأولون من بني أمية ضيّقي الأفق في هذا الشأن: كانوا في خطبة صلاة الجمعة يسبون بني هاشم (والسّب هنا كلام في الآراء السياسية - مما نعرفه اليوم من الأخذ والرد بين الأحزاب السياسية: بين الرأسمالية والاشتراكية، بين الديمقراطية والاستبداد وما أشبه ذلك). فلما جاء عمر بن عبد العزيز نظر إلى الخلافة بعين العقل والحق، ولم يرض أن تكون المنابر أماكن للسب والشتم، ولا رأى من العقل أن يغمض الناس عيونهم عن حقائق الحياة، فأمر بابطال اللعن - أو السب أو الشتم، وكلها هنا بمعنى - وبأن يقرأ الخطباء بعد الخطبة الأولى في صلاة الجمعة قوله تعالى (١٦: ٩٠ سورة الاسراء):

﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكروالبغي، يعظكم لعلكم تذكّرون﴾.

وليس مستغرباً أن يقال في الحكم السائرة والقواعد الدائرة على الألسن: «العدل أساس الملك». إن العدل أساس الحياة. ولولا العدل

- وضع الامور مواضعها وأداء الامانات إلى أهلها - أو كما يقال في اللغة السياسية الحاضرة: وضع الرجل الكفؤ في المكان المناسب لفسدت الحضارة وانقلب البشر كلهم إلى همجية مطلقة.

هذه القاعدة الحكمية التي جاء بها الاسلام أقرت الحضارات في العالم كله وحينما يذهب أحدنا إلى البلاد التي نسميها متقدمة فاننا نجد هذا العدل الذي تعلموه، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، من الاسلام. ودليل ذلك - في الاعّم الأغلب - أنك إذا تقدمت بطلب ما في تلك البلاد، فإن هذا الطلب ينتقل في الدوائر من تلقاء نفسه، بقطع النظر عن صاحب الطلب ومكانته.

نحن نعلم أيضاً أنه قد يحدث في البلاد الغربية الراقية شذوذ عن تلك القاعدة من العدل، ولكن العدل في ذلك - أي سير المعاملات الحكومية من تلقاء نفسها - ولكن هذا الشاذ هناك هو، مع الأسف، القاعدة عندنا.

٣ - السلم:

والسلم أيضاً من أسس الحضارة. ولا شك في أن الأمم كلها منذ أقدم الأزمنة قد تقلبت في الحرب والسلم، ولكن العالم لم يعرف ديناً قبل الاسلام وضع للحرب وللسلم قواعد انسانية: والاسلام وحده هو الذي عرف السلم المسلح: وهو الاستعداد للحرب الذي يرهب الخصوم فلا يثيرون على الناس حروب اعتداء. هذه السياسة التي يقال أنها جديدة في عالمنا قد جاءت مع الاسلام. ففي مكان واحد من القرآن الكريم، في سورة الأنفال (٨: ٥٦ - ٦٢) بسط لفلسفة الحرب والسلم ولسياستها ثم للعنصر الانساني الذي جاء به الاسلام. ويحسن هنا أن نورد الآيات الخمس ففيها الحلف ونقض الحلف واعلان الحرب وعقد السلم وخيانة العدو ومطاولته في خيانته إلى جانب التلويح بالسلم قبل الدخول فيه. كل

هذا من علم السياسة الدولية ومن أسس السياسة التي تناجز الدول القوية بها أرباب الدول المستضعفة. هذه السياسة الحكيمة أخذها الأغيار من الاسلام ثم أهملنا نحن العمل بها. قال الله تعالى:

«الذين عاهدتم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون، فأما تثقفنّهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم لعلّهم يذّكّرون، وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين، ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا، إنهم لا يعجزون، وأعدّو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم. وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكلّ على الله، إنه السميع العليم. وإن يريدوا أن يخدعوك فانّ حسبك الله، هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين.

ثم تأتي ثلاث عشرة آية، إلى آخر سورة الأنفال، فيها قواعد تتعلق بالمسلمين مما يمكن أن يسمى في أيامنا بأمن الجبهة الداخلية. ولكني اكتفيت هنا بايراد الآيات الخمس المذكورة فقط. إن هذه الآيات الخمس تضع لنا القواعد التي تمكننا - إذا نحن فهمناها وعملنا بها - من أن نساوي بها خصومنا في الشرق والغرب وفي قلب العالم الاسلامي أيضاً. ومن عجب أن خصومنا اليهود والنصارى والمجوس والملحدين يستمعون إلى القرآن الذي نزل إلينا وينصتون له ويفهمونه ويدركون جواهره ثم يطبقونه، فيما يتعلّق بمصالحهم، علينا بينما نحن، وأقصد كبراءنا من القرّاء للقرآن في المجالس العامة ومن غيرهم أيضاً قد علّموا عوام ناسنا أن يصيحوا عقب كل آية يرفع قارئهم بها صوته بأصوات يصيحون بمثلها إذا هم استمعوا إلى مغنّية من المغنيّات أو إلى مشعبذ من المغنّين. فعلى الذين حملوا القرآن أن يدركوا أنهم حملوا القرآن نعمة من الله عليهم ورسالة إلى الناس لا تجارة بآيات الله. وما أحسن ذلك القاريء الذي يرتل القرآن الكريم على مهل فتصغي إلى قراءته الآذان وتخشع لها القلوب وتنتفع بها الأفهام.

٤ - العلم:

والعلم من دعائم الحضارة ثم هو زينة لها أيضاً. لما ظهر الاسلام وجاء بالعلم ورفع مكانة العلماء، كانت أوروبة كلها والعالم المعروف يومذاك في ظلام دامس من الجهل والتخلف. وبعد قرنين من الزمن كانت اللغة العربية والأدب العربي والدولة الاسلامية، كما كان العلم في الاسلام والفن والصناعة والتجارة والبناء وكل ما يمت إلى الحضارة بسبب قريب أو بعيد في الذروة. وقد كانت أوروبة في ذلك الحين ومن قبله ومن بعده في العصور التي سماها المؤرخون الأوروبيون أنفسهم «العصور المظلمة». ومن أول دلائل الحياة الثقافية في أوروبة أن الأمبراطور شارلمان الذي توفى عام ٨١٤ للميلاد - سنة ٢٠٠ للهجرة - كان قد أنشأ في قصره مدرسة لتعليم أبناء الامراء مبادىء القراءة والكتابة.

وظلت أوروبة على مثل ذلك حتى جاءت الحروب الصليبية ولم يكن لهؤلاء الصليبيين الاوروبيين، من فرنجة وايطاليين وألمان وانكليز - ولا نتكلم على الدنمرك وأسوج ونروج وعلى الصقالية الروس في شرقي أوروبة - إلا فضيلة القوة البدنية في القتال، كما قال اسامة بن منقذ.

وانتهت غارات الافرنج على العالم الاسلامي - أو الحروب الصلبية، كما يسميها المؤرخون الغربيون بانتصارين للاسلام: بانتصار عسكري في ميادين القتال ثم بانتصار ثقافي في ميدان الحياة الانسانية. لقد رجع هؤلاء الفرنجة من ميادين القتال بثروات ثقافية وحضارية لا تقدر بثمن. أخذوا تلك الأشياء الثقافية والحضارية بأسمائها: فهم كلهم - في جميع لغاتهم - يقولون: سكر، الجبر، صوفا (من العربية: صفّة)، داماسك (من لفظة: دمشق لنوع من النسيج)، شراب (ويلفظونه: سيروب، لأن اللغة اللاتينية التي استعارت الألفاظ من المسلمين لم يكن فيها شين)، ليمون (ليمون)، الغول (لنجم معروف)، كيمياء (ويقولون الشيمي، الكمي، شيمي، كمستري)، ومئات أخرى من الكلمات التي أخذوها لما أخذوا العلوم

والأدوات المسماة بها، كما أخذنا نحن منهم في عصرنا الحاضر: تلفون، راديو، نيلون، وأخذنا معها الأسماء التي كانوا هم قد سموها بها.

أما حديث العلم عامة فسنقتصر منه على جمل فيها مقارنة بين المدرك القديم فيها والمدرك الاسلامي الجديد، وسنقتصر على الاشارة، لأن كل فرع من فروع العلم يحتاج إلى كتاب:

- كان اليونان - وهم أهل العلم في زمانهم - كما كانت الامم الاخرى - يعتقدون كلهم أن النجوم تعرف الغيب فيلجأ أولئك الناس إليها في استطلاع الغيب وكان اليونان خاصة يعتقدون أن للنجوم نفوساً وأرواحاً وأن النجوم الكبرى، وهي التي تدل عندهم على الغيب، مساكن للآلهة.

وجاء الاسلام فحرم التنجيم، إذ لا يعلم الغيب إلا الله. ثم جاء في القرآن الكريم أن هذه النجوم أجسام تدل على السنين والشهور وتنتقل في أفلاكها بحسبان مقدر، كل ذلك لنتعلم منها عدد السنين والحساب. فانشأ المسلمون المراصد وقاموا بالأرصاد ونظموا الجداول.

وأخذ الغربيون ذلك كله من المسلمين وأضافوه إلى ثقافتهم وخدموا به الحضارة، كما كان اسلافنا قد خدموا الحضارة.

ولم يكن للاتنين رموز يدّونون بها الأرقام، بل كانوا يكتبون الأرقام كتابة أو يرمزون إليها بخطوط أو بأحرف. وكل ذلك لم يكن يساعد على تطور العلوم الرياضية، فلا يساعد على تدوين الأعداد الكبيرة ولا يمكّن من بناء المعادلات.

ولما جاء الاسلام جمع عبقريات الأمم ووضع قاعدة للثقافة والحضارة في القول المأثور: الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها التقطها. ووجد محمد بن موسى الخوارزمي عند الهنود رموزاً للأرقام مختلفة من الرموز للأحرف. ولكن الهنود لم يكونوا يستخدمون هذه الرموز في تدوين الأعداد ولا في حل

المسائل. ومع أن الهنود كانوا مجوساً فان محمد بن موسى الخوارزمي لم يتحوّب من أن يأخذ عنهم وجهاً من وجوه العلم، ما دام الاسلام قد قال بأن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث يجدها. وبفضل الخوارزمي الذي تناول الأرقام من الهنود وطورها واستخدمها في الوجوه التي نستخدمها نحن فيها الآن أصبح بمقدورنا أن ندون الأعداد الكبيرة وأن نبني المعادلات الطوال ونحلّ المسائل المعقّدة. ولم ينسى العالم فضلنا في ذلك، كما لم ننسى نحن فضل الهنود فيه. نحن نسمى هذه الأرقام «الأرقام الهندية» لأننا تناولناها من الهنود. والعالم الغربي يسميها الأرقام العربية لأنه تعلّم استخدامها منا.

وللاسلام فضل آخر في هذا السبيل، كما كان لذلك القول المأثور «الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها التقطها» نفع آخر.

لما فتح المسلمون أعينهم على العالم الخارجي وجدوا عند الأمم القديمة كتباً في كثير من أبواب العلم فأحبوا أن ينقلوا هذه الكتب إلى اللغة العربية، مع أن هذه الكتب قد وضعها وثنيّون ومجوس ونصارى. ولم يكن المسلمون أيضاً يعرفون اللغات القديمة من يونانية وهندية وسريانية فيستطيعوا قراءة تلك الكتب. فلجأوا إلى نفر كانوا يعرفون هذه اللغات. ولقد اتفق أن يكون اولئك كلهم من المجوس أو الصابئة أو النصارى أو اليهود. فاستعان العرب المسلمون باولئك النفر لينقلوا ذخائر العلم القديم إلى لغة القرآن، فان العلم نعمة من الله. فاذا أراد انسان أن يسيء إلى تلك النعمة فانما يسيء بذلك إلى نفسه. ولا يكون لهذه الاساءة أثر في تلك النعمة. لقد تعلّم المسلمون ذلك من رسول الله. لقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد أمر نفراً من أصحابه أن يتعلموا العبرية لأن من تعلم لغة قوم أمن مكرهم.

وبعد أمد طويل استفاقت أوروبة من سباتها ثم احتاجت إلى العلوم القديمة، وقد كان كثير من كتب تلك العلوم قد ضاع بعوامل الزمن

المختلفة. فالتفت الاوروبيون إلى الكتب التي كان العرب قد نقلوها عن القدماء فنقلوها هم إلى لغاتهم فاستمر موكب الحضارة الانسانية في سيرة من الامم الموغلة في القدم إلى اليونان إلى المسلمين فإلى النصارى من أهل أوروبة.

والاسلام علّم المسلمين الحرية في التفكير. وليس معنى الحرية هنا الانعتاق من قيود العقل أو من قيود الخُلق. ولكن الحرية في التفكير هنا استقلال المفكر في اتجاهه المنطقي وفي القياس على الأحوال المحيطة به في مكانه وزمانه والمثل المشهور في ذلك هو مسألة تأبير النخل.

جاء نفر إلى رسول الله وسألوه أيؤبرون نخلهم أو لا يؤبرونه؟ فقال لهم لا تؤبروه، اعتماداً على أن الله هو الذي يرسل الرياح التي تحمل اللقاح من شجرة النخيل الذكر إلى شجرة النخيل الأنثى. وترك اولئك النفر في ذلك العام تأبير نخلهم - أي نقل اللقاح بأيديهم من الشجرة الذكر إلى الشجرة الانثى - فلم يعط نخلهم في ذلك العام كما كان يعطي في الأعوام السابقة. كان في ذلك العام عندهم في عذق النخل حبّات يانعة وحبّات غير يانعة. ورجعوا إلى الرسول فيما اتفق لهم. فقال لهم: أنتم أعلم بأمور دنياكم.

نحن لا نؤبر التفاح ولا التين فالنحل والريح يتوليان ذلك عنا. ولكن للنخل حالاً خاصة يحسن نقل غبار اللقاح من شجرة إلى شجرة باليد وكان قول الرسول، صلى الله عليه وسلم، يتناول القاعدة العامة. فلما وجد الرسول أن بعض النخل الذي لم يؤبر لم يؤت أكله تاماً قال للناس من أصحاب الاختصاص في الزراعة: أنتم أعلم بأمور دنياكم.

إن هذا الحادث اليسير يكشف لنا عن اتجاه في العلم لم يكن معروفاً من قبل. إن معرفة اللقاح بين النبات تعلّمه البشر من القرآن من قوله تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ (١٥: ٢٢ سورة الحجر)، ذلك لأن اليونان

لم يعرفوا ذلك. وإذا كان أحد العلماء القدماء قد خطر له ذلك، فانه لم يترك أثراً في الثقافة الانسانية وذلك راجع إلى أن ارسطو وهو كبير المفكرين في الفلسفة القديمة وأعظم المفكرين أثراً في تاريخ العلم القديم، قد أنكر أن يكون في النبات ذكورة وأنوثة. فالذين قالوا بلقاح النبات تعلّموا من الاسلام ولم يعرفوه من مصدر آخر.

وفي علم الحياة أمر آخر عرفه العالم من الاسلام، هو تخلّق الجنين في الرحم. قال الله تعالى (٣٩: ٦، سور الزمر):

﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها. وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج، يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث. ذلكم الله ربكم له الملك، لا الاه إلا هو. فأنى تصرفون؟﴾.

هذا أيضاً شيء تعلمناه نحن من القرآن الكريم ثم تعلمه منا سائر الناس لأنه لم يعرف حتى ذلك الحين إلا من القرآن الكريم. أن هذا الجنين الذي يتقلب في الرحم خلقا من بعد خلق أنه جنين حيّ يتطور فيمر في أطوار ثلاثة. تلك حقيقة من حقائق علم الحياة لم يكن من الممكن أن يعرفها البشر - في ذلك الحين - إلا من الوحي الالهي الذي جاء بالرسالة الاسلامية. ودليلنا على ذلك أن اخوان الصفا وهم جماعة سرية نشأوا في البصرة في القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) أرادوا أن يقيموا للبشر كلهم ديناً على الفكر والاخلاق، فألفوا رسائل تطبع اليوم في أربعة أجزاء كبار جمعوا فيها ما كان معروفاً في أيامهم من المعارف العلمية والفلسفية، وأكثر اهتمامهم، كما كانوا يقولون، كان بالعلم اليوناني. إنّ إخوان الصفا يذكرون في رسائلهم (٢: ٣٥٧ - ٣٥٩): وفي الشهر الثالث (لحمل الجنين) يصبح التدبير (التأثير على الجنين) للمريخ. فاذا كمل الشهر الثالث، انتقل الجنين (في الشهر الرابع) إلى تدبير الشمس - وهي رئيسة الكواكب وملكة الفلك وقلب العالم فتنفخ (في الجنين) روح الحياة وتسري

فيه النفس الحيوانية». ومعنى هذا عندهم أن النطفة حينما تستقر في الرحم تكون ميتة لا حياة فيها، ولا تبدأ الحياة في الجنين إلا في الشهر الرابع. ومن هنا جاءت الخرافة الدائرة بين النساء من أن الجنين «يتحرك» في الشهر الرابع. والحقيقة أن الجنين يتحرك منذ أول الحمل (لأنه كائن حي)، ولكن حركته تكون آنذاك خفيفة لا تشعر بها المرأة الحامل. وبما أن رسائل إخوان الصفا قد جمعت المعارف العلمية عند اليونان وعند غير اليونان فمعنى ذلك أن الامم القديمة لم تكن تعلم أن الجنين يكون حياً منذ اللحظة الاولى لسقوط النطفة في الرحم. ولو عرفت الامم القديمة ذلك لذكره إخوان الصفاء في رسائلهم فهذا اذن شيء آخر تعلّمه الاطباء من الاسلام أو انتقل إليهم من أثر الاسلام.

وعلى كل حال، يحسن ألا يسبق إلى الذهن أنني هنا أقيم موازنة بين الاسلام والعلم عند الامم القديمة. لا قدّر الله ذلك. هذه من تحصيل البشر العاجزين وذلك وحي من الله العزيز القدير. ولكني قصدت أن القرآن جاء وكل ما فيه بما فيه من مفردات العلوم الطبيعية التي يظن معظم الناس أنها من نتاج العقل - الانساني الحديث - صحيح صادق. ثم قصدت أيضاً أن أقول أن الناس، قديماً وحديثاً، من المسلمين ومن غير المسلمين، قد تعلّموا من الوحي الالهي الذي نزل على محمد - صلى الله عليه وسلم -.

وقد يسأل بعض الناس فيقول: إذا كان هذا الوحي كله - سواء انزل على محمد عليه السلام أو نزل على الانبياء الذي كانوا من قبل - من عند الله، فلماذا لا نجد هذه المعارف العلمية في كتب الوحي الاخرى؟

الجواب على ذلك يكون من جانبين:

أولاً: إن الكتب السماوية القديمة، كالتوراة والانجيل، مرفوعة، أي ضائعة من يد الذين نزلت على أنبيائهم، فلا نستطيع الحكم عليها.

ثانياً: لا ينتظر أن تكون هذه الأشياء العلمية موجودة في كتب الوحي القديمة، لقوله تعالى (١٤: ٤ سورة ابراهيم): «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبينّ لهم».

والبشر من قبل لم يكونوا كلّهم قد بلغوا من العلم مبلغاً يمكن معه أن يخاطبوا بكثير من حقائق العلم مما لا يمكن أن يبيّنه الرسول لعامة قومه في زمانه. إن الحضارة الانسانية العامة لم تكن مهيأة لتقبل المعارف العميقة في الحياة.

إن هذا الموضوع: «أثر الرسالة الاسلامية في الحضارة الانسانية» موضوع واسع جداً، كما قلت في صدر مقالي هذا. من أجل ذلك أشرت إلى رؤوس المعارف فيه اشارات سريعة، وإلا فكل نقطة من نقاطه تحتاج إلى مقال مستقل.

غير أني لا أريد أن أفرغ من مقالي هذا قبل أن أشير أيضاً إلى نقطة أخرى في هذا الموضوع هي أن أثر الاسلام في التفكير الانساني - والتفكير جانب من جوانب الحضارة - قد تبدى للمفكرين منذ جاء الاسلام. ففي أيام محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يأتي إلى الرسول - مرة بعد مرة - أناس يسألون أسئلة من هذا الباب، فكان من هذه الاسئلة ما تحسن الاجابة عليه في ذلك الحين كما كان بعضها الآخر مما يحسن السكوت عنه. ففي مثل ذلك نزل قوله تعالى (٥: ١٠١ - ١٠٢): ﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسوءكم، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم. عفا الله عنها، والله غفور رحيم * قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين». ويجب ألا ننسى أيضاً أن «علم الكلام» - وهو علم كانت غايته الموازنة بين ما جاء به الدين وما كان يشغل العقل الانساني - قد تعرّض، منذ القرن الأول للهجرة، لمثل تلك البحوث ولم يحصل الناس من ذلك كله على طائل. إن علم الكلام يمثل مرحلة من مراحل تطور العقل الانساني، كانت منه نتف في اليهودية

والنصرانية ثم في المجوسية فيما أحسب ولكن قواعد هذا العلم رست في الاسلام، وكذلك فروعه تبسطت في الاسلام أيضاً. ومع ذلك فقد قال ابن خلدون في مقدمته أن هذا العلم يفيدنا تاريخاً للجدال أكثر مما يفيدنا ايقاناً بالعقائد، كما كان المقصود بهذا العلم أولاً. وخطر لابن خلدون رأي الناس في صلة المعارف التي وردت في القرآن الكريم بحقائق العلم المقصودة فقال لنا في مقدمته قولاً أشرته إلى من قبل. هذا القول هو (مقدمة ابن خلدون) أن القرآن جاء لتعليم الفقه والاخلاق ولم يأت لتعليم الطب والعلوم العادية (القديمة) غير أن كل ما ذكر في القرآن من المعارف صحيح، ولكن ليس في القرآن كل ما جاء به العلم قديماً وحديثاً. من أجل ذلك لا يجوز لنا أن نحمل آيات القرآن فوق ما يحتمله معناها الذي قصدت به، فان في ذلك خطراً كبيراً جداً يحسن أن ننظر إليه من جانبين.

ربما كان الذي يجيل فكره في هذا الميدان (ميدان العلم وما جاء منه في القرآن الكريم) ليس من أهل الاختصاص في القرآن أو في العلم أو فيهما كليهما وحينئذ يقع ذلك الشخص في خبط كثير ثم هنالك أمر أشد من الخطر. إن العلم يتطور ويتبدل. وربما قال العلماء شيئاً اليوم ثم قالوا غيره أو ضده غداً. فاذا أتى شخص وربط بين آية من القرآن الكريم ورأى من آراء العلم ثم سوى احدها بالآخر أو بنى أحدهما على الآخر، وبعدئذ تبيَن أن ذلك الرأي في العلم كان فاسداً أو قاصراً، فما يكون موقفنا من ذلك الربط بين الآية الكريمة والرأي الذي ظهر بعد أمد أنه خطأ؟

من أجل ذلك أريد أن أمر بعدد من الكتب الحديثة التي عرض أصحابها لمثل هذا الموضوع. وقد اتفق لي أن تناولت هذه الكتب التالية من غير تقصّ لما ألف في هذا الباب:

١ - جواهر العلوم، تأليف طنطاوي جوهري، مصر ١٣١٩هـ = ١٩٠١م

٢ - التاج المرصع بجواهر القرآن الكريم، تأليف طنطاوي جوهري، مصر ١٣٢٤هـ = ١٩٠٦م.

٣ - الجواهر في تفسير القرآن الكريم، تأليف طنطاوي جوهري، مصري ١٣٤١هـ = ١٩٢١م.

٤ - القرآن والعلوم العصرية، تأليف طنطاوي جوهري، مصر ١٣٤٢هـ = ١٩٢٢م.

٥ - أثر القرآن في تحرير الفكر البشري: محاضرة لعبد جاويش ألقيت في مصر. طبعت في بيروت بعيد ١٣٤٩هـ = ١٩٢٣م.

٦ - تنبيه العقول الانسانية لما في آيات القرآن من العلوم الكونية والعمرانية تأليف محمد بخيت المطيعي (ت ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م)، طبعة جديدة حلي (بلا تاريخ).

٧ - القرآن والعلم الحديث، تأليف عبد الرزاق نوفل، مصر ١٣٧٨هـ = ١٩٥٩م

٨ - نهاية الكون بين العلم والقرآن، تأليف محسن عبد الصاحب المظفر، النجف ١٣٨٧هـ = ١٩٦٨م.

٩ - العلوم الطبيعية في القرآن، تأليف يوسف مروة، بيروت ١٣٨٧هـ = ١٩٦٨م.

١٠- لفتات علمية من القرآن، تأليف يعقوب يوسف، جدة ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م.

١١- نقد الفهم العصري للقرآن، تأليف عاطف أحمد، بيروت (١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م).

١٢- القرآن وعلم النفس، تأليف محمد مصطفى زيدان، بيروت ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م.

لعلّ أول الذين أغرموا بهذا الموضوع طنطاوي جوهري، وهو مؤلّف مصري ولد سنة ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م) وكانت وفاته في سنة ١٣٥٨هـ

(١٩٤٠). تعلَّم في الأزهر وتعلَّم شيئاً من اللغة الإنكليزية وقرأ أشياء من العلوم الرياضية والطبيعية ثم علَّم في المدارس الإبتدائية وحاضر في الجامعة المصرية وكان إهتمامه الأول منصبًّا على رؤية مفردات المعارف الإنسانية في القرآن الكريم.

إن «التفسير» الذي وضعه طنطاوي جوهري للقرآن الكريم يقع في ستة وعشرين جزءاً تتألَّف من نحو ستة آلاف وخمسمائة صفحة من القطع الكبير. وأنت تستطيع أن تجد في هذا التفسير كلّ شيء من مطالع القصائد الجاهلية (١ : ٢١) وأبعاد الكواكب عن الشمس (١ : ٤١) وفتوح الدولة الرومانية (١ : ٦٥-٦٦) وإن مرات التصديق (في المنطق) أربعة (١ : ٧٧) ولغزقابس وهو فيلسوف يوناني عاش قبل الميلاد بخمسمائة سنة (١ : ١١٤) وعجائب العلم والسياسة في القرآن (١ : ١٢١) والمادة وتنوُّعها وعلم الحيوان والنبات (الحيوان مذكور قبل النبات) وجري السفن بالكهرباء (١ : ١٢٤-١٣٥) والحب والعشق والشوق (١٣٥) وسباق الخيل - رمي الحمام - التيرو - يانصيب - اللوتيرية (١ : ١٧١-١٧٢) وعناصر مختلفة في القطن والقمح والبرسيم وغيرها (١ : ٢٠١-٢٠٥) وأنواع النبات الموجودة في البلاد المختلفة (١ : ٢٢٨-٢٣٠)، الخ.

أما الحكايات والخرافات والأسماء الأجنبية وأمثالها فكثيرة كثيرة لا تحصى. وبإمكانك أن تقول إن «تفسير طنطاوي جوهري» يحتوي على كل شيء إلا على تفسير القرآن. إنه مؤلَّف من مواد تتداعى على غير نظام وتذكر لمناسبة ولغير مناسبة. والكتاب في جملته صورة للفوضى الكاملة.

لا شك في أن طنطاوي جوهري قد أحبَّ أن يحبب الإسلام إلى الناس بما كان يقول من أنك تستطيع أن تعرف من القرآن مثلاً مقدار البوتاسيوس في نبات البرسيم ان الرجل محمود لحسن نيته، ولكن تفسيره الذي مضى عليه الآن نحو ثمانين سنة اصبح لا قيمة عملية له، لا في العلم ولا في التفسير. أما كتبه الباقية: جواهر القرآن (٢٤٠ صفحة)،

التاج المرصَّع (١٩٠ صفحة) القرآن والعلوم العصرية (٩٠ صفحة) والصفحات من القطع الصغيرة - فمنهاجها منهاج تفسيره.

أما عبد العزيز جاويش المتوفي سنة ١٣٤٧هـ (١٩٢٩م) فهو أديب وكاتب وخطيب اشتغل في مصر بالصحافة فكتابه (محاضرات تقع في نحو ستين صفحة من القطع الصغير) أراد به أن يوازن بين موقف الإسلام من العلم وموقف النصرانيةخاصة، وهو يلحّ على أن المسلمين اهتموا بالفلسفة اليونانية أكثر من اهتمام النصارى الأوروبين بها، مع أن الأوروبين أقرب إلى اليونان من المسلمين إلى اليونان. ومع ان المادة في محاضرات عبد العزيز جاويش لا تختلف من تفسير طنطاوي جوهري كثيراً فإنها أحسن إيجازاً وتنسيقاً وأبين مغزى وتنظيًا.

وأما كتاب الشيخ محمد بخيت المطيعي المتوفي سنة ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) فقد كان مفتيا في مصر في مدى سبع سنوات أولها سنة ١٣٣٣هـ (١٩١٤م) - والمطيعي أكثر وعياً لحقائق العلم من طنطاوي جوهري وأكثر حذراً في إقامة الموازنات بين المظاهر الطبيعية والآيات. وفي كتاب المطيعي معرفة أكثر مما في كتب طنطاوي جوهري ومما في محاضرات عبد العزيز جاويش. غير ان في الربط بين الفحم الحجري والآية الكريمة: ﴿وهو الذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى﴾ (٨٧: ٥سورة الأعلى) تمحلاً بعيدا ليس المقصود من الآية الكريمة.

وإذا نحن نظرنا إلى كتاب عبد الرزاق نوفل «القرآن والعلم الحديث» من الجانب العلمي الذي هو حث على التأمل في آيات القرآن وفي شمولها لأحوال البشر، فالكتاب يكون جيدا ومفيدا. ويبدو ان عبد الرزاق نوفل قد تناول قصة الفحم الحجري (ص٧٥) من الشيخ محمد بخيت ثم زاد في التوسّع فيها. وكلام عبد العزيز نوفل عن البروتين (البروتئين) لا يستقيم في الدين «في سورة البقرة (٢: ٦١) يخاطب الله اليهود فيقول:

﴿وإذ قلتم يا موسى، لن نصبر على طعام واحد، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها ونشائها وثومها وعدسها وبصلها. قال (موسى) أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟﴾ ويعلّق عبد العزيز نوفل على ذلك بقوله: إن طعام بني إسرائيل (مع موسى في صحراء سيناء أيام تيههم) كان المنّ (وهو مادة حلوة تتكاثف على أغصان شجر بعينه(في العراق وفارس..) بعد سقوط الندى على تلك الأشجار ومن السلوى (طير السماني). أما أن في عدد من البقول (التي تنضج فتصبح حبوباً كالعدس والفول) من البروتئين أكثر مما في المنّ فهذا صحيح. وأما أن يكون في القثاء، وهو نوع من البطيخ ومن الخيار (المعجم الوسيط ٧٢٢)، من البروتئين أكثر مما في لحم السماني، فلا أظنه صحيحاً.

ثم إن اليهود لم يطالبوا من موسى أطعمة أكثر تغذية، بل قالوا له: «لا نصبر على طعام واحد». هم كانوا قد ملّوا من أكل لحم الطير فأرادوا أن يأكلواأشياء أخرى. ثم لو أننا قبلنا أن يكون موسى قد قصد أن يقول لقومه (كما يرى عبد العزيز نوفل) ان العدس والبصل وأنواع البقل أقلّ قيمة غذائية من المنّ ومن السلوى أيضاً، لما كان نبي الله موسى عارفا بطبائع تلك الأطعمة. وأما حشر علم الديناميكا (ص٩٧) والكلام على نيوتن واينشتين في مجال تفسير الآية الكريمة: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة﴾ (٧٠:٤ سورة المعارج) للكلام على نظرية النسبية فشيء خارج عن إختصاصي. ومع قلة معرفتي بالرياضيات العالية فأنا لا أرى في هذه الآية إشارة إلى أن الزمن المذكور فيها هو الحد الرابع الذي قصده اينشتين. أما النسبة (لا النسبية) الحقيقية التي تدّل عليها الآية - كما أفهمها أنا، وأرجو ألا أكون مخطئاً - فهي ان الله دائم الوجود وأن وجودنا نحن في العالم محدود. فمهما تطل عيشتنا على الأرض فإنها بالإضافة إلى دوام الله الأبدي شيء ضئيل. لقد كان بالإمكان ان يقول الله تعالى: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره﴾ مائة ألف

سنة أو خمسمائة ألف سنة من غير أن يتبدّل المقصود الأخلاقي من الآية الكريمة.

ويبدو أن محسن عبد الصاحب المظفر قد درس الرياضيات والفلك دراسة مقصودة، وهو يخالف (ص١٤٢-١٤٥) عبد الرزاق نوفل في تفسير الآيتين اللتين تذكران اليوم الآلهي مرّة بألف سنة ومرة بخمسين ألف سنة، بأن معنى ذلك ان سرعة الأرض في دورانها كان من قبل أكبر مما اصبح فيما بعد. ومعنى ذلك بعيد أيضاً.

إن القرآن الكريم قد خاطب العرب بهاتين الآيتين، وقال لهم (في القرن السابع للميلاد) في مرة أن اليوم عنده يساوى ألف سنة من أيامهم ثم قال لهم مرة ثانية ان اليوم عنده يساوي خمسين ألف سنة. إن تفسير محسن عبد الصاحب المظفر كان معقولاً لو أن إحدى الأيتين قد نزلت بعد الآية الاخرى ببليون سنة فقد كان من الممكن أن يقصر اليوم الأرض حتى يصبح جزءا من خمسين ألف بعد أن كان مرة جزءا من ألف فقط.

غير أننا إذا تابعنا محسن عبد الصاحب في كتابه «نهاية العالم بين العلم والقرآن» أدركنا التعثر في أدلته. هو يرى إن القرآن الكريم وإن العلم الحديث يقولان بنهاية هذا العالم (راجع ص١٧٩ وما بعد). ولكن ما معنى نهاية العالم عنده؟

إن الجبال إذا نسفت (ص١٦٨) وإن نهاية الكون بانشقاق السماء (ص١٨٤).. وغير ذلك لا يدلّ إلا على تبدّل المادة من صورة إلى أخرى. وهذا التبدّل ليس فناء ولا نهاية، كما يقول محسن عبد الصاحب نفسه (ص١٨٦) : «كون تحمَّ وحلّ محله كون آخر)... وقول القرآن الكريم واضح في ذلك، وهو (١٤: ٤٨ سورة ابراهيم): ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات...»

ونحن جميعاً نؤمن أن هذا العالم سينتهي : ستنتهي حياة البشر فيه.

ولكن الأدلّة التي يقدمها صاحب كتاب «نهاية الكون» ليست مقنعة لا من جانبها االديني ولا من جانبها العلمي . . .

وتتعاظم شكوك القارىء حينما يقرأ في كتاب «نهاية الكون» هذا المقطع (ص١٤١): «يقول علماء الفلك: إن الأرض منذ (يقصد: بعد) إنفصالها عن الشمس كانت تدور حول نفسها بسرعة أكبر مما هي عليه في الوقت الحاضر، وإن دورتها حول الشمس كانت تتمّها بفترة زمنية مقدارها أربع ساعات (كذا). وقد بدأ من ذلك الحين النقص التدريجي في سرعة دوران الأرض حول الشمس. فلم يعد الليل والنهار ليستغرق (ليستغرقا) أربع ساعات في كل دورة، بل تغيّرت الحال تبعاً لذلك. إن طولها (يعني: طول الليل والنهار) يقاس مقدار الفترة الزمنية التي تستغرقها الأرض في دورانها حول الشمس، فقد أصبح طولها (طول الليل والنهار) من بعد ذلك خمس ساعات ثم ست ساعات، وهكذا حتى بلغت الأرض وضعها الحالي. فهي الآن تتم دورتها حول الشمس بفترة أربع وعشرين ساعة وهي مقدار طول الليل والنهار الحاليين:

إن محسن عبد الصاحب المظفري يعتقد إن الليل والنهار يتشكلان من دورة الأرض حول الشمس في أربع وعشرين ساعة. وأظن أن أطفال المدارس يعرفون إن دورة الأرض حول الشمس تتشكلّ منها الفصول الأربعة وإن الليل والنهار يتشكلان من دوران الأرض حول نفسها.

فما قيمة هذا الكتاب كله بعد ذلك؟

ثم يأتي بحسب تاريخ نشر الكتب المذكورة آنفا كتاب «العلوم الطبيعية في القرآن»، تأليف يوسف مروة المولود في السابع والعشرين من جمادي الاولى من سنة ٣٥٣ (٧/١٠/١٩٣٤م)، علم الكيمياء والفيزياء والرياضيات، يحمل شهادة الهندسة الكيماوية (١٩٦١م) ولكن يبدو أن معظم نشاطه منصبّ على الفيزياء(راجع ص٨-١١). وفي كتاب يوسف مروة فصول هي:

١ - رسالة المؤلّف إلى فقهاء المسلمين حول رصد الأهلّة يقترح فيها على دار الإفتاء في بيروت أن تشتري تلسكوبا فلكيا من الحجم المتوسّط ينصبّ في دار الإفتاء ليستخدمه رجال الدين في المناسبات التي يكثر فيها الخلافات حول رؤية الهلال. حتى إذا كانت السماء ملبدّة بالغيوم في فصل الشتاء .. ولا يمكن للعين المجرّدة ان ترصد الهلال «فما المانع إذن من إستخدام المرقب كوسيلة للرصد والرؤيا؟»

وليوسف مروة نظرة صحيحة حينما يذكر ان ولادة الهلال تحدث في البلاد المختلفة في أوقات مختلفة، باختلاف وجود تلك البلاد على خطوط الطول وخطوط العرض. ولكنه يخطىء حينما يقول على لسان رجال الدين : اذا ولد الهلال في بلد فهو مولود في جميع البلدان». الذي يقوله الفقهاء العلماء» إذا رأى أهل بلد الهلال فيحسن بجميع المسلمين أن يصوموا برؤية ذلك البلد» (من الناحية العملية) وبين القولين فرق كبير.

٢ - مقدمة للسيد موسى الصدر: لقاء العلم والدين وتوزيع الصلاحيات (ص١٣).

٣ - تقديم للمرحوم الشيخ مصطفى الغلاييني (ت١٣٦٤هـ=١٩٤٤م) في العلم والدين (نشرت في سنة ١٣٤٩هـ=١٩٣١م). (ص٤١).

٤ - مدخل للدكتور صادق جلال العظم (ص٦١).

٥ - مقدمة المؤلّف (ص٦٧).

٦ - الفصل الأول : القرآن دين وعلم (ص٧١) وزّع المؤلّف فيه جانباً من آيات القرآن بحسب الموضوع العلمي الذي تعالجه.

٧ - الفصل ٢: العلوم الحديثة في القرآن (ص٨٣: مجموع من الآيات ورد فيها ألفاظ تتعلّق بالعلوم المختلفة أو توهم أنها تتعلّق بالعلوم.

٨ - الفصل ٣: الذرّة في القرآن (ص١٦١): يريد يوسف مروة أن يرجع بالنظرية الذّرّية إلى ألف ومائتي عام قبل الميلاد. وأنا أعتقد أن في إستعراضه لتطوّر نظرية «المادة الأولى» أو الجوهر الفرد أو الذرّة (أو الجزء الذي لا يتجزأ) أشياء من الخطأ التاريخي واللغوي. ومن أخطائه فهم كلمة «ذرّة في القرآن الكريم بالمعنى الحديث» «آتوم». والذرّة هي النملة الصغيرة الحمراء (راجع قواميس اللغة) - وقال الشاعر يصف إمرأة برقّة جلدها ولينه:

لو يدّب الحولى من ولد الذرّ   عليها لأندبتها الكلوم

(الحولى: الذي لم يمرّ عليه سنة بعد. أندبه: ترك فيه ندوبا أي جروحا. الكلم بفتح الكاف: الجرح)

ومن الخطأ عنده جعله كلمة آتومي فينيقية أخذها اليونان عن الفينيقيين وهذه اللفظة آ - توم يونانية (معناها: لايقسم)، ومن هنا وصف الجوهر الفرد بأنه «الجزء الذي لا يتجزأ». ثم يستغرب المؤلّف إهمال المسلمين للكلام على تجزئه الذرّة (بالمعنى العلمي اليوناني، لا بالمعنى القرآني). فيحسن بالمؤلّف أن يرجع إلى علماء الكلام في ذلك وإلى رسائل اخوان الصفا.

٩ - الفصل ٤: غزو الفضاء (لو قال المؤلّف: «وصف الفضاء، لكان قوله صواباً).

١٠ - الفصل ٥: النسبية في القرآن (مرّ قولي في ذلك: يحسن أن يقال النسبة). وكذلك لا يحسن أن نقول السنة الآلهية والثانية الآلهية، بل السنة عند الله والثانية عند الله. ولو أنّا قبلنا قوله: يوم آلهي ويوم أرضي

(بشري) لكان الموضوع هو النسبة (اضافة عدد إلى عدد آخر) لا النسبي (إختلاف حجم الجسم الواحد بإختلاف أبعاده المنتوجة من سيره في زمن).

(**) إذا أخطأت أنا في هذا التعريف أو كان تعريفي ناقصاً أو قاصراً فأنا معذور لأني لست من أهل الإختصاص في الرياضيات والفيزياء النظرية. أما خطأ أهل الإختصاص في هذين الفرعين من العلم فليس لهم فيه عذر.

١١ - الفصل السادس: النظام الرياضي الكوني (وفيه أشياء من علم العدد أو خواص الأعداد مما نعرفه في المتواليات الحسابية والهندسية وفي المربعات السحرية. ونجد هذا الفن مبسوطاً في كتاب المدخل إلى علم العدد من وضع نيقوما خوس الجرشي، وقد نقله إلى العربية ثابت بن قرة في العصر العباسي. وكذلك نجد هذين الموضوعين مبسوطين في رسائل اخوان الصفا، ولكني لا أرى لذلك صلة بما يرد في القرآن الكريم. وفي هذا الفصل أيضا قضايا من المحالات المعروفة في الجدل الكلامي نحو: هل يستطيع الله أن يخلق عالماً آخر أو أن يخلق كائناً أقوى منه أو أن يفني نفسه.

١٢ - الفصل ٧: الله والعلم الحديث (ص٢٢١): متفرقات شخصيَّة في الله وقدرته وعظمته مأخوذة من الملاحظات الشخصيَّة ومضافة إلى العلم الحديث وليس عندي رد على هذا الفصل إلا ما قاله استاذ المؤلِّف للمؤلِّف وهما في المختبر وقد أثار المؤلِّف مثل هذا الموضوع (ص٢٢٦) «أخشى أن يتحوَّل بحثنا من ميدان الفيزياء إلى ميدان اللاهوت ونتخلى عن صفتنا كفزيائيين لنصبح لاهوتيين.

١٣ - ملحق: آراء حول الدين والعلم (ص٢٤١) من كونفوشيوس (ت٤٧٩قح ق.م.) إلى المؤلِّف نفسه.

١٤ - ملحق ٢: آراء حول الإسلام.

إن هذا الكتاب كتبه رجل يشتغل بالعلم، ومع ذلك فلم يـوفّ الموضوع حقه إذ شغل نفسه بأشياء جانبية لا قيمة لها. إذا كان عنوان الكتاب «العلوم الطبيعية في القرآن الكريم»، فما صلة ذلك بقول ميخائيل نعيمة (ص٢٥٨): «..... كأن يكون ذلك المعبود عادياً ضيّقاً وضيعاً محدوداً عند الوضعاء المحدودين من البشر وسمعنا في العبقرية والرحابة والتعالي واللامحدودية الذين نفذوا بقواهم الإنسانية الخلّاقة من برودة الشائع الظاهر في الكون إلى دفء أسراره المكنونة».

يبدو أن المؤلِّف قد تخيَّل الموضوع أهون مما يجب. فلما بدأ التأليف ووجد وعورة المسلك ملأ كتابه بفصول لا صلة لها بالموضوع. ونسي المؤلِّف العالم أن العلم يقوم على البراهين وأن أقوال الناس: قال فلان وقال فلان لا يقوم لها في العلم وزن، إلا أذا كانت هي نفسها قائمة على برهان وكان برهانها مصاحباً لها وإلا فما قيمة هذا القول للمفكر الفرنسي باسكال (ص٢٤٢). «ما هو هذا الإنسان في هذه الطبيعة: إنه عدم تجاه اللانهاية». ما الحقيقة التي يقرُّها هذا القول وما المشكلة التي يمكن أن يحلها؟.

وهنالك«لفتات علمية من القرآن من تأليف يعقوب يوسف، وهو كتاب موجز عام تغني قراءته عن كتاب يوسف مروة لأن مؤلِّف اللفتات العلمية أشار إلى حقائق العلم في الآيات الكريمة إشارات قريبة واضحة ولم يدخل في التفاصيل المتشابهة فيقع في ورطات يصعب الخروج منها.

ويأتي في هذا النسق كتاب محمد مصطفى زيدان «القرآن وعلم النفس» وهو كتاب صغير موجز لا تزيد كلماته في العدد على ثلاثة آلاف كلمة. والمؤلِّف لم يشغل باله ولا شغل قرّاءه بأقوال الرجال وتفتيت النظريات. ثم أن موضوع علم النفس (وهو موضوع تربوي أخلاقي) أكثر اتصالاً بالدين من العلوم الطبيعية. والكتاب جيد ومفيد وكنت أودُّ أن أتكلَّم على كتاب «نقد الفهم العصري للقرآن» من تأليف عاطف أحمد. ثم وجدت أن هذا الكتاب ردٌّ على مصطفى محمود في كتابه: «القرآن: محاولة

لفهم عصري». ثم إن كتاب مصطفى محمود ليس بين يديّ الآن. وفوق ذلك فالذي يبدو بوضوح أن كثيراً من موضوعات الكتابين موضوعات نظرية قابلة للجدل وكثير منها متعلّق بالألفاظ أخذاً ورداً. والذي يبدو لي من خلال الكتاب الثاني أن مصطفى محمود كان يحمل النص القرآني فوق ما يجب أن يحتمل، وان عاطف أحمد يريد أن يقيِّد نفسه بظاهرة اللفظ أيضاً.

خلاصة هذا الموضوع

في القرآن الكريم أشياء كثيرة من العلم: من العلم الطبيعي، ومن العلم الاجتماعي، ومن علم النفس، ومن السياسة، ومن الإقتصاد، ومن الأخلاق وسوى ذلك.

وكل هذا الذي ذكر في القرآن الكريم من مفردات هذه العلوم ومن أسسها العامة صحيح ثابت. غير أنه لا يجوز لنا أن نحاول البحث عن جميع وجوه العلم في القرآن الكريم وأن نحمّل الآيات الكريمة فوق ما يجوز أن تحتمل.

ولا يجوز أن يجعل القرآن الكريم موضوعاً للمقارنة بشيء آخر. ثم إن القرآن الكريم كتاب سماوي غايته الأولى تعليم الدين والتربية على الخلق الكريم.

يجوز أن نتخذ من الآيات الكريمة سنداً للدعوة إلى العلم، ويجب أن نفعل ذلك كما نتخذ القرآن الكريم حجة في أمور العقيدة والعبادة وفي المعاملات أيضاً.

إن القرآن الكريم لما أتى بوجوه العلم أتى بها على سبيل العظة ولتبيان عظمة الله وقدرته وللحث على أن يقوم الإنسان بما ينفعه في حياته الدنيا وفي حياته الأخرى - . ولم تكن وجوه العلم المختلفة مقصودة لذاتها، إلا إذا كانت هي موضوع الكلام.

وقد تعرّض لهذا الموضوع - العلم في القرآن الكريم نفر كثيرون: منهم من شطّت به حماسته فتأوّل آيات القرآن على خلاف ما فهمه المفسّرون كلهم ، لأن حملتهم حماستهم للفن الذي يعرفونه على أن يجدوا في القرآن الكريم ما تعلّموه في فنّهم المخصوص .

وهنالك نفر كتبوا في هذا الموضوع من مطالعاتهم الشخصية. هم ليسوا من رجال العلم ولكنهم قرأوا أشياء من العلم المبسّط فخيِّل إليهم أن كل آية وردت فيها كلمة «شمس» أو «قمر» هي من علم الفلك. ومنهم من لا يحفظ شيئاً من القرآن الكريم، كالذي رأى كلمة «ذرَّة» في القرآن الكريم - ومعناها «النملة الصغيرة الحمراء» فظنَّ أنها الذرَّة التي ذكرها ديموقريطوس اليوناني من أحياء القرن الخامس قبل الميلاد أو الذرَّة التي عالجها روذ رفورد عام ١٩١٩م.

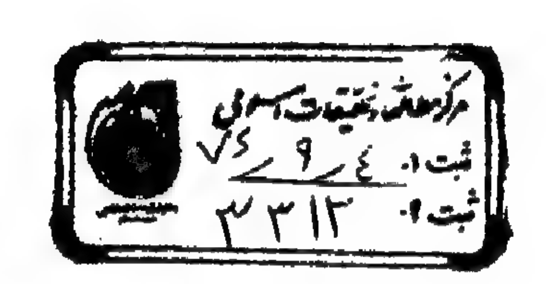
غير أن هذا كله لا يمنع من القول أن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي جاء بالعلم على النحو الذي يجب أن يكون عليه العلم، وإنه دعا الى العلم بينما جميع الأديان غير الإسلام كانت تحوِّل بين اتباعها والدين لأنها كانت تدرك أن العلم يبطل الاعتقاد بالأسرار التي كانت تلقيها على أتباعها ألغازاً أو كالألغاز. إن العلم في الديانات التي جاءت قبل الإسلام كانت احتكاراً للكهنة لا يصل إليها عوام الناس. أما الإسلام فليس كذلك. في الحديث الشريف: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. وفي القرآن الكريم (٣٩: ٩ سورة الزمر):

﴿أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائمًا يحذِّر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل: هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ إنما يتذكَّر أولو الألباب﴾.

عمر فرّوخ

الفتح الاسلامي لشمال افريقيا

بقلم
الدكتور/ محمد محمد زيتون
الأستاذ المشارك بكلية العلوم الاجتماعية
بجامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية



تمهيد عن لفظ إفريقية والمغرب وحدودهما:

سمي الساحل الشمالي من قارة إفريقيا منذ القدم عدا مصر بأسماء مختلطة فكان هيرودوت يطلق لفظ أفريكا على كل ما يلي مصر غرباً من البلاد حتى المحيط الأطلسي. وعندما تغلب الرومان على الفينيقيين أطلقوا اسم إفريقية على قرطاجنة وما حولها وهي (بلاد تونس الحالية) ثم أطلقوا على ما يليها غرباً اسم نوميريا (الجزائر الحالية) وأطلقوا على ما يلي الجزائر غرباً اسم مرطانية (وهي تشمل المغرب وموريتانيا الحالية) ثم اتسع لفظ إفريقية فشمل ما دخل تحت سلطة الروم من برقة إلى طنجة.

وعندما بدأ المسلمون فتحهم للشمال الافريقي أطلقوا لفظ إفريقية على ما يلي طرابلس غرباً ثم تحدد ذلك بعد الفتح فأصبح يشمل الإقليم الذي تتوسط القيروان ويتسع من طرابلس حتى بجاية.

أما لفظ المغرب: فهو عند الاصطخري يشمل كل ما يلي مصر غرباً ويقسمه إلى قسمين: شرقي ويشمل برقة وإفريقية وتاهرت وطنجة والسوس وزويلة. وغربي وهو الأندلس[١].

---

(١) المسالك والممالك، للاصطخري ص٣٣.

وإذا كان الاصطخري يدخل الأندلس من المغرب فإننا نجد المقدسي يدخل مصر كذلك في المغرب، على اعتبار أن المغرب ما يقابل المشرق من البلاد[١] فهو يشمل مع ذلك صقلية وكل بقعة حل فيها المسلمون من أوربا الغربية[٢].

ثم إذا أرادوا تحديد جزء من هذا الكل قالوا: برقة للقسم الشرقي من ليبيا الحالية وطرابلس للقسم الغربي منها. وقالوا: إفريقية لتونس الحالية مع الناحية الشرقية من القطر الجزائري، وقالوا: المغرب لما يلي ذلك من إفريقية الشمالية. وسموا إسبانيا والبرتغال الأندلس.

وعندما أخرج المسلمون من الأندلس صار لفظ المغرب يطلق على القطر التونسي ويسمى المغرب الأدنى. وعلى القطر الجزائري ويسمى المغرب الأوسط، وعلى القطر المغربي ويسمى المغرب الأقصى، ثم صار المغرب الأدنى يسمى: تونس، والأوسط: الجزائر. والأقصى: المغرب. بدون نعت ولا وصف[٣].

فتح برقة[٤]:

لم يذكر أحد من المؤرخين القدامى أو المحدثين سوى الواقدي استعانة حاكم الإسكندرية بحاكم برقة حين الفتح العربي لمصر فقد أرسل أرسطوليس[٥] هدية إلى الملك صاحب برقة وأرسل إليه يعلمه بما فعله

---

(١) أحسن التقاسيم، للمقدسي ص٢١٧، ٢١٨.

(٢) التعريف بالمغرب، لمحمد الفاسي ص٧.

(٣) انظر: فتح العرب للمغرب د. حسين مؤنس ص٤، المغرب الكبير د. السيد عبد العزيز سالم ص١٢٥ والمرجع السابق نفس الصفحة.

(٤) برقة: كانت قبل الفتح العربي تسمى انطابلس وهي كلمة رومية ومعناها خمس مدن وأسماؤها الآن: طوكرة، وشحات، وبنغازي، وسوسة، والمرج وكانت لها أسماء أخرى يونانية.

(٥) حاكم الإسكندرية وهو ابن المقوقس فتوح الشام للواقدي ج٢ ص٥٤.

العرب في مدة قيصر «وأنهم قد أتونا. . . وأخذوا مصر منا وأخذوا ملكنا وحكموا في بلادنا بعدنا ولا بد لهم منك ولا غنى لهم عنك والصواب أن نشمر لهم عن الهمم وتنجدنا على من بغى وأجرم فنحن جيرانك وكلنا جندك وأعوانك والسلام[1]».

ثم يصور الواقدي موقف صاحب برقة من هذه الهدية والرسالة بأنه عرض الأمر على أرباب دولته «وقال لهم ما ترون فيها كاتبكم به صاحب مصر والاسكندرية»؟ فقالوا له أيها الملك ما زالت الملوك يستنصر بعضها ببعض والذي أشار به هو الحق وأن العرب إذا ملكت ملك القبط فلا بد لهم منا والعبور إلى بلادنا فابعث بنجدة ونكون نحن وهو يداً واحدة فالمسيح يعطي النصر لمن يشاء فأجابه إلى ذلك وأمر ابن أخيه أسطفانوس أن يمضي في أربعة آلاف وأمره أن يسير لمعاونة صاحب الإسكندرية[2].

ومن هنا نرى أن إصرار عمرو بن العاص على مواصلة الفتح غرباً بعد فتح مصر والإسكندرية أمر كانت تدعو إليه ضرورة تأمين فتح مصر لا سيما وقد ثبتت الاتصالات بين حاكم الإسكندرية وحاكم برقة وتعاونهما لأجل صد جيش المسلمين ومدافعتهم عن البلاد.

يضاف إلى ذلك رغبة عمرو بن العاص في مواصلة الفتح نشراً للدين الذي يؤمن به وتبليغاً للدعوة التي خرج من أجلها هو ومن معه من الجزيرة العربية. ولم يكن إصرار عمرو على مواصلة الفتح التماساً للمغانم التي تعود عليه وعلى جنده من الغزو كما يردد ذلك بعض المستشرقين ومن يرى رأيهم من المؤرخين[3]. فالخوف من احتمال مهاجمة الروم للمسلمين من جهة الغرب براً مع ثبوت الاتصال بين الحاكمين ثم ما يتسم به عمرو

---

(١) فتوح الشام، للواقدي ج٢ ص٥٢.

(٢) المرجع السابق ج٢ ص٥٢.

(٣) انظر المغرب الكبير، د. السيد عبد العزيز سالم ج٢ ص١٤٢.

من الحذر جعله يعجل باستطلاع حالة الإقليم المجاور لمصر والإسكندرية غرباً، وبإرسال الطلائع لمناوشته وجمع الأخبار والتقريرات عنه فـ«وجه عقبة[1] بن نافع الفهري إلى زويلة[2]، وبرقة فافتتحها ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح أهلها[3]».

وقد أقبل كثير من أهل برقة على الإسلام وسلس قيادهم للمسلمين مما جعل عمراً يرسل تقريراً إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول فيه: «إنه قد ولّى عقبة بن نافع الفهري المغرب فبلغ زويلة وأن ما بين زويلة وبرقة كلهم حسنة طاعتهم وقد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه[4]» وبذلك صار ما بين برقة وزويلة سلم للمسلمين[5].

والذي يبدو لي أن أهل برقة التي كان «أكثر أهلها لواتة البربرية[6]» كانوا ساخطين على حكامهم البيزنطيين لعسفهم وظلمهم[7] ورأوا من قدوم العرب إليهم ما يخلصهم من البيزنطيين، كما أن منهم من قَبِلَ الإسلام وآمن به ولن نجد في تاريخ الفتح الإسلامي لافريقية الذي استغرق أكثر من نصف قرن أن برقة قد انتقضت على المسلمين.

---

(١) ولد قبل الهجرة بسنة واحدة أسد الغابة لابن الأثير ج٣ ص٤٢٠، ٤٢١.

(٢) زويلة: مدينة من مدن فزان القديمة وتقع في الجنوب الشرقي من مزرعة بنحو ١٥٠ ك. م. وتبعد عن مدينة طرابلس إلى الجنوب الشرقي بنحو ٧٧٠ ك. م.

(٣) البيان المغرب لابن عذارى ج١ ص٨ وفي النسخة التي حققها ليفي بروفنسال: ووجه فيها (أي مصر) عقبة بن نافع الفهري إلى لوبية وإفريقية فافتتحها. ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح أهلها على الجزية.

(٤) فتوح البلدان، للبلاذري ص٢٦٤، ٢٦٥.

(٥) تاريخ الأمم والملوك، للطبرى ج٤ ص٣٥٠.

(٦) كتاب العبر لابن خلدون ج٢ ص١٢٨.

(٧) فتح العرب للمغرب، د. حسين مؤنس ص١٦، ٢١ المغرب الكبير د. السيد عبد العزيز سالم ج٢ ص١٢٨، ١٤٣.

ورغم عسف البيزنطيين بهم فيبدوا أن سلطتهم لم تكن قوية على أهل البلاد من ذلك الوقت فنراهم قد أرخوا عنانهم لعقبة ثم قدم عمرو فعقد بنفسه الصلح مع أهل برقة حيث «صالح أهلها على الجزية وهي ثلاثة عشر ألف دينار يبيعون فيها من أبنائهم[١] من أحبوا بيعه[٢]».

وقد بدأ فتح برقة من سنة إحدى وعشرين هجرية كما يذكر ذلك اليعقوبي[٣] والطبري[٤] وتم خلال عام اثنين وفقاً لان عبد الحكم[٥] وابن الأثير[٦].

فتح طرابلس[٧]:

بعد أن انتهى عمرو بن العاص من عقد الصلح مع أهل برقة واصل السير غرباً متجهاً نحو طرابلس ولكنه التزم الحذر فسار بجيشه بالطريق الساحلي ليستولي على ما في طريقه مما يقع بين برقة وطرابلس ثم أرسل عقبة بن نافع إلى فزان[٨] ففتحها ونجح في مهمته وأصبحت المنطقة الداخلية قامونة العواقب لا خوف على الجيش الاسلامي أن يؤتى من قِبَلها بعد أن استوثق من طاعة أهلها وحيادهم[٩] وقد استولى عمرو وهو متجه

---

(١) والظاهر أن هذه كانت عادتهم من أداء ما عليهم من خرائب بالنسبة للروم فوافق عليها عمرو بالنسبة للجزية.

(٢) فتوح البلدان، للبلاذري ص٢٦٤.

(٣) تاريخ اليعقوبي، ص١٧٩.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج٤ ص٣٥٠.

(٥) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص١٧١.

(٦) تاريخ الكامل ربن الأثير ج٣ ص١٢.

(٧) طرابلس: مدينة قديمة فينيقية على أرجح الأقوال أو قرطاجنية أنظر تاريخ العربي من ليبيا للطاهر الزاوي ص٤٥.

(٨) فزان: واحة من واحات طرابلس الجنوبية ومساحتها أكثر من ٣٠٠ ك. م٢ المرجع السابق ص٨٩.

(٩) فتح العرب للمغرب د. حسين مؤنس ص٦٠.

نحو طرابلس على سُرت[١]، ولبدة[٢]، ثم انتهى إلى طرابلس وكانت حصينة مسورة فضرب الحصار عليها لامتناعها عليه. وبعد شهر من حصارها تمكن الجيش الإسلامي من فتحها بعد أن اقتحم بعض المسلمين المدينة من ناحية[٣] البحر[٤].

وعندما تمَّ فتح طرابلس أرسل عمرو حملة لتستولي على صبراتة[٥] وكان أهلها قد تحصنوا وأخذوا حذرهم عندما سمعوا بوصول جيش المسلمين إلى طرابلس ولكن عندما امتنعت طرابلس عليه وضرب عليها الحصار شعر أهل صبراتة بالأمان ولم يعبأوا بجيش المسلمين، ويبدو أن عمراً كان يتحسس أخبارهم أثناء الحصار فعندما انتهى من فتح طرابلس عاجلهم بجنده وانتصر المسلمون عليهم وغنموا ما في بلدهم[٦]. كما بعث عمرو أثناء حصاره لطرابلس قائده يسر بن أرطاة إلى ودّان[٧] فافتتحها وبذلك يكون عمرو قد أمن جنوب طرابلس كما أمن جنوب برقة حين استولى على فزان وزويلة.

---

(١) سرت: (بضم السين) مدينة قديمة تقع على الخليج المسمى بها الآن وهي تبعد عن البحر إلى الجنوب بنحو ٤ ك. م. وتقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو ٥٥٤ ك. م. وكانت محاطة بسور من التراب وهي غير سرت المعروفة الآن، سرت الحالية أنشئت في العهد التركي سنة ١٣٠٣هـ.

(٢) لبدة: مدينة عظيمة أسسها الفينيقيون أوائل القرن العاشر قبل الميلاد... وتقع شرق طرابلس بنحو تسعين ك. م. وقد أكل البحر جزءاً كبيراً منها وبنيت مدينة الخمس في أوائل القرن التاسع عشر على جزء منها وبأنقاضها.

(٣) لم تكن مسورة من ناحية البحر.

(٤) فتوح البلدان، للبلاذري ص٢٦٦، كتاب العبر لابن خلدون ج٢ ص١٢٨.

(٥) صبراتة: مدينة قديمة ذات آثار تقع غربي مدينة طرابلس بنحو ٦٧ ك. م. على ساحل البحر.

(٦) تاريخ الكامل لابن الأثير ج٣ ص٥٢.

(٧) ودّان: مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبية من الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو ٧٦٩كم وإلى جنوب سرت بنحو ٢٨٠كم.

ولقد بعث عمرو بعد أن أتمّ فتح طرابلس إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستأذنه في فتح إفريقية ومواصلة الفتح غرباً وكأنه كان يرى أن فتح برقة وطرابلس محتم لفتح مصر أو أن ذلك كان أمراً واجباً لأمن مصر لا سيما بعد أن ثبت استعانة حاكم الإسكندرية بحاكم برقة كما روى الواقدي.

ولذلك كتب عمرو إلى أمير المؤمنين يخبره بفتح طرابلس ثم يطلب منه إبداء الرأي في مواصلة الفتح إلى إفريقية يقول ابن عبد الحكم: «أراد عمرو أن يوجه إلى المغرب فكتب إلى عمرو بن الخطاب: إن الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام فإن رأي أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل[1].. ولكن حديث ابن عذارى عن مضمون هذا الكتاب يضيف الكثير عن حالة إفريقية وحكامها وعدد سكانها ثم وسائل دفاعهم ومقدار استعدادهم وما يتصفون به من القوة وركوب الخيل فليس أمام عمرو «إلّا بلاد إفريقية وملوكها وأهلها من عدد عظيم وأكثر ركوبهم الخيل[2]».

وفي مضمون هذا الخطاب عن وصف استعداد إفريقية ما يوحي بأن مواصلة الفتح يقتضي مَدَداً جديداً لا سيما وأن أمامهم كثير من الملوك الحاكمين لأعدادٍ بشرية كثيرة ذات خبرة ودربة على ركوب الخيل. ولكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قد طالت المسافة بينه وبين خط القتال غرباً في فترة لا تتجاوز عشر سنوات استولت جيوش المسلمين خلالها على الشام ففلسطين فمصر ثم برقة فطرابلس في هذا الزمن الوجيز، فلذلك لم يأذن عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص في مواصلة الفتح إلى إفريقية وكتب إليه ينهاه عنها ويقول: «ما هي بإفريقية ولكنها مفرقة غادرة مغدور

---

(١) فتوح مصر، والمغرب، لابن عبد الحكم ص١٧٢.

(٢) البيان المغرب لابن عذارى ج١ ص٨.

بها. وذلك أن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئاً فكانوا يغدرون به كثيراً وكان ملك الأندلس صالحهم ثم غدر بهم[1] ويضيف ابن عبد الحكم بأن عمر ذكر في كتابه أنه سوف لا يسمح لأحد بغزوها مدة حياته «لا يغزوها أحد ما بقيت[2]».

ولذلك أمر عمرو العسكر بالرحيل قافلاً إلى مصر[3] ويضيف ابن عبد الحكم سبباً آخر حمل عمراً على سرعة العودة إلى مصر وهذا السبب يقوي وجهة نظر عمر بن الخطاب بعدم السرعة في مواصلة الفتح ومحاولة تلبيت الفتح في البلاد المفتوحة أولاً «فقد أتى إلى عمرو بن العاص كتاب المقوقس يذكر له فيه أن الروم يريدون نكث العهد ونقض ما كان بينهم وبينه، وكان عمرو قد عاهد المقوقس على ألا يكتمه أمراً يحدث فانصرف عمرو راجعاً مبادرة لما أتاه[4]» وإن كان ابن عبد الحكم يضيف إلى ذلك أن عمراً كان يواصل استطلاع الأماكن المجاورة لطرابلس وصبراتة فيقول: «وقد كان عمرو يبعث الجريدة من الخيل فيصيبون الغنائم ثم يرجعون[5]».

ونستخلص من ذلك أن الأسباب التي حملت عمراً على الرجوع هي:

١ - عدم رغبة عمر بن الخطاب في التوسع في الفتح غرباً بعد أن طالت المسافة وبَعُدَ خط القتال.

٢ - ما عرف عن أهل إفريقية من الغدر.

٣ - نقض الروم عهد عمرو بن العاص من مصر.

من أجل هذه العوامل مجتمعة عاد عمرو إلى مصر بعد أن ترك عقبة

---

(١) فتوح البلدان، للبلاذري ص٢٢٦ ولا شك أن ذلك يجعل لأهلها طبيعة خاصة في الحكم ويقتضي ذلك يقظة في سياستهم.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص١٧٢.

(٣) ابن عذارى البيان المغرب ج١ ص٨.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص١٧٣.

(٥) المرجع السابق ص١٧٣.

ابن نافع ببرقة يدعو للإسلام حيث تمكن من كسب كثير من سكان البلاد من «قبائل لوانة، ونفوسة، ونفزاوة ، وهراوة، وزواغة فدخلوا في الإسلام وأصبحت برقة قاعدة لجيش المسلمين في غرب مصر[1]».

فتح إفريقية[2]:

غزوة عبد الله بن سعد بن أبي السرح:

عندما انصرف عمرو بن العاص عن طرابلس لم يهمل شأن هذه البلاد ولم يصرف النظر عن الاتصال بأحوالها وإنما كان يبعث الجريدة من الخيل فيصيبون الغنائم ثم يرجعون[3].

ولم يكن المقصد من هذه الطلائع هو الغنائم كما يعلل ذلك بعض المؤرخين وإنما هو إشعار البلاد بقوة المسلمين ثم استطلاع الأخبار ومعرفة الأسرار حتى يتأتى أخذ الاستعداد الكامل لمواصلة الفتح.

ولكن بعد أن توفي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين وبايع المسلمون أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وَفَدَ عليه عمرو بن العاص وسأله عزل عبد الله بن سعد بن أبي السرح العامري عن صعيد مصر وكان عمر قد ولّاه الصعيد قبل موته فامتنع عثمان عن ذلك وعقد لعبد الله بن سعد بن أبي السرح على مصر كلها[4]. وقد تابع عبد الله بن أبي السرح خطة عمرو السابقة فكان يبعث المسلمين في جرائد الخيل كما كانوا يفعلون في أيام عمرو فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون[5].

---

(١) المغرب الكبير: د. السيد عبد العزيز سالم، ج٢ ص١٥٢.

(٢) نعني بإفريقية هنا ما يسمى الآن تونس.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص١٧٢.

(٤) الكندي: القضاة والولاة، ص١٠.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص١٨٣.

ويزيد ابن خلدون أمر هذه الطلائع والجرائد توضيحاً فيذكر أنها كانت بأمر من عثمان وأن بعضها قد بلغ تعداده عشرة آلاف جندي ولكنها لم تقدر على التوغل في إفريقية لكثرة أهلها وأن نتائج ما حصلت عليه هذه الطلائع من معلومات توضح أن هذا الأمر من حاجة إلى استعداد أكثر.

وهنا نلاحظ أن سياسة أمير المؤمنين عثمان بن عفان تختلف عن سياسة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فيما يتعلق بسير الفتوح نحو الغرب لأن عمر رضي الله عنه كان يرى الوقوف عند الحد الذي وصلت إليه الفتوح في عهده وهو إفريقية حتى تستقر الأمور.

وقد وجد عثمان بن عفان أن ظروف الدولة تمكنه من مواصلة الفتوح فأمر باستئنافها من جديد وأصدر أوامره إلى عبد الله بن أبي السرح بزيادة نشاط الطلائع على إفريقية فأرسل عبد الله بن أبي السرح عقبة بن نافع بن عبد القيس على جند وعبد الله بن الحارث على جند آخر وسرحهما فخرجوا إلى إفريقية في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها[1]، ويتفق ابن خلدون مع ابن الأثير في إرسال الجرائد إلى أطراف إفريقية بأمر عثمان وإن كان يضيف إلى ذلك أن بعض هذه الجرائد كان على رأسها عبد الله بن أبي السرح وكان المسير له عمرو بأمر عثمان يقول «وفي سنة خمس وعشرين سير عمرو بن العاص عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى أطراف إفريقية غازياً بأمر عثمان وكان عبد الله من جند مصر فلما سار إليها أمن عمرو بالجنود فغنم هو وجنده فلما عاد عبد الله كتب إلى عثمان يستأذنه في غزو إفريقية[2].

وبعد أن تأكد عبد الله بن أبي السرح من قدرته على فتح إفريقية بعد

---

(١) ابن خلدون: كتاب العبر ج٢ ص١١٩.

(٢) الكامل، لابن الأثير ج٣ ص٤٢ ومن هنا نفهم أن عبد الله بن أبي السرح خرج في هذه الطلائع عندما كان أمر مصر إلى عمرو بن العاص وعندما عاد من هذه الطلائع وكان أمر مصر قد أسند إليه كتب إلى عثمان يحبذ له فتح إفريقية بعد أن كان يغزوا أطرافها.

توفر وجود الجند الكافي لغزوها «كتب إلى عثمان وأخبره بقربهم من حرز المسلمين ويستأذنه في غزوها فندب عثمان الناس لغزوها بعد المشورة منه في ذلك[1]» ويصور صاحب رياض النفوس عزم عثمان على الغزو باستخارة عثمان لله وصلاته في المسجد بليل ثم استشارته للمسلمين فقد قال المسْوَر «خرجت من منزلي بليل طويل أريد المسجد فإذا عثمان رضي الله تعالى عنه في مصلى النبي صلى الله عليه وسلم فصليت خلفه ثم جلس فدعا ليلاً طويلاً حتى أذّن المؤذّن ثم قام منصرفاً إلى بيته فقمت من وجهه فسلمت عليه فقال: يا ابن مخرمة واتكاء علي يدي إني استخرت الله تعالى في ليلتي هذه في بعث الجيوش إلى إفريقية وقد كتب إليّ عبد الله بن سعد يخبر بخبره مع المشركين وغلبهم وقرب حوزهم من المسلمين فقلت: خار الله لأمير المؤمنين. قال: فما رأيك يا ابن مخرمة؟ قلت أغزهم قال: أجمع اليوم الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأستشيرهم فما أجمعوا عليه فعلته أو ما أجمع عليه أكثرهم فعلته... أين عليا وطلحة والزبير والعباس وذكر رجالاً فخلا بكل واحدمنهم في المسجد... فلم يختلف أحد ممن شاوره[2] غير الأعور سعيد بن زبير.

وقد رغّب الخليفة المسلمين للاشتراك في هذه الغزوة وأعان المسلمين من ماله الخاص «بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس وفتح بيوت السلاح التي كانت للمسلمين فلما توافى الناس وجدوا السير وذلك من المحرم من هذه السنة[3] سنة سبع وعشرين.

ويصوّر أبو العرب تميم سرعة استجابة كثير من الصحابة لنداء عثمان بأن عبد الله بن سعد بن أبي السرح خرج إلى إفريقية من جيش أكثرهم

---

(١) ابن عبد الحكم :فتوح مصر والمغرب، ص١٨٣ .

(٢) المالكي :رياض النفوس، ص٩ .

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ص٩ .

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني[1].

وعندما اجتمع المجاهدون في المدينة أمّر عليهم عثمان بن عفان الحارث بن الحكم إلى أن يقدموا على عبد الله بن سعد مصر فيكون إليه الأمر[2].

سار الجيش من المدينة متوجهاً إلى مصر حيث انضم جند مصر وتولى عبد الله ابن أبي السرح قيادته وفي طريقه إلى إفريقية انضم إليهم «عقبة بن نافع فيحسن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا إلى طرابلس فنهبوا[3] الروم عندها[4].

وكانت طرابلس قد نقضت العهد بعد فتح عمرو بن العاص لها وتحصنت فلم يقف عندها ابن أبي السرح لأنه يريد منازلة صاحب إفريقية والقضاء عليه وكان صاحب إفريقية آنذاك بطريق يسميه العرب جرجير ويصفون سعة ملكه بأنه يملك ما بين طرابلس إلى طنجة[5] ولكن المؤرخين اختلفوا من تبعية جرجير آنذاك لهرقل امبراطور الروم فابن عبد الحكم يذكر أنه خلع هرقل وضرب الدنانير على وجهه[6]، وابن خلدون وابن الأثير يذكران أنه كان تحت ولاية هرقل ويحمل إليه الخراج كل سنة[7] ويزيد

---

(١) أبو العرب تميم: طبقات علماء افريقية وتونس، ص٧.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص١٨٣.

(٣) لا شك أن ابن خلدون يقصد بذلك أنهم استولوا عليها وإذا علمنا أنهم كانوا قد طردوا الوالي الذي خلّفه عليهم عمرو بن العاص أثناء فتحه لطرابلس كما أنهم تحصنوا دون ابن أبي السرح فالمسلمون في حل من حربهم والاستيلاء على متاعهم ومصادرته.

(٤) ابن خلدون كتاب العبر ج٢ ص١٢٩.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص١٨٣، ابن خلدون العبر ج٢ ص١٢٩.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص١٨٣.

(٧) ابن الأثير: تاريخ الكامل ج٣ ص٤٣، وابن خلدون العبر ج٢ ص١٢٩.

صاحب الخلاصة النقية أنه: «كان يستند إلى صاحب القسطنطينية ويستظهر في حروبه بجيرانه من البربر[1]».

والذي تميل إليه النفس أن جرجير لم يخرج على هرقل وإنما كان إنشغال الدولة الرومية بشأن المسلمين على الحدود الشرقية داعياً لانشغالهم عن شؤون إفريقية بدليل أنه عندما قتل جرجير وعقد أهل إفريقية الصلح مع العرب على جزية كبيرة أرسل هرقل بطريقاً آخر لكي يحصل منهم على مال يعادل ما تعهدوا بدفعه للعرب[2].

ولا شك أن جرجير كان يستعد للقاء فاصل مع العرب منذ وصلت جيوش المسلمين إلى برقة وطرابلس ويرى تتابع الطلائع العربية للإغارة على إفريقية ولذلك عندما قدم المسلمون بقيادة عبد الله بن أبي السرح إلى إفريقية سنة سبع وعشرين كان جرجير على أهبة الاستعداد حيث قد كوّن جيشاً من مائة وعشرين ألفاً من الفرنج والروم والبربر وملوكهم.

يقول ابن خلدون متفقاً مع ابن الأثير ويتابعهما صاحب الخلاصة النقية وصاحب تاريخ الجزائر في القديم والحديث: «فجمع لهم جرجير ملك الفرنجة يومئذ بإفريقية من كان بأمصارها من الفرنج والروم ومَنْ بضواحيها من جموع البربر وملوكهم وكان ملكه ما بين طرابلس وطنجة[3] وكانت دار ملكه سبيطلة فلقوا المسلمين في زهاء مائة وعشرين ألفاً والمسلمون يومئذ في عشرين ألفاً[4]».

التقى الجمعان في مكان يسمى عقوبة[5] على يوم وليلة من

---

(١) الباجي: الخلاصة النقية، ص٣.

(٢) ابن الأثير: تاريخ الكامل ج٣ ص٤٤، وابن خلدون العبر ج٢ ص١٣٠.

(٣) طنجة: مرفأ على مضيق جبل طارق وشمال المغرب.

(٤) ابن خلدون: العبر ج٣ ص١٠٧، ابن الأثير الكامل ج٣ ص٤٣، الخلاصة النقية للباجي ص٣، تاريخ الجزائر من القديم والحديث لمبارك الميلي ص٢٢.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان. ص٢٦٧.

سبيطلة(١) وكانت دار ملكهم وكما هي عادة المسلمين عرضوا على جرجير ومن معه الإسلام أو دفع الجذية فأبى قبول أحدهما فنشب القتال ودارت المعركة واستمرت أياماً كان ختامها من صالح المسلمين فقتل جرجير وهرب جيشه بعد أن مزق شر ممزق وتبعتهم خيول المسلمين إلى حصن سبيطلة فمنعوهم من دخوله وركبهم المسلمون يميناً وشمالاً في السهل والوعر فقتلوا أنجادهم وفرسانهم وأكثروا فيهم الأسارى(٢).

وبث عبد الله السرايا فبلغت قصور قفصة(٣) فسبوا كثيراً وغنموا غنائم كبيرة ويعلق ابن عذارى على نتيجة هذه الموقعة وبين أثرها في الروم بإفريقية وكيف أن جموعهم الكثيرة لم تغن عنهم من دون سيوف المسلمين شيئاً مما دعاهم آخر الأسر إلى طلب الصلح وقبول دفع جزية سنوية للمسلمين فقد «أذلت هذه الوقعة الروم بإفريقية ورعبوا رعباً شديداً فلجأوا إلى الحصون والمعاقل ثم طلبوا من عبد الله ابن سعد أن يقبض منهم ثلاثمائة(٤) قنطار بين الذهب في السنة جزية على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم فقبل ذلك منهم وقبض المال وكان من شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم وما أصابوه بعد الصلح ردوه عليهم(٥)».

أما ابن خلدون فيعقب على المعركة بأن المسلمين قد جدّوا كذلك في أثر البربر الذين تصدوا لهم بعد قتل جرجير وحصل بينهم زحوف نتج عنها

---

(١) سبيطله: مدينة تبعد عن القيروان سبعين ميلاً وعن قفصة مرحلة واحدة وكانت عاصمة إفريقية القديمة.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص١١.

(٣) قفصة: بلد صغير في طرف إفريقية من ناحية المغرب بينها وبين القيروان ثلاثة أيام أنظر معجم البلدان لياقوت الحموي البغدادي ج٧ ص١٣٨.

(٤) ثلاثمائة قنطار يعادل ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار أنظر البلاذري فتوح البلدان ص٢١٨.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص١٢ والمبلغ الذي ذكره يتفق مع ما ذكره البلاذري في فتوح البلدان ص٢٦٨.

أسـر لبعض ملوكهم الذين أشخصوا إلى الخليفة حيث أعلنـوا اعتناق الإسلام وأن الخليفة عقد لهم على قولهم فقد «حصل في أسرهم يومئذ من ملوكهم وزمان بن صقلاب جد بني حزر وهو يومئذ أمير مقراوة وسائر زنانة ورفعوه إلى عثمان بن عفان فأسلم على يديه ومنّ عليه وأطلقه وعقد له على قومه [1].

هذه النتائج التي توصل إليها عبد الله من الانتصار على جرجير وفتح سبيطلة وقفصة وحصن الأجم[2] تم إذلال الروم والبربر والأهم من ذلك هو قبول بعض ملوك البربر للإسلام ووفوده على الخليفة وعقده له على قومه: تعتبر من أهم النتائج لهذه الغزوة وكسب كبير بالنسبة لـلإسلام والمسلمين. ولكن عبد الله بعد أن يوقع الصلح يعود إلى مصر فلماذا يرجع عبد الله إلى مصر بدون أن يولي عليها حامية من المسلمين؟ أو أن يولي عليهم والياً من المسلمين؟

إن من ينظر إلى نتيجة الحرب بين أبي السرح وجرجير ويرى أن المسلمين قد انتصروا يقول: لماذا لم يستغل عبد الله هذا النصر ويوطد أقدام المسلمين في هذه البلاد؟

ولكن من يمعن النظر في هذا الرجوع ينجلي له أن عبد الله قد أدرك أن فتح إفريقية لا يتم بموقعة واحدة ولا بهذا العدد القليل من الجيش لا سيما وهو لا يلتقي بجيش دولة لها كل السلطة على البلاد فإذا ما قضي على الجيش قضي على كل شيء. وإنما يلتقي بجيش الروم من شمال البلاد ثم بقبائل البربر من جنوبها حيث لها تقاليدها وطبائعها وما تتصف به من القوة والدفاع عن حماها، وإن توطيد أقدام المسلمين في هذه البلاد

---

(١) ابن خلدون: كتاب العبر ج٦ ص١٠٧.

(٢) الأجم: العجم الإعجام وكانت مركزاً حربياً طوال العهد البيزنطي ولا تزال آثاره باقية حتى الآن.

يحتاج إلى إمدادات أخرى مع بعد خطوط هذه الامدادات. لذلك اكتفى بالانتصار في الموقعة التي خاضها ثم بفتح بعض الحصون والحصول على الصلح والجزية الكبيرة التي يعبر عنها البلاذري في رواية عبد الله بن الزبير بثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكف عنهم ويخرج بلادهم، وفي رواية ابن كعب أن عبد الله بن سعد بن أبي السرح صالح بطريق إفريقية على ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار. ويزيد المازني أنه رجع إلى مصر ولم يول على إفريقية أحداً ولم يكن لها يومئذ قيروان ولا مصر جامع[1].

ولا شك أنه كان من الممكن أن يترك عبد الله ولو حامية استطلاعية تحمل إليه أخبار البلاد التي تغلب عليها وإن كان واضحاً من قول البلاذري أنه قد اكتفى بالمعاهدة ولم يترك حامية استطلاعية ولعله اعتمد على ما بدا له من استعداد بعض قبائل البربر لقبول الإسلام والايمان به.

ولذلك عاد إلى مقر ولايته في مصر بعد أن قضى خمسة عشر شهراً من هذه الغزوة فوصل مصر في سنة ثمان وعشرين هجرية.

غير أنه عاد لغزو إفريقية سنة ثلاث وثلاثين مرة ثانية حين نقض أهلها العهد[2] مما يدل على أن ابن أبي السرح حاول أن يحتفظ بإفريقية تابعة للمسلمين عن طريق المعاهدة منها فلما نقضت العهد غزاها ثانياً.

وإذا اعتمدنا على هذه الرواية الثانية لابن عذارى لتبين لنا أن ابن أبي السرح حاول الاحتفاظ بالانتصار الذي حققه عن طريق المعاهدة. غير أن ما جدّ من حوادث من مركز الخلافة قد حالت بين المسلمين وبين الاحتفاظ بما فتحوا علاوة على مواصلة الفتح حيث قد ذرّ قرن الفتنة التي أحاطت بعثمان رضي الله عنه. وتوقفت الفتوح بسببها، وقد استمر ذلك التوقف خلال فترة الخلاف بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عن الجميع.

---

(١) فتوح البلدان، للبلاذري، ص ٢٦٨.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ج ١ ص ١٤.

غزوة معاوية بن حريج:

استقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيان بعد عام الجماعة وجمع شمل المسلمين وابتدأ المسلمون يستعيدون توجيه نشاطهم ثانياً إلى الخارج وبدأت موجة جديدة للفتوحات من إفريقية حيث أسند الخليفة معاوية بن أبي سفيان في سنة خمس وأربعين إلى معاوية بن حريج السكوني أمر مواصلة الفتوح في إفريقية وزوده بجيش مكون من عشرة آلاف جندي فيه بعض الصحابة والتابعين[1].

ويذكر المؤرخون أن بعض الظروف قد خدمت المسلمين دفعتهم للإسراع باستئناف الفتح وذلك بسبب خلاف نشأ بين الحاكم الجديد الذي ولاه هرقل على إفريقية وبين رعاياه فيها حيث قد بالغ الحاكم الجديد في مطالبة رؤساء إفريقية بأن يقدموا إليه من الأموال مثل ما دفعوا لابن أبي السرح في صلحهم معه مما أدى إلى تذمر أهل إفريقية وكثرة النزاع والخصام بينهم وبين الحاكم الجديد مما دعاه إلى حبسهم[2]. ولذلك تذكر بعض الروايات أن الحاكم الذي أقامه أهل إفريقية بعد جرجير لجأ إلى معاوية بن أبي سفيان واصفاً له أمر إفريقية وطالباً منه إرسال جيش لفتح إفريقية[3].

وهكذا نرى أن أهل إفريقية قد ثاروا وغضبوا من الحاكم الجديد الذي أرسله هرقل كما نلاحظ أن الوالي السابق يذهب إلى دمشق لكي يستنجد بالخليفة معاوية بن أبي سفيان.

ولقد حاول الخليفة أن يستفيد من هذه الفرصة السانحة فسارع بإرسال معاوية بن حريج لاستئناف فتح إفريقية.

وقد سار معاوية بن حريج بالقوة التي أرسلها معه الخليفة حتى دخل

---

(١) أنظر: رياض النفوس، للمالكي ص ٢٧ ابن عذارى البيان المقرب ج١ ص ١٦.

(٢) الأمم والملوك، للطبري ج ٥ ص ٥١.

(٣) الكامل: لابن الأثير ج ٣ ص ٤٤، البيان المقرب لابن عذارى ج ١ ص ١٦.

بها إفريقية فنزل بجيشه على قمونية وهي قيروان إفريقية[1] وغادرها إلى مكان يقال له القرن[2] حيث بعث إلى جلولاء[3] عبد الملك بن مروان في ألف رجل. . . فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها[4].

ولقد وصلت أنباء حملة معاوية بن حريج إلى صاحب القسطنطينية فأرسل جيشاً من البحر مكوناً من ثلاثين ألف مقاتل لرد جيش المسلمين غير أن المسلمين تمكنوا من هزيمتهم قرب قصر الأجم[5] ويقال إن الجيش الرومي قد انسحب من غير أن يقاتل جيش المسلمين الذي أرسله معاوية بن حريج بقيادة عبد الله بن الزبير للتصدي لجيش الروم ثم تمكن ابن الزبير بعد ذلك من فتح سوسة[6] ويفيدنا المالكي «أن معاوية غزا بنزرت وغنم غنائم كثيرة من نواحيها ورجع قافلاً إلى قمونية وبنى بناحية القرن مساكن وسماها (قيروان) وموضع القيروان غير مسكون ولا معمور[7].

ومن هذا نرى أن معاوية بن حريج قد تمكن من فتح جلولا، وسوسة وبنزرت وإن لم يخض معارك فاصلة ولعل ذلك يوضح لنا بعض آثار غزوة عبد الله بن أبي السرح وظهور ميل الافريقيين لوجود المسلمين فيها كما بدأت تظهر فكرة إيجاد مصر إسلامي في إفريقية يكون مستقراً للجيش الإسلامي وقاعدة ارتكاز له ينطلق منها لتحقيق أهدافه بدون أن تكون المسافات الشاسعة قد استنفذت جهده وأضعفت من قوته. وإذا

---

(١) معالم الايمان للدباغ ج ١ ص ٤٣.

(٢) القرن: جبل بإفريقية وهو المعروف بجبل وسلات.

(٣) جلولاء: قريبة من القيروان الحالية على بعد ٢٤ ميلاً منها.

(٤) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص ١٩٣.

(٥) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٤٥، العبر لابن خلدون ج ٢ ص ١٣ الخلاصة النقية للباجي ص ٥٢٤.

(٦) ابن عذارى، البيان المغرب ج ١ ص ١٦ وسوسة ميناء على البحر المتوسط وصار ميناء كبير أيام الأغالبة.

(٧) رياض النفوس، للمالكي ص ١٩.

كانت فكرة إيجاد مدينة ومعسكر ليستقر فيه المسلمون قد ابتدأها معاوية بن حريج إلا أن الذي تولى تنفيذ فكرة هذه المدينة وتأسيسها وإعطائها طابعها الحقيقي إنما هو القائد الذي سيتولى أمر الفتوح من بعد معاوية بن حريج وهو عقبة بن نافع الذي سيسند إليه الخليفة في دمشق أمر إفريقية فاصلاً بين الإمارة في مصر والقيادة في إفريقية[1] حيث استقر ابن حريج والياً على مصر وحدها.

عقبة بن نافع في افريقية:

ومما لا شك فيه أن اختيار عقبة بن نافع لقيادة الفتح في إفريقية كان اختياراً موفقاً لرجل عاش قريباً من افريقية أو فيها منذ توجه جند المسلمين إلى المغرب وعاش كل هذه الفترة مشاركاً في الفتح أو قريباً منه. لقد عاش في برقة وتولى أمرها منذ فتحها المسلمون فكان خير داعية للإسلام وإسناد أمر إفريقية إليه معناه أن يجعل إفريقية أرضاً إسلامية كما صارت برقة من قبل ولذلك ابتدأ عقبة إقامته في إفريقية بتأمين الأماكن الداخلية ثم ابتدأ يؤسس القيروان لتكون القاعدة الإسلامية والمدينة الإسلامية التي يذود عنها المسلمون، والتي تنطلق منها الحملات للقضاء على الروم الذي لا زالوا يقيمون في شمالها ثم لنشر الإسلام بين السكان في الداخل أو على الساحل.

فقد خرج عقبة إلى إفريقية بعد معاوية بن حريج «فأقبل حتى نزل بمغمداش[2] من سرت... فخلف عقبة جيشه هناك واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي وزهير ابن قيس البلوي ثم سار بنفسه وبمن خف معه أربعمائة فارس وأربعمائة. بعير وثمانمائة قربة حتى قدم ودّان فافتتحها... ثم فزّان ففتح قصورها... ثم انصرف راجعاً فسار حتى نزل بموضع زويلة

---

(١) حركة الفتح الاسلامي د. شكري فيصل ص ١٦٢.

(٢) مغمداش: بلد قريب من سرت بليبيا.

اليوم ثم ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر وقد جمت خيولهم وظهرهم فسار متوجهاً إلى المغرب وجانب الطريق الأعظم وأخذ إلى أرض مزاتة فافتتح كل قصر بها... ثم بعث خيلاً إلى غدامس[1] فافتتحت غدامس فلما انصرفت إليه خيله سار إلى قفصة فافتتحها وفتح قصطيلية[2][3].

وقد انضم إلى جيش عقبة المكون من عشرة آلاف جندي ممن أسلم من البربر[4] في تلك البلاد مما يدل على أن أهل البلاد قد اعتنق كثير منهم الإسلام وحسن إسلامه فانضم إلى الكتائب المدافعة عن الإسلام ولكثر ارتداد بعض البربر في مداخل إفريقية عن الإسلام حمل ذلك عقبة على الشدة فوضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم[5].

ولقد كان لهذه الغزوة أثر عميق في الروم والبربر حيث تمكن عقبة

---

(١) غدامس: واحة من واحات طرابلس الصحراوية وتقع في الجنوب الغربي من مدينة طرابلس على بعد ٥٠٠ كم.

(٢) قصطيلية: إحدى بلاد الزاب على حدود الصحراء.

(٣) أنظر: فتوح مصر المغرب لابن عبد الحكم بتصرف ص ١٩٥، ١٩٦.

(٤) البربر: قسم النسابة قبائل البربر إلى مجموعتين كبيرتين هما: البرانس والبتر وقالوا إن الجماعة الأولى من أبناء برنس بن بر، وأن الجماعة الثانية أبناء مادغيس بن بر الذي لقب بالأبتر.

(أ) البرانس: من قبائلهم المشهورة عشر: إزداجة، ومصمودة، أوربة، عجيسة، كتامة، صنهاجة أوريغة ويضاف إليهم لمطة وهكسورة، وجزدلة، وهذه الأصول تنقسم إلى فروع صغيرة فقبيلة هوارة تحد من أوريغة وقبيلة قليلة تنحدر من هوارة وقبيلة غمارة تنحدر من مصمودة.

(ب) البتر: من قبائلهم المشهورة أربعة: أدارسة ونقوسة وضريسة وبنوا لوا الأكبر ومن قبيلة لوا قبيلتا نفزاوة ولواتة ومن قبيلة نفزاوة تنحدر قبيلة ولهاصه ومن ولهاصة تنحدر قبيلة تيرغاش ومن تيرغاش تنحدر قبيلة ورفجومة. أنظر قادة فتح العرب للمغرب لشيت خطاب ج ١ ص ١٦.

(٥) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٣٤.

من الاستيلاء على بعض الحصون والقلاع كما شعر الروم والبربر بقوة المسلمين علاوة على تأسيس القيروان ويعبّر الدباغ عن ذلك بأنه «افتتح كثيراً من حصونها - أي إفريقية - وأثخن في قتل الروم والبربر واختط مدينة القيروان وتجول بها أياماً. ثم قدم أبو المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلد الأنصاري إلى إفريقية سنة خمس وخمسين فعزل عقبة وقيّده وحبسه وخرب ما كان اختطه وبناه بالقيروان[1]»

ورغم أن عقبة لم يقم خلال هذه الفترة التي تولى فيها أمر إفريقية إلا بتطهير الداخل ثم شن بعض الحملات خلال قيامه بتأسيس القيروان إلا أن كارل بروكلمان يعده المؤسس الحقيقي للحكم العربي في إفريقية الشمالية ويبالغ فيذكر أنه وفق للقضاء على الحكم النصراني في شمال إفريقيا جملة فهو يعتبره «المؤسس الحقيقي للحكم العربي في إفريقية الشمالية... ووفق بمعاونة البربر إلى القضاء على الحكم النصراني في شمال إفريقية جملة واحدة ثم عزل بعد أن أنشأ مستعمرة عسكرية في القيروان[2]»

ولا شك أن عقبة أثناء قيامه ببناء مدينة القيروان كان يواصل تحسس أخبار عدوه بإرسال الطلائع والحملات السريعة التي تثبت قوة المسلمين كما تقوم بالدور المهم الذي يملأ شغاف قلب عقبة وأصحابه وهو نشر الإسلام وتبيينه للناس وبذلك.. دخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها[3]»

وبهذا يتبين لنا أن بناء القيروان كان ذا أثر عميق لتقوية جنان الجنود وبعث الاطمئنان إلى النفوس لترضى بالمقام ثم تثبيت بذور الإسلام في إفريقية.

---

(١) الدباغ، معالم الايمان، ج ١ ص ٤٦، ٤٧.
(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان ج ١ ص ١٥٢.
(٣) أسد الغابة، لابن الأثير ج٣ ص ١٨٤.

وبعد أن مكث عقبة في ولايته خمس سنوات قضى معظمها في تأسيس القيروان ونشر الإسلام في النواحي القريبة منها عزل عنها بأبي المهاجر دينار سنة خمس وخمسين هجرية[1].

أبو المهاجر دينار:

عندما أوشك عقبة على الانتهاء من تأسيس القيروان لكي يواصل الفتح فيزيل سلطان الروم من الشمال ثم يستمر في نشر الإسلام بين البربر حسب خطته فوجيء بعزله بأبي المهاجر دينار سنة خمس وخمسين هجرية، والبلاذري يشير إلى ولاية أبي المهاجر دون أي ذكر لأعماله فقد «عزل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حريج وولى مصر والمغرب مسلمة بن مخلد الأنصاري فولى المغرب أبا المهاجر دينار مولاه فلما ولى يزيد بن معاوية رد عقبة بن نافع على عمله[2]» وهكذا لا يسند إليه البلاذري أي عمل قام به سوى الإشارة إلى ولايته وعزله. أما ابن عبد الحكم فيسند إليه أنه أقام بإفريقية واتخذها منزلاً لا يفارقها إلى الفسطاط وإن كان قد كره أن ينزل في قيروان عقبة «ومضى حتى خلفه بميلين فابتنى ونزل. وكان الناس قبل أبي المهاجر يغزون إفريقية ثم يقفلون منها إلى الفسطاط. وأول من أقام بها حين غزاها أبو المهاجر مولى الأنصار أقام بها الشتاء والصيف واتخذها منزلاً[3]».

ولكننا نعلم أن عقبة أقام في إفريقية أربع أو خمس سنوات حين كان يبني القيروان فكيف يرى ابن عبد الحكم أن أبا المهاجر هو أول من أقام بإفريقية فترة الشتاء والصيف؟

ولعله يقصد بذلك الفترة التي قضاها أبو المهاجر على المغرب الأوسط

---

(١) تاريخ الكامل، لابن الأثير، ج ٣ ص ٢٣٤.

(٢) البلاذري ،فتوح البلدان ص ٢٧٠.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص ١٩٧.

التي انتهى فيها إلى العيون المعروفة بأبي المهاجر نحو تلمسان[1] ولبث فيها هنالك نحو عامين أو ثلاثة[2] وفي خروجه هذا «افتتح أبو المهاجر المذكور ميلة[3] (مدينة صغيرة بينها وبين بجاية[4] ثلاثة أيام) وكانت إقامته في هذه الغزوة نحو سنتين[5]»

ويحدثنا المالكي عن الجند الذي صحب أبا المهاجر بأنهم من أهل الشام ومصر وأنه حارب بهم قرطاجنة ثم يشير إشارة مهمة إلى أنه قد وجه حسين بن عبد الله الصنهاجي بجيش إلى الجزيرة[6] فافتتحها ومن هنا يظهر لنا بعض القيادات من البربر من صنهاجة قد ظهر منذ زمن مبكر. ذلك أن أبا المهاجر قد «نزل بفحص تونس ويقال إنه نزل بسبخة وبنى بها ومنها حارب أهل قرطاجنة ووجه حسين بن عبد الله الصنهاجي بجيش إلى الجزيرة فافتتحها وكتب إلى أبي المهاجر بذلك فرحل إليه واجتمع معه وقسم الفيء هنالك بين جميع الجيش ثم انصرف فنزل بدكرور مدينة البربر بالقرب من موضع القيروان ووجه بالخمس إلى مصر[7]» ويقال: «إن أبا المهاجر عقد صلحاً مع أهل قرطاجنة على أن يخلو جزيرة شريك[8].

ومن هنا نرى أن أبا المهاجر قد قاتل الروم في قرطاجنة واستطاع أن يستخلص جزيرة شريك منهم وبعقد صلحاً معهم ليتوجه بجيوشه إلى البربر متوغلاً إلى المغرب الأوسط حيث ينازل البربر في عقر دارهم ويتغلب

---

(١) تلمسان: مدينة بالمغرب اسمها القديم أقادير على بعد مرحلة من وهران انظر معجم البلدان لياقوت ٢/٤١٩.

(٢) المالكي: رياض النفوس ص ٢١.

(٣) ميلة: مدينة صغيرة بينها وبين بجاية ثلاثة أيام.

(٤) بجاية. مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب معجم البلدان لياقوت ٢/٦٢.

(٥) النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ج ١ ص ١٥٧.

(٦) الجزيرة: جزيرة شريك.

(٧) المالكي: رياض النفوس ص ٢٠.

(٨) قادة فتح المغرب، لشيت خطاب، ج ١ ص ١٣٩.

عليهم ثم هو يتألفهم حتى يعتنقوا الإسلام ويكون ذلك نصراً لنشر الإسلام في أماكن لم ينشر فيها من قبل ويشير إلى ذلك ابن عذارى ضمن حديثه عن عقبة وموقفه عن كسيلة بن لزم الأوربي «بأن أبا المهاجر في ولايته لافريقية كان ينهض إلى المغرب فنزل عيونا عند تلمسان تعرف الآن بعيون أبي المهاجرين فزحف منها إلى كسيلة وهو في عدة من قبائل البرانس فظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام فأسلم وأحسن إليه أبو المهاجر واستبقاه[1]».

ويزيد ابن خلدون الأمر وضوحاً بأن كسيلة كان على دين النصرانية وأنه كان رئيساً لأوربة التي كانت تتزعم البربر آنذاك وقد اجتمع إليه البرانس فزحف إليهم أبو المهاجر وانتصر عليهم «فظفر بكسيلة فأسلم واستبقاه[2]» وبذلك استطاع أبو المهاجر خلال فترة ولايته أن يتعمق من الداخل بين البربر إلى أن وصل إلى تلمسان في المغرب الأوسط وإذا كان لم يستطع أن يتغلب على قرطاجنة فقد استولى على جزيرة شريك ووصل من ناحية الساحل إلى ميلة ثم عاد إلى المكان الذي بناه ليجد أن الخليفة يزيد بن معاوية قد أعاد عقبة لكي يتولى أمر إفريقية مرة أخرى.

عقبة بن نافع في إفريقية ثانياً:

لقد قضى عقبة وقتاً طويلاً في برقة وعندما أسند إليه أمر إفريقية سنة خمسين هجرية اختط القيروان لتكون قاعدة للمسلمين لكي يواصل منها تبليغ الدعوة إلى الشمال الإفريقي كله ولكنه بعد أن أتم بناء القيروان عزل إمارة إفريقية ولذلك ذهب إلى دمشق لكي يوضح للخليفة خطته ويبين ما يرمي إليه من نشر للإسلام وفتح للبلاد كما يوضح ما قد تم في فترة ولايته السابقة ويورد ابن عبد الحكم أن عقبة قدم «على معاوية بن أبي

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ج١، ص ٢٨، ٢٩.

(٢) ابن خلدون: كتاب العبر، ج ٦ ص ١٠٧.

سفيان فقال له: فتحت البلاد وبنيت المنازل ومسجد الجماعة ودانت لي ثم أرسلت عبد الأنصار فأساء عزلي فاعتذر إليه معاوية[1]».

بينما يذكر المالكي: أنه قدم على معاوية بن أبي سفيان فوجده قد توفي إلى رحمة الله وتولى بعده يزيد فدخل عليه فأخبره بما صنع أبو المهاجر وما دخل عليه منه وقال له: لما افتتحتم إفريقية بنيت مسجد الجماعة ثم بعثتم عبد الأنصار فأهانني وأساء عزلي فغضب يزيد وقال «أدركوها قبل أن يخربها» ورد عقبة وأزال مسلمة عنها وأقره بمصر وذلك سنة اثنتين وستين وقدم عقبة إلى القيروان بعشرة آلاف فارس[2] ورأى المالكي هذا يتفق مع رواية ثانية أوردها ابن عبد الحكم من أنه قدم على يزيد لا على معاوية.

وقد ابتدأ عقبة عمله من حيث تركه فبدأ بتعمير القيروان وإعادتها إلى سابق عهدها وجعلها موطناً ومقراً للمسلمين «فجدد بناء القيروان وشيدها ونقل الناس إليها فعمرت وعظم شأنها»[3].

وبادر عقبة عقب ذلك بحملته الكبرى على المغرب وهي حملة طويلة وسريعة وصل فيها إلى المحيط وقاتل فيها الروم والبربر وانتصر على كل من لاقاه وفضهم حيث استفتحَ حصون الفرنجة مثل باغاية[4] ولميس ولقيه ملوك

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص ١٩٧.

(٢) المالكي، رياض النفوس ص ٢٢ ويذكر الدباغ في معالم الايمان أن جيش عقبة كان عشرة آلاف أيضاً. ولكن الدكتور حسين مؤنس يقول نقلاً عن الدباغ أنهم كانوا خمسة عشرة ألفاً فتح العرب للمغرب ص١٨١ ويتابعه د. السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ص ٢٢٢ وهو ما لم أجده عن الدباغ.

(٣) رياض النفوس: للمالكي، ص ٢٢.

(٤) باغاية: مدينة كبيرة في أقصى إفريقية بين مجانة وقسنطينة وهي حصن بربري قديم وكان سكانها من البربر والروم.

البربر بالزاب[1] وتاهرت[2] ففضهم جمعاً بعد جمع، ودخل المغرب الأقصى وأطاعته عمارة «ثم أجاز إلى بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة أهل اللثام وهم يومئذ على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية فأثخن فيهم وانتهى إلى تاودانت وهزم جموع البربر وقاتل مسوفة من وراء السوس وساسهم وقفل راجعاً[3]».

وبعض المؤرخين يذكر أنه ترك بالقيروان جنداً واستخلف عليهم زهير بن قيس البلوي كما أنه عندما هزم الروم عند باغاية كره المقام عليها فسار إلى الزاب وقتل النصارى في مدينتها أربة[4] وقد استعان الروم بالبربر في تاهرت ولكنه تغلب عليهم وغنم المسلمون المال والسلاح كما نزل بْطريقُ طنجة على حكمه فاستفهم منه عن حالة الأندلس وهنا نرى أن عقبة كان يتطلع إلى فتح الأندلس ولكن البطريق عظم الأمر عليه فسار إلى السوس الأدنى [5] ثم السوس الأقصى [6] فقتل من البربر قتلاً ذريعاً وسار حتى بلغ ماليان[7] ورأى البحر المحيط فقال «يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد

---

(١) بلاد الزاب: بلاد واسعة من مدنها بكرة وقسنطينة وقفصة وهي كورة عظيمة ونهر جرار بأرض المغرب على البر الأعظم عليه بلاد واسعة وقرى متواطنة بين تلمسان وسلجماسة والنهر متسلط عليها وفي تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٤٢ أن بلاد الزاب يطلق عليها اليوم ولاية قسطنينة.

(٢) تاهرت: اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لأحدهما: تاهرت القديمة وللأخرى: تاهرت المحدثة.

(٣) ابن خلدون: كتاب العبر، ج٦، ص ١٠٧.

(٤) أربة: مدينة بالغرب من أعمال الزاب وهي أكبر مدينة بالزاب.

(٥) السوس الأدنى: كورة كبيرة بالمغرب مدينتها طنجة والسوس مدينة بالمغرب كانت الروم تسميها قمونية وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى مسيرة شهرين.

(٦) السوس الأقصى: أقصى بلاد البربر على المحيط والسوس الأقصى اسم مدينة إلا أنها كورة عظيمة ذات مدن وقرى واسعة وخصب يحف بها طوائف من البربر.

(٧) ماليان: بلد في أقصى بلاد المغرب ليس وراءه غير البحر المتوسط معجم البلدان ٣٦٧/٧.

مجاهداً في سبيلك ثم عاد فنفر الروم والبربر عن طريقه خوفاً منه[1]».

ويذكر ابن عذاري أن صاحب سبتة سأل عقبة المسالمة وأن ينزل على حكمه فقبل منه واجتمع به[2]، حيث صالحه وأقره على بلاده[3].

ويعلق الرفيق القيرواني على موقعة من المواقع التي خاضها عقبة في حملته على المغرب وهي موقعة أدنة[4] بقوله: «فانهزم القوم وقتل فيها أكبر فرسان البربر فذهب عزهم من الزاب وذلوا آخر الدهر[5]» كما كان لهذه الموقعة أثر كبير بالنسبة للروم حيث ذهب عز الروم من الزاب وذلوا وتحصنوا[6].

ومن هنا يتبين لنا أن عقبة قد نجح في التغلب على كل الجموع التي نصرت له إلى أن قفل راجعاً وَلوْ لَمْ ينته إلى الغاية التي سينتهي إليها من الاستشهاد لكان لتلك الغزوة أثر كبير في عدم انتقاض الشمال الافريقي كله بعد استشهاده. ولكن الدكتور حسين مؤنس يعلق على نتيجة هذه الغزوة بقوله «ثم انقلب بعد ذلك عائداً أدراجه ليعود إلى القيروان دون أن يترك بأي ناحية مرّ بها أثراً يذكر[7]» ثم يقول: «بل لم يكن لِنشر الإسلام غاية واضحة في ذهن عقبة إذا لو كان يطلب هذا فليس تلك هي السبيل التي تؤدي إلى إدراك هذه الغاية إنما تدرك بالوقوف بكل قوم وبلدوعرض الإسلام وتخيير الناس بينه وبين الحرب والجزية فإن أبوا كانت الحرب

---

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير، ج ٤ ص ٥٣.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ج ١ ص ٢٦.

(٣) تاريخ إفريقية والمغرب، للرفيق القيرواني ص ٤٣.

(٤) أدنة: بلدة كثيرة الأنهار والعيون العذبة تبعد عن المسيلة بأربعة مراحل الرفيق تاريخ إفريقية ص ٤٢.

(٥) المؤنس لابن أبي دينار ص ٣٠.

(٦) المالكي رياض النفوس ص ٢٣.

(٧) فتح العرب للمغرب د. حسين مؤنس ص ١٩٥.

هكذا كان الفاتحون من الشام ومصر يفعلون، بل هكذا فعل عبد الله بن سعد مع جرجير. أما عقبة فكان ينقض على المدائن محارباً مقاتلاً ويلبث على ذلك فترة ثم ينصرف دون أن ينتهي مع أهل البلد إلى شيء معلوم بل لو كان يرجو نشر الإسلام لخلف فيما مرَّ به من البلاد نفراً يعلّم أهله الإسلام[1]».

ولا شك أن هذا فيه تجنٍّ كبير على عقبة رضي الله عنه فلقد كان عقبة يعرض الإسلام قبل الحرب شأن كل قادة المسلمين كما أقام المساجد في كثير من الأماكن التي ما زالت تنطق بأثر عقبة وتعطينا الدليل الباقي شاهداً على ما كان لهذه الغزوة من تأثير ما زال مستمراً إلى الوقت الحاضر حيث إن أهل البلاد ما زالوا يعظمون تلك المساجد التي أنشأها عقبة أثناء غزوته التي وصل فيها إلى ماسة بمكان من السوس الأقصى فبنى فيها مسجداً[2].

كما يذكر ابن عذارى أنه «سار حتى نزل إيجلي بالسوس وبنى فيه مسجداً وأنه لم يصح عنده أن عقبة رضي الله عنه حضر بيان شيء من المساجد بالمغرب إلا مسجد القيروان ومسجدا بدرعة ومسجدا بالسوس الأقصى. وأما غير ذلك من المساجد المسمان باسمه فإن الناس والله أعلم بنوها بموضع نزوله[3]».

وهكذا نرى أن عقبة حتى في أثناء قيامه بالغزوة كان يبني المساجد وهذا يعطي دليلاً على أنه كان هناك من يدخل في الإسلام من أهل هذه النواحي وأنه كان يهتم بالدعوة إلى الله ونشر الإسلام قبل أي شيء آخر. وإن المساجد الكثيرة التي تحمل اسمه والتي بناها الناس بعد ذلك في

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

(٢) المالكي: رياض النفوس، ص ٢٦.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ج ١ ص ٢٧.

المواضع التي كان ينزل فيها يعطي الدليل الواضح على الأثر الذي تركه عقبة في المغرب ثم يزيد ابن عذارى موضحاً أنه ترك في المغرب صاحبه شاكراً وبينّ أنه كان يعرض الإسلام ويدعو إليه قبل أن يشهر السيف بقول: «ثم رجع عقبة قافلاً إلى المغرب الأوسط وسلك على إيفيران يطوف ثم إلى تارنا ثم إلى موضع شاكر وترك به صاحبه شاكراً فسمي باسمه. ثم رحل منه إلى بلاد دكالة فوجد فيها قوماً فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا فقاتلهم فقتلوا جملة من أصحابه فسمي ذلك الموضع مقبرة الشهداء إلى الآن. ثم رجع من دكالة إلى بلاد هكسورة إلى موضع يقال له إطار فوجد فيه أقواماً فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا فتقاتل معهم حتى فروا أمامه فلم يقاتله بعد ذلك أحد من أهل المغرب[1]» كما يعبر ابن عذارى في مكان آخر بأنه ترك في في المغرب الأقصى أكثر من معلم غير شاكر كما يذكر أن كثيراً من المصامدة أسلموا على يديه يقول: «وقد كان عقبة بن نافع ترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام ومنهم شاكر صاحب الرباط وغيره ولم يدخل المغرب الأقصى أحد من ولاة خلفاء بني أمية بالمشرق إلا عقبة بن نافع النهري ولم يعرف المصامدة غيره وقيل إن أكثرهم أسلموا طوعاً على يديه[2]».

ولذلك يعود الدكتور حسين مؤنس بعد إنكاره لآثار عقبة في تلك الغزوة إلى الاعتراف ببعض آثارها فيقول «لهذا لم يكن موت عقبة وأصحابه بقاض على كل أثر للمسلمين فيما فتحوه من البلاد ولكنه كان قاضياً على بعض الأثر السياسي لأن عمل عقبة لم يكن سياسياً وإنما كان دينياً[3]». وقفل عقبة بعد وصوله إلى البحر المحيط قاصداً القيروان «فلما انتهى إلى ثغر إفريقية أذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا ويقدموها فوجاً فوجاً وعند

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٢٧، ٢٨.

(٢) البيان المغرب، لابن عذارى، ج ١ ص ٤٢.

(٣) فتح العرب للمغرب، د. حسن مؤنس ص ٢٠١، ٢٠٢.

طبنة[1] أذن لمن بقي معه بالانصراف إلى القيروان ومال في خيل يسير يريد تهودة[2][3]» وكان عقبة بن نافع قد أساء إلى كسيلة بن لزم الزعيم البربري ولم يحفل به عندما تولى عقبة إمارة إفريقية للمرة الثانية وتبالغ المصادر في هذه الإساءة التي وجهها إلى كسيلة غير أن الشيء الذي لا شك فيه أن كثيراً من البربر والروم كانوا يتحينون الفرصة التي يتمكنون فيها من القضاء على عقبة بعد أن فلّ جموعهم وشتت شملهم وانتصر عليهم في كل المواقع التي خاضها ضدهم فما زالوا يتربصون به حتى واتتهم الفرصة صار بعيداً عن جيشه فتمكنوا من القضاء عليه.

فقد «عرض له كسيلة بن لزم في جمع كثير من الروم والبربر وقد كان بلغه افتراق الناس عن عقبة فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل عقبة ومن معه[4]».

وهكذا كان عدم الحذر من عقبة حتى بعد الانتصار هو السبب الذي مكن الروم والبربر للتجمع واغتنام الفرصة للقضاء على عقبة وحمل الجيش الإسلامي على مغادرة إفريقية وترك القيروان حيث حاول كسيلة اغتنام كل أبعاد الفرصة التي واتته فجمع أهل المغرب وزحف إلى القيروان «فانقلبت إفريقية ناراً وعظم البلاء على المسلمين فخرجوا هاربين لعظم ما اجتمع من البربر والروم مع كسيلة[5]» ويعلل الرفيق القيرواني خروج جيوش المسلمين من القيروان وعدم تصديهم لكسيلة والدفاع عن القيروان بعدم القدرة على مواجهته مع جموعه الغفيرة واعتقادهم بأن الهزيمة ستحل بهم حيث..

---

(١) طبنة: بلدة في طرف إفريقية مما يلي المغرب على ضفة الزاب معجم البلدان لياقوت (٢٨/٦).

(٢) تهودة: مدينة في جنوب جبال أوراس وفي الجنوب الشرقي لمدينة طبنة وتبعد عنها ٣٧/٥ ميلاً.

(٣) المالكي: رياض النفوس، ص ٢٥.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص ١٩٨.

(٥) رياض النفوس، للمالكي، ص ٢٨.

لم يكن لهم بقتاله طاقة لعظم ما اجتمع معه من البربر والروم وأسلموا القيروان وبقي بها أصحاب الذراري والأثقال فأرسلوا - أي أصحاب الذراري والأثقال - إلى كسيلة يسألونه الأمان فأمنهم وأجابهم وأقام كسيلة حتى نزل القيروان وأقام أميراً على إفريقية وقد بقي من بقي من المسلمين تحت يده[1]».

وبذلك تحقق لكسيلة بعد أن تمكن من اغتيال عقبة الإمارة على كل إفريقية حيث أمّن كسيلة من بقي بالقيروان من المسلمين وأقام بالقيروان أميراً على سائر إفريقية والمغرب وعلى من بقي من المسلمين إلى أن ولى الخلافة عبد الملك بن مروان. ولقد حاول خليفة عقبة على القيروان زهير بن قيس البلوي أن يقاتل كسيلة بمن بقي من الجيش مع الحامية التي تركها عقبة عند مغادرته القيروان وأن يدافع عن القيروان غير أن أثر قتل عقبة وما اجتمع حول كسيلة، من الأعداد الكثيرة من الروم والبربر حمل حنش الصنعاني[2] أن يجاهر بتفضيل الانسحاب من القيروان على لقاء كسيلة بجموعه وقال: «لا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم[3]» واضطر زهير خليفة عقبة إلى مغادرة القيروان تحت هذه الظروف القهرية الخارجة عن إرادته بالنسبة للعدو للحامية التي معه حيث خالفه حنش[4] الصنعاني وعاد إلى مصر فتبعه أكثر الناس فاضطر زهير إلى العودة معهم فصار إلى برقة وأقام بها[5].

---

(١) تاريخ إفريقية والمغرب، للرفيق القيرواني، ص ٤٦.

(٢) حنش الصنعاني: هو حنش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة تابعي كبير ثقة روى عن رويفع بن ثابت، وأبي هريرة غزا المغرب وسكن افريقية وهو أول من ولي عشور افريقية في الإسلام، غزا الأندلس مع موسى بن نصير توفي سنة ١٠٠ هـ.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ج ١ ص ٣١.

(٤) يذكر اللواء محمود شيت خطاب في قادة فتح العرب للمغرب أن الصحيح هو حنش لا جيش ج ١ ص ١٥٢ وهو حنش في البيان المغرب، لابن عذارى ج ١ ص ٣١.

(٥) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٥٤.

ولا شك أن قتل عقبة في تهودة كان مأساة حقيقية كما يقول الدكتور شكري فيصل[1] وإن كان لم يفن الجيش كله في تهودة وإنما استشهد عقبة والعدد القليل الذي كان معه ثلاثمائة مقاتل. ولقد قتل النعمان بن مقرن في موقعة نهاوند في المشرق في عهد ابن الخطاب ولكن تحقق النصر في المعركة ولم يضعف استشهاد القائد من قوة الجيش.

ولذلك فإنني ألقي بعض المسؤولية في خروج البلاد من طنجة إلى القيروان على بقية قوات الجيش التي آثرت الانسحاب ولم تمل إلى رأي زهير في مقاومة كسيلة، ولو حدث وأنصتت القوات المقاتلة إلى حديث زهير وهو يناديهم «يا معشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة وقد منَّ الله عليهم بالشهادة فاسلكوا سبيلهم ويفتح الله لكم دون ذلك[2]» لكان لهم النصر على هذه القوات التي انتصروا عليها من قبل وسينتصرون عليها بعد ذلك ولم يفضلوا الإنسحاب على المواجهة.

زهير بن قيس البلوي يسترد القيروان:

لا شك أن مدينة القيروان قد أسست لتكون مدينة إسلامية على المسلمين أن يقطنوها ويدافعوا عنها ويضطلعوا بحمايتها، ولقد كان تغلب كسيلة واضطراره الجيش الإسلامي إلى الرحيل عنها مخلفاً «أصحاب العيال وكل مثقل من التجار وأهل الذمة[3]» دافعاً للمسلمين لاستردادها ثم بعد ذلك متابعة الفتح، وهكذا نرى مركز القيروان ومكانتها تطالب المسلمين جميعاً بأن يدفعوا عنها فيتحدث بشأنها أكابر المسلمين إلى الخليفة مطالبين باستردادها فيستشير الخليفة وزراءه فيجتمع الرأي على تعيين زهير بن قيس البلوي ليتولى استخلاص القيروان واسترجاع هيبة المسلمين والأخذ بثأر عقبة بن نافع «ففي سنة ٦٥ من الهجرة ولِّي عبد الملك بن مروان فلما اشتد

---

(١) حركة الفتح الإسلامي ص ١٧٠.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ١ ص ٣١.

(٣) الدباغ: معالم الإيمان، ج ١ ص ٥٥.

سلطانه واجتمع أكابر المسلمين عليه سألوه تخليص إفريقية ومن بها من المسلمين من يد كسيلة اللعين فقال : لا يصلح للطلب بدم عقبة من الروم والبربر إلا من هو مثله ديناً وعقلاً.. فاستشار وزراءه فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوي وقالوا: هذا صاحب عقبة وأعلم الناس بسيرته وتدبيره وأولاهم بطلب دمه فوجه عبد الملك إلى زهير وهو ببرقة فأمره بالخروج على أعنة الخيل إلى إفريقية ليستنفذ من بالقيروان فكتب إليه زهير يعرّفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم فأمره عبد الملك بن مروان بالخيل والرجال والأموال وحشد إليه وجوه العرب وبعثهم إليه فوفدت الجيوش على زهير وتسرع الناس معه إلى إفريقية[1]».

ولقد كان لكل من الشام ومصر أثر واضح في هذا البعث الذي أسند إليه استرداد القيروان حيث قامت مصر بتقديم الأموال، والشام بتقديم الرجال فقد «أرسل عبد الملك إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الناس من الشام وأفرغ عليهم أموال مصر فسارع الناس إلى الجهاد[2]».

أما زهير فقد قضى هذه الفترة - منذ غادر القيروان بعد قتل عقبة إلى أن وجهه الخليفة عبد الملك بن مروان لاستنقاذ القيروان - مرابطاً في برقة يزود عنها من يريد بها سوءاً وخاض كثيراً من المواقع هو ومن بقي معه من الجيش الأفريقي[3] فكانت له بها وقائع كثيرة[4].

ولقد استمر حكم كسيلة للقيروان خمس سنين اتسع فيها سلطانه وأعطى الأمان للعرب الذين تخلفوا عن اللحاق بالجيش من أهل الذراري والأثقال وعظم خلالها سلطانه على البربر[5].

---

(١) البيان المغرب، لابن عذارى ج ١ ص ٣١.
(٢) رياض النفوس، للمالكي ص ٢٩، ٣٠.
(٣) تاريخ افريقية والمغرب، للرفيق القيرواني ص ٤٧.
(٤) رياض النفوس، للمالكي ص ٣٠.
(٥) كتاب العبر لابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧.

وكان إسناد عبد الملك ولاية إفريقية إلى زهير لكي يستنقذها من يد كسيلة في سنة ٦٩ هـ ووجه إليه جيشاً كبيراً قدره صاحب تاريخ المغرب الكبير بعشرة آلاف جندي(١). وعندما أحس كسيلة بقدوم جيش المسلمين أحضر أشراف أصحابه وعرض عليهم اختيار ممس (٢) مكاناً للمعركة بحيث يكون آمناً من غدر المسلمين المقيمين في القيروان ثم إذا هزم العرب تتبعهم وقطع أثرهم من إفريقية كلها وإذا هزمه العرب لجأ إلى الجبال ونجا من قبضة المسلمين فأجابه أصحابه إلى رأيه فغادر القيروان متجهاً إلى ممس ليتمكن من الفرار من وجه العرب عند الهزيمة(٣).

وكان استعداد كسيلة لخوض المعركة استعداداً تاماً فقد تمكن من حشد عدد عظيم من البربر والروم تحت لوائه بلغ أضعاف جند المسلمين كما استشار رؤساء الجند وأشرافهم وكل ذلك أعطى لجنوده روحاً معنوية جعلتهم لا يهابون المسلمين(٤).

وكما استعد كسيلة للمعركة وحدد مكانها في ممس فإن زهير حدد زمانها فلم يلتق بكسيلة فور وصوله إلى القيروان بعد أن قطع جيشه مئات الأميال بل نزل قريباً من القيروان ولم يدخلها ومكث بها ليستريح جيشه ويأخذ خطه من الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة التي يأخذ بها الثأر لعقبة ويحمي القيروان ويستنقذها من كسيلة وبعد ثلاثة أيام من الراحة زحف في اليوم الرابع فوقف على كسيلة وعسكره آخر النهار. فلم ينازله ولكن الجيش بقي على مصافه طوال الليل فلما أصبح صلى مغلساً ثم تزاحف الجيشان

---

(١) تاريخ المغرب الكبير، لمحمد علي ديبوز ج ٢ ص ٦٢.

(٢) ممس: مدينة بيزنطية قديمة وتقع في جنوبي القيروان، المالكي: رياض النفوس هامش ص ٢٨.

(٣) تاريخ الكامل، لابن الأثير ج ٤ ص ٥٥.

(٤) الرفيق القيرواني، تاريخ افريقية ص ٤٩، ٥٠، البيان المغرب، لابن عذاري، ج ١ ص ٣٢.

والتحموا في قتال عنيف ونزل الصبر وكثر القتل في الفريقين حتى يئس الناس من الحياة فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل بممس ولم يجاوزها[1] وكتب الله النصر للمسلمين فتتبعوا فلول الجيش المنهزم ولم يمكّنوهم من اللحاق بالجبال التي كانوا يريدون الاحتماء بها وقد قتل في هذه الوقعة كثير من ملوك البربر وأشرافهم وفرسانهم كما قتل من الروم أعداد كثيرة مما أدخل الرعب والفزع في قلوب الروم والبربر ثم انصرف زهير إلى القيروان فأوطنها[2].

ولقد كان لموقعة ممس في إفريقية أثر كبير في إعادة هيبة المسلمين إلى ما كانت عليه قبل مقتل عقبة كما أعادت للمسلمين ما اتسموا به من عدم الخوف من عدوهم مهما كان في كثر كاثرة.. وكان لها من الأثر الكبير في نفوس البربر الذين كانوا يقاومون المسلمين مثل الذي كان لمعركة تهودة في نفوس المسلمين من أثر قبل، فتاً في العضد، وإثارة للرعب[3] وتقوية للروح المعنوية بين المسلمين.

وهكذا استطاع زهير أن يخلص القيروان وأن يسترد للمسلمين هيبتهم في إفريقية ولكنه بعد أن يستقر له الأمر ويطمئن إلى أن المسلمين قد أصبحوا في أمان من أعدائهم يترك بالقيروان عسكراً كثيراً من أصحابه ويرحل في جمع آخر قاصداً المشرق غير مصغٍ إلى طلب رؤساء أصحابه بالمقام في إفريقية.

وعند وصوله إلى برقة يلتقي بالروم المغيرين عليها حيث يلقى ربه شهيداً في سبيل إنقاذ أسرى المسلمين في برقة.

فقد استغل الروم خروج زهير من برقة قاصداً إفريقية لقتال كسيلة

---

(١) الرفيق، تاريخ افريقية ص ٥٠، ٥١.

(٢) المالكي، رياض النفوس ص ٣٠، ابن عذاري: البيان المغرب ج ١ ص ٣٢.

(٣) حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، د. شكري فيصل ص ١٧٢.

وأعدوا حملة بحرية كبيرة للإغارة على برقة خرجت إليها من صقلية وتمكنوا من سبي كثير من المسلمين وقتلوا ونهبوا ووافق ذلك عودة زهير من القيروان وشاهد مع رجال طليعته ما فعلته تلك الحملة ضد المسلمين فخاض المعركة ضد المغيرين استنقاذاً لسبي المسلمين الذين استغاثوا به عند رؤ يته غير ملق بالاً إلى تفوق الجيش المغير على من معه وباشر القتال واشتد الأمر وعظم الخطب فتكاثر الروم عليه فقتلوا زهيراً ومن معه ولم ينج منهم أحد وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية[1].

لقد اقتصّ زهير من البربر لمقتل عقبة ولكنه يعود ليستشهد في برقة بقوة مغيرة من الروم مما سيوجه نظر حسان بن النعمان الذي سيتولى أمر إفريقية بعده إلى محاولة القضاء على النفوذ الرومي في شمال إفريقية حتى يقضي على كل أمل للقسطنطينية في الشمال الأفريقي كله.

ولكن لماذا عاد زهير من القيروان إلى برقة أو المشرق؟

يشير ابن عذارى وابن الأثير إلى أسباب العودة بأن زهير رأى بإفريقية ملكاً عظيمًا فأبى أن يقيم بها وقال: «إني ما قدمت إلا للجهاد وأخاف أن تميل بي الدنيا فأهلك[2]» ويتفق معهما المالكي والدباغ بعبارة أخرى قريبة من ذلك «إنما قدمت للجهاد ولم أقدم لحب الدنيا[3]».

ويعلل ابن خلدون عودة زهير بقوله «ثم ترهب[4] زهير بعدها وقفل إلى المشرق فاستشهد ببرقة[5]» أما الرفيق القيرواني فيذكر ما هو قريب من

---

(١) أنظر: المالكي: رياض النفوس ص ٣٠، ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ٥٥ ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٣٣.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٣٢، الكامل، لابن الأثير ج ٤ ص ٥٥.

(٣) رياض النفوس، للمالكي ص ٣٠، معالم الايمان، للدباغ ج١ ص ٥٩.

(٤) لعله يقصد زهده في الإمارة.

(٥) العبر لابن خلدون ج ٦ ص ١٠٨.

ذلك من رفض زهير لملك الدنيا ورغد عيشها «إني قدمت إلى الجهاد وأخاف أن تميل بي الدنيا فأهلك ولست أرضى بملكها ورغد عيشها[1]».

هذا ما يعلل به المؤرخون القدامى عودة زهير. ولم يطمئن إلى ذلك الدكتور حسين مؤنس ويقول عنه: «تعليل ضعيف لأن الزاهد الورع الذي يخاف على نفسه فتنة الدنيا هو الذي يقيم على الثغور ويرابط على دار الحرب.. ثم يقول يبدو أن زهيراً اعتبر مهمته انتهت بعد قتل كسيلة وتخليص من بإفريقية من المسلمين.. ويبدو كذلك أن الرجل كان مسنّاً حين همَّ بحملته تلك وأنه لم يقم بها إلا طلباً لثأر صاحبه فلما فرغ منه عجَّل بالعودة[2]».

أما صاحب قادة فتح العرب للمغرب فيرى «إن السبب الحقيقي هو وصول معلومات أكيدة إليه عن تحركات جيوش الروم باتجاه برقة، لذلك سارع إلى العودة حتى لا يقطع الروم خطوط مواصلاته أولاً، وحتى يحرمهم انتهاك حرمة المدن الإسلامية ثانياً خاصة وأنه يعرف أن منطقة برقة كانت حينذاك منطقة مكشوفة تقريباً»[3].

ويوجز صاحب حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول رأيه بقوله: «وعاد زهير أدراجه إلى برقة مكتفياً بما حقق من نصر[4]» ويقول صاحب المغرب الكبير «لكن لسبب ما لا يمكننا تعليله قرر زهير القفول إلى برقة»[5].

وهكذا نرى أن المحدثين من المؤرخين، لا يميلون إلى الأخذ برأي القدامى من المؤرخين. ويبدو لي أن زهيراً، ربما كان لا يزال متأثراً بما

---

(١) تاريخ افريقية والمغرب، للرفيق القيرواني ص ٥٢.
(٢) فتح العرب للمغرب د. حسين مؤنس ص٢٢٧، ٢٢٨.
(٣) قادة فتح العرب للمغرب، اللواء شيت خطاب ج١ ص١٦٠.
(٤) حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول د. شكري فيصل ص١٧٢.
(٥) المغرب الكبير، د. سيد عبد العزيز سالم ج٢ ص٢٣٧.

حدث عقب مقتل عقبة من اختلاف الناس عليه وإنه رأى ذلك طعناً في قيادته فأثبت جدارته للقيادة وانتصر لمقتل عقبة وبعدد أقل من جند عدوه، واسترجع القيروان وأمَّنها وأقام عليها من يقوم بأمرها ثم بدا له أنه قد أتم ما تطمئن إليه نفسه فترك ولاية إفريقية وعاد. يضاف إلى ذلك أنه كان يزهد في الإمارة، ويرى أن إمارته كانت لمهمة قد قام بها، وربما يشير إلى ذلك ما عبر عنه الدباغ بعد اختيار عبد الملك له بقوله: «فلما اتصل ذلك بزهير سرّه ذلك وسارع إلى الجهاد وكتب إلى عبد الملك يخبره بقلة من معه من الرجال وقلة الأموال»[1] ومع ذلك فإني أقول مع الدكتور حسين مؤنس «ذلك قصارى ما يمكن افتراضه لتعليل تلك العودة وعلى الرغم من ذلك يبدو أن الأمر لا زال غامضاً يحتاج إلى كثير من الإيضاح[2]».

حسَّان بن النعمان الغساني [3] يثبت أقدام المسلمين في إفريقية ويقضي على مقاومة الروم والبربر:

لقد استطاع زهير أن ينتصر على كسيلة، وبذلك تحقق الإنتصار على بربر الشمال أو البرانس وبقي بربر الجنوب البتر الذين يسكنون الأوراس، كما بقي الروم الذين يسكنون معقلهم الحصين قرطاجنة وما يليها من مدن الساحل.

لقد كان استشهاد زهير محدداً لمن يأتي بعده للأخذ بثأره. العدوّ الذي يجب أن يُقْضى عليه حتى يصير المسلمون في مأمن من مثل هذه الهجمات، ويتفرغوا للجهة التي يضطلعون بها من نشر الإسلام وتعاليمه في تلك البقاع. ثم حمله إلى غيرها من البقاع إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) معالم الايمان للدباغ ج١ ص٥٧.

(٢) فتح العرب للمغرب، د. حسين مؤنس ص٢٢٨.

(٣) أنظر قادة فتح العرب للمغرب شيت خطاب ج١ ص١٧٢.

لقد استاء الخليفة عبد الملك بن مروان لاستشهاد زهير «وكانت مصيبته مثل مصيبة عقبة»[1].

وكان لقتله أثره البعيد في إفريقية فقد «اضطرمت إفريقية ناراً وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم في رؤسائهم[2]» مما دعا أشراف المسلمين وأصحاب الرأي، بأن يطلبوا من الخليفة أن يوجه إلى إفريقية من يستطيع أن يقوم بأمرها حتى تثبت أقدام المسلمين فيها فكان اختيار الخليفة لحسان بن النعمان ليتولى أمر إفريقية، وزكّاه بأنه لا يصلح لأفريقية أحد سواه، ويعبر المالكي عن ذلك بأن أشراف المسلمين سألوا عبد الملك أن ينظر إلى أهل إفريقية ويؤمنهم من عدوهم ويبعث الجيوش إليهم فقال عبد الملك؛ «ما أعلم أكفأ بأفريقية من حسان بن النعمان الغساني[3]».

وقد اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي توجه فيها حسان إلى إفريقية اختلافاً كثيراً، فهو يتردد بين «سنة تسع وستين كما يقول الرباع والمالكي[4]، وسنة ثلاث وسبعين كما يقول ابن عبد الحكم[5]، وأربع وسبعين كما يقول ابن الأثير[6]، وست وسبعين وسبع وسبعين وثمان وسبعين. كما يقول ابن أبي دينار[7]. وتسع وسبعين كما يقول الباجي[8]» ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى أن الأمر صدر بتعيين حسان ثم أُقر بالبقاء في مصر لما قد يجد من أمر آخر بالنسبة للدولة. يضاف إلى ذلك أن حسان عندما توجه بحملته الأولى فقاتل الروم في قرطاجنة ثم قاتل الكاهنة فانهزم

---

(١) البيان المغرب، لابن عذارى ج١ ص٣١ المؤنس، لابن أبي دينار ص٣٢.
(٢) العبر لابن خلدون ج٦ ص١٠٨.
(٣) رياض النفوس، للممالكي ص٣١، تاريخ إفريقية والمغرب، للرفيق القيرواني ص٥٤٢٥٣.
(٤) معالم الايمان ج١ ص٦٠، رياض النفوس ص٣١.
(٥) فتوح مصر المغرب ص٢٠٠.
(٦) الكامل ج٤ ص٥٥.
(٧) المؤنس ص٧٣.
(٨) الخلاصة النقية ص١٠.

إلى قصور حسان ببرقة ومكث إلى أن وصلته الأمداد مرة أخرى، ليقود حملته الثانية التي قضى بها على الكاهنة، ثم طهر قرطاجنة ثانياً: كل ذلك قد جعل المؤرخين يظنون أنه سار إلى إفريقية منذ اختياره وجعلهم يخلطون بين حملته الأولى والثانية يقول ابن عذارى: «قدم حسان بن النعمان إفريقية، اختاره لها عبد الملك بن مروان وقدمه على عسكر فيه أربعون ألفاً: أقامه أولاً في مصر بالعسكر عدّة لما يحدث. ثم كتب إليه يأمره بالنهوض إلى إفريقية ويقول له: «إني أطلقت يدك في أموال مصر فاعط من معك ومن ورد عليك واعط الناس واخرج إلى بلاد إفريقية على بركة الله وعونه[1]».

وهكذا نرى ثانياً أن أموال مصر توجه لأجل إتمام الفتح في إفريقية، ويكون إعداد الجيش صادراً من مصر ثم ينضم إلى الجيش من أقام من العرب في برقة ومن أسلم من البربر في برقة أيضاً، بحيث نرى في الجيش قيادات من بين هؤلاء البربر الذين شرح الله صدرهم للإسلام، وتحد استنفاد حسان بخبرة تلك القوات فوجهها في المقدمة حيث مضى «في جيش كبير حتى نزل طرابلس واجتمع إليه بها، من كان خرج من إفريقية وطرابلس فوجه على مقدمته محمد بن بكير وهلال بن ثروان اللواتي»[2] وسار الجيش إلى أن وصل إلى القيروان فسأل حسان أهلها عن أعظم الملوك بإفريقية قدراً فقالوا: «صاحب قرطاجنة دار ملك إفريقية»[3] ولم يكن أحد من القواد السابقين قد تمكن من التغلب عليها فسار حسان إليها وخرجت

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب ج١ ص٣٤ ويتفق في أن عدد الجيش أربعون ألفاً كل من صاحب المؤنس ص٣٣ وصاحب الخلاصة النقية ص١٠ من يقول عن ابن الأثير في الكامل لم يدخل إفريقية جيش مثله ج٤ ص١٧٩ والمالكي في الرياض ص١٣١ والدباغ في معالم الايمان ج١ ص٦ يذكر أن عدد الجيش ستة آلاف وأن ذلك سنة تسع وستين.

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص٢٠٠.

(٣) ابن عذارى البيان المغرب ج١ ص٣٤ ويزيد صاحب الخلاصة قوله: هي المدينة العظمى قريعة رومة وضرتها وإحدى عجائب الدنيا ص١٠.

إليه قواتها مع رئيسهم فقاتلهم حسان حتى هزمهم وقتل معظمهم ثم حاصرها حتى افتتحها و«كانت دار الملك بأفريقية»[١] ويوضح ابن الأثير كيفية الإستيلاء عليها ويبين ما حدث للمدينة وسكانها، وأنهم عندما أدركوا تصميم حسان على الاستيلاء عليها وعدم نجاتهم منه قرروا الهرب منها. ثم هدم حسان بعض أجزائها فقد قاتلهم «وحصرهم وقتل منهم كثيراً، فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب فركبوا في مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية، وبعضهم إلى الأندلس ودخلها حسان بالسيف فسلب ونهب وقتلهم قتلاً ذريعاً وأرسل الجيوش فيما حولها فأسرعوا إليه خوفاً فأمرهم فهربوا من قرطاجنة ما قدروا عليه»[١] «وقطع القناة عنها»[٢].

ولقد حاول الروم أن ينتقموا من المسلمين لاستيلائهم على قرطاجنة، فجمعوا عسكراً عظيماً بموضع يسمى صطفورة[٤] وحاولوا الإستعانة بالبربر ليتمكنوا من الإنتصار على حسان، ولكن الجيش الإسلامي استطاع بعد قتال عنيف قدم فيه كثيراً من الشهداء أن يتغلب عليهم، وأن يتتبع آثارهم، فينحاز الروم إلى باجة[٥] والبربر إلى بونة[٦] فقد «اجتمع عليه - أي حسان - الروم وغذوا عليه عسكراً عظيماً لا يعلمه إلّا الله تعالى وأمدّهم البربر وذلك في بلد تسمى صطفورة، فزحف إليهم فقاتلهم قتالاً عظيماً وأصيب من أصحابه رجال كثيرون رضي الله تعالى عنّا وعنهم، ثم إن الله تبارك وتعالى ضرب في وجوه الذين كفروا من الروم والبربر، فانهزموا بعد بلاء عظيم فقتلهم حسان قتلاً عظيماً، واستأصلهم وحمل بأعنة

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ج١ ص٣٤.
(٢) الكامل لابن الأثير ج٤ ص١٨٠.
(٣) المالكي :رياض النفوس ص٣٢.
(٤) صطفورة: بلدة من نواحي إفريقية «معجم البلدان» ج٥ ص٣٥٦.
(٥) باجة: بلدة بإفريقية تعرف (بباجة القمح) لكثرة محصولاتها من القمح «معجم البلدان» ج٢/٢٥.
(٦) بونة: مدينة حصينة بإفريقية تقع على البحر.

الخيل عليهم فما نزل في بلادهم موضعاً إلا وطئه بخيله، ولجأ الروم خائفين هاربين إلى مدينة باجة فتحصنوا بها وهرب البربر إلى إقليم بونة.. ثم انصرف حسان إلى مدينة القيروان فأقام بها حتى برئت جراح أصحابه»[1].

بهذا انتهى حسان من القضاء على عَقَبَةٍ كأداة كانت تقف في وجه من سبقه، وهم الروم في الشمال من إفريقية حيث لم يسبق أن تغلب عليهم أحد من المسلمين قبله، وتمكن من فتح قرطاجنة وتطهيرها من سلطان الروم عليها، وبقي عليه أن يتغلب على داخل البلاد على الأوراس. ولذلك بعد أن اطمأن إلى أخذ الجيش لقسط من الراحة وبرء جراح جنوده. ولّى وجهه نحو داخل البلاد لكي يقضي على أية مقاومة تعترض سبيله أو تقف دون تبليغ دعوة الله. ويعبر ابن عذارى عن ذلك بأنه «سأل أهلها - أي القيروان - عمن بقي من أعظم ملوك إفريقية ليسير إليه فيبيده أو يسلم»[2] ومن هنا نرى أنه لم يكن القصد من الحرب هو التغلب وإنما الحرب عند الوقوف في وجه تبليغ كلمة الله فإن قبلت فلهم ما لنا وعليهم ما علينا وإلاّ فامتشاق الحسام. فكانت الإجابة بإخباره عن الكاهنة التي صارت إليها رئاسة البربر بعد قتل كسيلة، وانضمام قبائل بني يقرن وغيرهم إليها. «فلما انقضى جميع البربر وقتل كسيلة رجعوا إلى هذه الكاهنة بمعتصمها من جبل أوراس»[3] وقد احتمى إليها بنو يقرن ومن كان بإفريقية من قبائل زنانة وسائر البتر[4] فإذا تمكن حسان من التغلب عليها فقد دان له المغرب كله وسقطت فيه آخر قاعدة ضخمة للمقاومة، ولذلك توجه إليها حسان بجيوشه والتقى معها على نهر نيني[5]، ولكنه لقي هزيمة منكرة أدت إلى

---

(١) رياض النفوس، للمالكي ص٣٢، ابن عذارى، البيان المغرب ج١ ص٣٥.

(٢) البيان المغرب، لابن عذارى ج١ ص٣٥.

(٣) أوراس: جبل بإفريقية فيه عدة بلاد وقبائل من البربر يقع في الجزائر.

(٤) العبر لابن خلدون ج٧ ص٩.

(٥) نيني: نهر مشهور بإفريقية «معجم البلدان» ٨/٣٦٩.

ضياع كل إفريقية بعد قتال عنيف وشاق كأنه الفناء، وفقد عدداً كبيراً من الشهداء وقد تتبعته الكاهنة بعد الهزيمة، حتى خرج من قابس ويعبر المالكي عن اللقاء بين حسان وبين الكاهنة في تلك الموقعة بأنهم «اقتتلوا قتالاً شديداً فعظم البلاء، وظن المسلمون أنه الفناء وانهزم حسان بعد بلاء عظيم وقتل من العرب خلق كثير فسمي ذلك اليوم يوم البلاء فأتبعته الكاهنة بمن معها حتى خرج من حد قابس[1] فأسلم إفريقية ومضى على وجهه وأسرت من أصحابه ثمانية رجال وقتل ثمانين رجلاً منهم خالد بن يزيد العبسي وكان رجلاً مذكوراً»[2].

وهكذا يتخلى الجيش الإسلامي عن إفريقية إثر هذه الهزيمة وإن كان المسلمون ما زالوا في عاصمتهم لم تتعرض لهم الكاهنة. ولكن الروم حاولوا استرداد عاصمتهم في إفريقية قرطاجنة، بعد أن أرغموا تحت ضغط الجيش الإسلامي على الفرار منها وكان استردادهم لها من المسلمين متسماً بالقسوة والعنف، فأعدوا أسطولاً كبيراً بقيادة البطريق يوحنا، «وظهر الأسطول البيزنطي في مياه قرطاجنة في سنة ٩٦٧م ٧٨هـ وتمكن من الإستيلاء على المدينة في يسر وطرد المسلمين الذين كانوا فيها وقسا في معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة حتى إنه كان ليقتل الكفار بيده كما يقول تيوفانس ونقفورا»[3].

وكتب حسان يخبر الخليفة بهذه الهزيمة وما ترتب عليها ويقول: «إن أمم المغرب ليس لها غاية ولا يقف أحد منها على نهاية كلما بادت أمة خلفتها أمم وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم» فعاد له جواب أمير المؤمنين بأمره أن يقيم حيثما وافاه الجواب، فورد عليه من عمل برقة فأقام

(١) قابس: مدينة بين طرابلس وسفاقس على ساحل البحر.
(٢) رياض النفوس للمالكي ص ٣٢، ٣٣.
(٣) فتح العرب للمغرب وحسين مؤنس ص٢٥٤ عن دبيل.













ثبت المصادر ومراجع البحث

١ - ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ العلامة أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين.
-تاريخ الكامل الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٠١هـ.
-أسد الغابة في معرفة الصحابة نشر مطابع الجمعية التعاونية.

(٢) - الأصطخري توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري -أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفاسي.
-المسالك والممالك -تحقيق دكتور محمد جابر عبد العال الناشر دار القلم سنة ١٩٦١م.

(٣) - الباجي: أبو عبد الله محمد الباجي المسعودي.
-الخلاصة النقية في أمراء إفريقية -مطبعة الدولة التونسية بتونس سنة ١٢٨٣هـ.

(٤) - البلاذري توفي ٢٧٩هـ أحمد بن يحيى بن جابر.
-فتوح البلدان. نشره ووضع ملاحقة د. صلاح الدين المنجد الناشر مكتبة النهضة المصرية.

(٥) - حسين مؤنس -دكتور.
-فتح العرب للمغرب الناشر مكتبة الآداب بالقاهرة.

(٦) - ابن خلدون توفي ٨٠٨هـ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المغربي.
-العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر نسخة من مكتبة الأزهر رقم ١٠٥ أباظة.

(٧) - الدباغ ت ٦٩٦هـ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري.
-معالم الايمان في معرفة أهل القيروان نشر المطبعة الرسمية العربية بتونس سنة ١٣٢٠هـ.

(٨) - ابن أبي دينار ت١١١٠هـ محمد بن أبي القاسم بن عمر القيرواني.
-المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس -تحقيق محمد شمام -الناشر المكتبية العتيقة بتونس.

(٩) - الرفيق القيرواني أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم توفي في القرن الخامس الهجري.

-تاريخ إفريقية والمغرب. تحقيق المنجي الكعبي نشر مطبعة الوسط بتونس.
(١٠) - السيد عبد العزيز سالم -دكتور.
-المغرب الكبير ج٢ الدار القومية للطباعة والنشر سنة١٩٦٦م.
(١١) - شكري فيصل -دكتور.
-حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول -مطابع دار العلم للملايين الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢م.
(١٢) - الطاهر أحمد الزواني الطرابلسي.
-تاريخ الفتح العربي في ليبيا الطبعة الثانية دار المعارف سنة١٩٦٣م.
(١٣) - الطبري ت٣١٠هـ: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.
-تاريخ الأمم والملوك -الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية.
(١٤) - ابن عبد الحكم ت٢٥٧أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي المصري.
-فتوح مصر وأخبارها طبع ليدن بمطبعة بريل سنة١٩٣٠م.
(١٥) - ابن عذارى توفي أواخر القرن السابع الهجري: أبو عبد الله محمد المراكشي.
-البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب تحقيق كولان، ليفي بروفنسال -دار الثقافة بيروت لبنان.
(١٦) - أبو العرب تميم ت٣٣٣ محمد بن أحمد التميمي القيرواني.
-طبقات العلماء إفريقية وتونس -تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي الدار التونسية للنشر سنة ١٩٦٨م.
(١٧) - كارل بروكلمان.
- تاريخ الشعوب الاسلامية ترجمة نبيه فارس دكتور، منير البعلبكي -الطبعة الثالثة دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٦٠م.
(١٨) - الكندي ت٣٥٠هـ أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب.
-كتاب الولاة وكتاب القضاة طبع بمطبعة الأباء اليسوعيين بيروت سنة ١٩٧٨م.
(١٩) - المالكي ت سنة٤٣٨هـ أو سنة ٤٥٣هـ أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي.
-رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية - نشر حسين مؤنس دكتور مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥١م.
(٢٠) - مبارك محمد الهلالي الميلي.
-تاريخ الجزائر في القديم والحديث -الناشر مكتبة النهضة الجزائرية.
(٢١) - أبو المحاسن ت٨٧٤هـ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي.
-النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة الطبعة الأولى مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٩م.
(٢٢) - محمد على دبوز.

-تاريخ المغرب الكبير ج٢ الطبعة الأولى سنة ١٩٦٣م طبع دار إحياء الكتب العربية.

(٢٣) - محمد الفاسي.
- التعريف بالمغرب طبع معهد الدراسات العربية بالقاهرة سنة ١٩٦١م.

(٢٤) - محمود شيت خطاب -اللواء الركن-.
-قادة فتح المغرب العربي -الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦م الناشر دار الفتح للطباعة والنشر بيروت.

(٢٥) - المقدسي ت٣٨٧هـ شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعي المقدسي المعروف بالبشاري.
-أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم الطبعة الثانية -مطبعة بريل بليدن سنة ١٩٠٦م.

(٢٦) - الواقدي ت٢٠٧هـ أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي.
-فتوح الشام الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٤ مطبعة مصطفى الحلبي بمصر.

(٢٧) - ياقوت ت٦٢٦هـ شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي البغدادي.
-معجم البلدان -الطبعة الأولى- طبع مطبعة السعادة.

(٢٨) - اليعقوبي ت٢٨٢هـ: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح.
-تاريخ اليعقوبي -طبع بريل سنة ١٨٨٣م.

نظـرات
في هجرة المسلمين إلى الحبشة

بقلم
الدكتور/ أحمد الشامي
أستاذ التاريخ الاسلامي المشارك ورئيس قسم التاريخ

الحديث عن الهجرة النبوية الشريفة لن ينتهي مهما طال الزمن، فطريقها طويل، وسبلها متشعبة ومتعددة، ونتائجها لا تحصى، وكلما نظر كاتب أو متحدث إلى هذه الهجرة الشريفة من زاوية معينة، استبانت له زوايا أخرى يحاول اللحاق بها والوصول إلى مضمونها.

ولذلك رأيت أن يكون البحث الذي أقدمه اليوم : «نظرات في هجرة المسلمين إلى الحبشة «تلك الهجرة التي أغفلها وتغافل عنها معظم الكاتبين والمؤرِّخين ظناً منهم أنها كانت حدثاً عابراً في تاريخ الدعوة الإسلامية، وأن توجيه الرسول صلىّ الله عليه وسلَّم للمؤمنين بأن يهاجروا إلى الحبشة كان مجرَّد أمر عادي، ولكنه - في الحقيقة - كان يعني أمراً خطيراً، ويتضمَّن عملاً جليلاً كما يتضح لنا ذلك من سياق البحث.

لقد تمادت قريش في عنادها ضد محمد (ص) والتصدِّي له ولما جاء به من تعاليم الدين الجديد وهو الإسلام، والرسول (ص) صابر على هذا العناد ويأمل أن تعود قريش إلى رشدها وتحتكم إلى عقلها، ولكن عناد قريش وصل إلى مرحلة التعدِّي بالأذى على من دخلوا في الإسلام بل وصل عنادهم إلى أن أجمعت قريش أمرها على قتل النبي (ص) نفسه، وبلغ

رسول الله (ص) وهو بالكعبة خبر تلك المؤامرة الدنيئة التي دبرتها رؤوس قريش، فخرج من باب الصفا حتى وقف عندها ، فأتاه الأمين جبريل (ع) فقال له: يا محمد إن الله قد أمر السماء والأرض والجبال أن تعطيك فإن أحببت فمر السماء أن تنزل عليهم عذاباً منها، وإن أحببت فمر الأرض أن تخسف بهم، وإن أحببت فمر الجبال أن تنضمّ عليهم، فقال رسول الله (ص) أؤخر عن أمتي، لعل الله أن يتوب عليهم.

ولم يثب مشركو مكة إلى رشدهم، ولم يرتدوا عن غيهم، بل صبّوا جام غضبهم على ضعفاء المسلمين، فكانوا يعذبونهم ليجبروهم على الإرتداد عن هذا الدين الجديد، والعودة إلى دين آبائهم وأجدادهم، والأمثلة على ذلك كثيرة منها بلال الحبشي وتعذيبه على يد أمية بن خلف الجمحي، وعمار بن ياسر وأبوه وأمّه وتعذيبهم على الرمضاء، وجرُّهم فوقها ساعة الظهيرة بواسطة بني مخزوم لمثال حي على ما اقترفه أيدي المشركين في مكة ضد الذين آمنوا بدعوة التوحيد.

لقد أسلمت أسرة ياسر ولم يتعدَّ عدد المسلمين بضع وثلاثون رجلا، وكان بنو مخزوم يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء، يعذبونهم بحرِّها، ومرَّ النبي بهم وهم على هذا العذاب، فقال لهم «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» فمات ياسر في العذاب، وأغلظت إمرأته (سمية) القول لأبي جهل فطعنها في موضع حساس بحربة في يده فقتلها، فكانت شهيدة في الإسلام، ولم ينج عمار من انتقامهم بل ظلوا يشدِّدون العذاب عليه وتعريض جسده للهيب الحرِّ القاتل، أو بوضع الصخرة على صدره، أو بالتغريق مما لا يحتمله أي إنسان في هذا العصر الذي نعيش فيه حتى ولو كان قويّ البنية سليم الجسم.

ومّمن عذِّبوا على أيدي المشركين كذلك حبَّاب بن الأرتّ التميمي الذي كوى المشركون جسده بالنار، ولووا رأسه، ولم ينطق بكلمة الكفر،

ومنهم صهيب بن سنان الرومي الذي عذّب عذاباً شديداً، ومنع من الهجرة فافتدى نفسه بجميع أمواله أعطاها قريشاً حتى تسمح له بالخروج من مكة، وغير هؤلاء الذين ذكرتهم كثير ممن عذبتهم قريش بطريقة أو بأخرى، وكان الرسول (ص) يرى كل هذا هو وصحبه، ولكنهم كانوا صابرين على هذا البلاء حتى يأذن الله بأمره.

ولم يقتصر تعذيب قريش للمسلمين على الرجال، بل تعدّاه إلى النساء، فها هي هي لبيبة بني مؤمل بن حبيب بن عدي كانت تجد الإهانة والأذى على يد عمر بن الخطّاب قبل أن يشرح الله صدره للإسلام ويدخل فيه، وقد أثّر هذا التعذيب على نفوس نفر قليل جداً من المسلمين، بينما أثار الحماسة الدينية في نفوس معظمهم، وصمدوا لهذاالاضطهاد، وتحدّى بعضهم المشركين علناً وأسمعهم ما يكرهون، مثل عبد الله بن مسعود الذي جلس في جوف الكعبة يقرأ القرآن ولم يأبه لما نزل به من لكمات المشركين.

الهجرة إلى الحبشة:

عندما اشتدَّ هذا البلاء، وكثر تعنّت المشركين وإيذاؤهم للمسلمين، أراد النبي أن يخفف عن أتباعه بعضاً من هذا البلاء وهذا العذاب الذي لم يكن في مقدوره أن يبعده عنهم أو يحميهم من قريش، فعرض على المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة لما كان يتمتع به النجاشي من حب للعدل ولما عرف عنه من الحكمة، ورغّبهم النبي (ص) في ذلك بقوله: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه».

حقيقة كانت هناك هجرات عديدة ومختلفة على مر العصور التاريخية، وكان لهذه الهجرات جوانبها السلبيّة والإيجابية، وكان لها آثارها التخريبيّة في كثير من الأحيان أو العمرانية في القليل منها، لأن هذه الهجرات كانت تقوم

على الغزو والحرب وسلب جزء من أرض البلد المُهاجَر إليه والإستقرار فوقه بطريقة أو بأخرى ... ولكن هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت تتسم بالهدوء التام من قبل المهاجرين المسلمين، وتتميَّز بالطابع الروحي والمعنوي لأنها هجرة إلى الله ورسوله، هجرة في سبيل الاسلام دين الحنيفية السمحاء، هجرة المقصود بها نشر الدعوة الإسلامية الجديدة التي دعا بها محمد (ص) في شبه الجزيرة العربية ليعرف المتعقلون من جيران مكة خصائص وفضائل هذا الدين السامي العظيم.

وقبل أن أسترسل في الحديث أريد أن أضع أمام أعينكم بعض التساؤلات التي أثارها بعض مؤرخي الشرق والغرب ثم أتناولها بالرد والتحليل واحدة بعد الأخرى من هذه التساؤلات:

أولاً: لماذا لم يتَّجه هؤلاء المهاجرون إلى أي مكان داخل شبه الجزيرة العربية؟.

ثانياً: هل الحقيقة كانت هذه الهجرة فراراً من المسلمين بدينهم حتى لا يفنوا نتيجة التعذيب والإضطهاد؟.

ثالثاً: هل كانت الهجرة لأسباب تجارية ومكاسب مادية كما يقول بعض المستشرقين؟.

رابعاً: هل كانت الهجرة إلى الحبشة بغرض الإستعانة بقوة أجنبية تتدخل لحماية المسلمين من أهليهم وذويهم من قريش؟.

خامساً: ما أراه شخصياً من اتجاهات احتوتها فكرة الهجرة إلى الحبشة؟.

فإذا ما تناولنا التساؤل الأول نجد أن النبي (ص) لم ينصح المسلمين بالهجرة إلى أحد الأماكن الأخرى داخل الجزيرة لأنه كان يخشى من مجاملة القبائل العربية لقريش باعتبارها زعيمة القبائل العربية، فتردُّ المهاجرين

إليها، ثم إن بعض المدن العربية مثل يثرب ونجران كانت موطناً لديانات أخرى كاليهودية والمسيحية، وكان بين أصحاب هاتين الديانتن نزاع شديد، وتنافس وخصومات فيما بينهم من جانب وفيما بينهم وبين العرب أصحاب الوثنية من جانب آخر، وكان من الطبيعي ألا يقبل هؤلاء أتباع دين جديد لم تتضح معالمه بالنسبة لهم فتزداد الخصومات مما يجعل حياة المهاجرين إلى هذه المدن غير مقبولة.

أما ردّنا على التساؤل الثاني فإنه ليس هناك شك في أن هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت فراراً بدينهم، ونجاة بحياتهم، لأنه لو تناولنا حياة معظم هؤلاء المهاجرين لوجدنا أنهم ليسوا من ذوّي العزوة والمنعة في قريش، ولا هم من بطون قوية كثيرة العدد، كبيرة العدة حتى تخشاهم قريش، وتبتعد عن التصدي لهم، وتكف عن محاولات إرجاعهم إلى عبادة آبائهم وفتنتهم في دينهم، ودليلنا على ذلك أن قريش كانت تعيرُ محمداً (ص) بأن الذين دخلوا الإسلام معه ليسوا إلا ضعفاؤهم، وقد قصَّ القرآن الكريم علينا ذلك في قوله تعالى: ﴿أنؤمن لك وأتبعك الأرذلون﴾(الأحزاب ٢٣/ ٥٩).

ثم إن هؤلاء المهاجرين كانت فيهم نسبة كبيرة من حلفاء بني عبد الدار - يعرفون بلعقة الدم - وهم خصوم لبني هاشم ولحلفائهم الذين كان عددهم في المهاجرين قليلاً، وكان المفروض أن يكون عدد المهاجرين من بني هاشم أكثر من غيرهم باعتبارهم عشيرة النبي (ص) وعليهم يقع ضغط قريش، أو كان ينبغي أن يقع عليهم ضغط قريش.

ويبدو أن الرسول (ص) أراد أن يمحو آثار ما بقي من عصر الجاهلية في نفوس هؤلاء وأولئك من المهاجرين، وأن يوطد المحبة والصفاء والأخوة بينهم، فنصحهم بالهجرة إلى أرض ينتشر فيها العدل ليكونوا بعيدين عن تأثيرات المجتمع العربي واضطهادات قريش للبطون الضعيفة منها ومن بني هاشم وغيرها.

أما القلة التي بقيت مع الرسول ولم تهاجر إلى الحبشة فقد كانت بحق أكثر إيماناً، وأقوى قلباً، وأكثر عزةً وجاهاً وسنداً من الذين هاجروا، فأي مسلم مهما كان يستطيع أن يقارن إيمانه بإيمان أبي بكر الصدّيق بعد ما قال عنه النبي (ص) «لو وزن إيمان أمتي بإيمان أبي بكر لرجح إيمان أبي بكر». وكذلك عمر بن الخطاب كان من القوة والشجاعة بحيث كانت قريش تخشاه، وتتحاشى الإصطدام به، أليس هو الذي شجّع المسلمين على إقامة الصلاة وتأديتها بالكعبة، عندما أسلم وأعلن ذلك على الملأ؟ أليس هو القائل لقريش إني مهاجر إلى يثرب، ومن أراد أن تثكله أمه أو ترمل إمرأته وييتم ولده فليخرج إليّ بظهر هذا الوادي،«اما علي بن أبي طالب فإنه كان ملازماً للنبي (ص) في غدواته وروحاته بحكم أنه تربىّ في بيت النبوة، ثم إنه كان زوج فاطمة بنت رسول الله، ولا يعقل أن يهاجر ويترك البيت الذي تربىّ فيه، ويترك زوجته، كما كان من القوة والمنعة ما يبعد عنه قريشاً وتحرُّشها به.

وإذا ما ناقشنا التساؤل الثالث وما ذكره بعض المستشرقين من أمثال (MONTGOMERY WATT)الذي أنكر على هؤلاء المهاجرين المسلمين خشيتهم من أن يفتنوا في دينهم وأنهم ليسوا أضعف إيماناً من الذين مكثوا مع رسول الله ولم يهاجروا، وأرجع سبب هذه الهجرة إلى أغراض التجارة واكتساب الرزق في الحبشة لأن مكة سدَّت أبواب الرزق أمام الذين دخلوا في دين الإسلام، ومنعتهم من الإتجار معها، ويستند في ذلك على قول ابن إسحق في السيرة من أن أبا جهل كان حين يلقى مسلماً لا يقبل الإرتداد عن الدين والعودة إلى عبادة الأوثان يقول له: «والله لنكسدنَّ تجارتك، ولنهلكنَّ مالك» كما يستند على قول عروة بن الزبير «إن أرض الحبشة كانت متجراً لقريش يتجرون فيها، ويجدون فيها رفاغاً من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً».

وعلى الرغم من أن المؤرخ لا يملك من الوثائق والأدلّة التاريخية ما

ينفي به هذا القول، إلا أننا عن طريق دراستنا لسيرة الرسول، وتتبّع تاريخ العرب المسلمين في بدء الدعوة نستطيع الجزم بأن الدوافع المادية ورفع مستوى المعيشة لم يكن في تفكير المسلمين، وأن هجرتهم لم تكن حرصاً على تجارة مهدَّدة بالكساد، أو من أجل أسواق جديدة بدلاً من التي سدَّت في وجوههم ، ولكنهم تركوا أوطانهم وديارهم بعد أن تحمَّلوا ألواناً من العذاب والإضطهاد، وهاجروا فراراً بدينهم الذي حرصوا عليه أكثر من حرصهم على رفاهيتهم ومعاشهم، بل إننا نستطيع القول بأن الأمر كان أخطر من هذه الجوانب التجارية والمعاشية بكثير، ففي رأينا أن الغرض الحقيقي من وجود هؤلاء المهاجرين في الحبشة هو **الجانب السياسي والجانب الإعلامي** لنشر الدعوة الإسلامية بطريق غير مباشر، وبطريقة وديَّة سليمة، وسأتعرَّض إلى هذا الجانب بعد قليل.

وإذا ما تناولنا **الجانب الرابع** من هذه التساؤلات نجد أن بعض المحدّثين الذين يشتغلون بالتأريخ يذهبون إلى أن الحبشة كانت تطمع منذ أجيال في فتح الأقاليم العربية بشبه الجزيرة العربية، وقد سبق لها أن أرسلت حملة إلى فتح مكة ومع أن الحملة أخفقت وخرجت الحبشة من الجزيرة العربية كلها إلا أن الصراع الدولي آنذاك خاصة بين بيزنطة وفارس على احتكار طريق التجارة لم يكن قد انتهى بعد .. ويعتقد أصحاب هذا الرأي أن اختيار النبي للحبشة بالذات مكاناً للهجرة كان له مغزيان:

المغزى الأول: أن يلقى المهاجرون ترحيباً من ملك الحبشة أملا في أن يتمكَّن بمساعدتهم من التدخل في شؤون مكة الداخلية.

المغزى الثاني: الإيحاء إلى قريش بأن عدوانها على المسلمين قد يضطرهم إلى الإلتجاء إلى الإستعانة بقوة خارجية قد تتدخل لحمايتهم.

فإذا ناقشنا **المغزى الأول** بشيء من التمحيص، نجد أن الحبشة بعد أن فشلت حملتها على مكة، سكنت وهدأت واكتفت بمشاكلها وأمورها

الداخلية، وأن هجرة المسلمين إليها كانت بعد ما يزيد قليلاً عن أربعين سنة، ولم تحاول الحبشة خلالها إعادة الكرَّة لفتح مكة أو غزوها.

أما ما تخيَّله أصحاب هذا الرأي من أن نجاشي الحبشة قد يراوده الأمل في التدخل في شؤون مكة عن طريق مساعدة المهاجرين له، ففي رأينا أنه إحتمال بعيد جدا عن فكر النبي (ص) الذي يدعو إلى دين جاء بالقيم الأخلاقية، والعدالة الإنسانية، وهذان مبدآن لا يتفقان مطلقاً مع هذا المغزى، لأنه لو صحَّ - فرضاً - تدخُّل النجاشي في شؤون مكة الداخلية كما يظن أصحاب هذا الرأي، فماذا يكون موقف النبي (ص) صاحب الكلمة والسيادة المرتقبة إذا جاء غريب عن البلاد وتدخَّل في أمورها وأصبح المهيمن عليها، والمدبِّر لسياستها وشؤونها؟... ثم من مصدر عرف أصحاب هذا الرأي بأن النبي (ص) كان تفكيره يتفق مع ما يزعمون، وأن ترحيب ملك الحبشة بالمسلمين سيكون مبنيًا على هذا الأمل الذي تصوروه، وفي مخيلتهم رسموه.

أما ما توهمه أصحاب هذا الرأي في **المغزى الثاني** من استعانة المسلمين بقوة خارجية ضد قريش فهو يتعارض كذلك تعارضاً كاملاً مع ما عرف عن أخلاق محمد (ص) ورأفته وحبِّه لبني قومه خاصة، رغم إيذائهم له، وتعذيبهم للمسلمين، ودليلنا على ذلك أنه حينما اشتدَّ إيذاء المشركين للنبي عندما حاول الإلتجاء إلى الطائف، إتجه الرسول بالدعاء إلى الله عزَّ وجلَّ، فنزل جبريل (ع) يبلغ النبي أن الله أمره أن يفعل ما يأمره به في أمر هؤلاء المشركين ويقول: «لو أمرتني أن أطبق عليهم الجبلين لفعلت» فينظر النبي (ص) إلى جبريل ويقول: «اللهم إهد قومي فإنهم لا يعلمون» وهنا يقول جبريل (ع) مخاطباً النبي (ص) «صدق من سمَّاك بالمؤمنين رؤوف رحيم».

هناك موقف ثان للنبي (ص) يدعم هذا الموقف ويؤيِّده، فعندما

مـا تمَّ النصـر للنبي والمسلمـين، وفتحت مكـة، اجتمـع أهـلهـا أمامه وهم واجفون خشية الإنتقام لما اقترفته أيـديهم في حق الرسـول والمسلمين، وينظر النبي إليهم ويشفق عليهم في هذا الموقف الجلل ويقول لهم: «ماذا تظنون أني فاعل بكم؟» فيقولون: أخ كريم وابن أخ كريم فيقول النبي (ص): «إذهبوا فأنتم الطلقاء». وموقف ثالث كذلك، فحينما سأل الأنصارالرسول(ص) يوم أحد الإستعانة بحلفائهم من يهود المدينة، أبى النبي (ص) ذلك، حتى إذا ما جاءه مشرك يعرض عليه -صلى الله عليه وسلم- أن يقاتل معه أجاب النبي: «لا أستعين بمشرك».

لذلك أستبعِدُ تماما أن يستدعي النبي (ص) قوماً غرباء على قومه وبني جلدته، وأهله وعشيرته، في سبيل تحقيق أمر قد لا يقبله هؤلاء الغرباء أنفسهم، وهذا ما حدث فعلاً من الأحباش الذين لم يعتنقوا الدين الإسلامي.

ثم إن النبي (ص) كان في بدء الدعوة إلى الإسلام، ولا يعقل أن يستدعي الحبشة على قومه وهو الحريص على أن يلتفوا حوله، ويدخلوا في الدين الإسلامي الذي أرسله الله سبحانه وتعالى به.

ثم إذا كان زعماء الدول الوطنيون وساستها - في أيامنا هذه- يأنفون الإستعانة بالقوى الأجنبية، ويرون أن هذا العمل يذهب كرامتهم، ويحطّ عنهم سمعتهم، ويقلّل من رجولتهم ويسقط عنهم شجاعتهم، بل يجعلهم في مرتبة الخونة الغادرين بأهليهم ومواطنيهم، فما بالك بنبي مرسل من قبل الله عز وجلّ، له من المقوِّمات الإنسانية والرئاسية والسياسية والأخلاقية ما يفوق كثيراً هؤلاء الساسة العظماء، أظنني لست في حاجة إلى تقديم مزيد من الأدلّة لإسقاط ما توهمه أصحاب هذا الرأي من تخيلات.

الحقيقة أن هجرة هؤلاء النفر من المسلمين إلى الحبشة لم تكن فراراً بدينهم من ظلم قريش فحسب، بل كانت خطوة سياسية وناحية إعلامية

موفقة من جانب الرسول (ص) وهذه هي النظرة الخامسة والأخيرة في هذا الموضوع:

فمن الناحية السياسية: سيكسب النبي (ص) تأييد النجاشي المعنوي لهؤلاء النفر من المسلمين، وحمايته لهم، وعدم تسليمهم إلى قريش، ومن هذه الناحية كانت خشية قريش من وجود المسلمين في الحبشة، ليس لأن الأحباش سيعتنقون الدين الجديد الذي يدعو إليه الرسول الكريم، ولكن لأن حماية النجاشي لهم سوف تشجِّع الآخرين من أتباع محمد على ترك الجزيرة العربية والفرار إلى هذا المكان الذي يتوفر فيه الأمن والحماية والحرية لهم، وأن شوكتهم سوف تشتدّ ويعودون لنصرة دينهم ونبيِّهم بالمال والروح، وبالتالي ستكون هذه الحماية من جانب النجاشي عاملاً مؤثراً في إقبال العرب في شبه الجزيرة العربية على الدخول في الدين الجديد فإذا ما تعرَّضوا لمضايقات قريش وتصدِّيها لهم وجدوا المكان الذي يحتمون فيه.

ومن جانب آخر فإن قريشاً كانت تخشى أن يزداد مجال العلاقات السياسية وأن يحدث تقارب من نوع ما بين المسلمين والأحباش حلفاء الدولة البيزنطية التي اعتبرت التقارب الذي تمَّ بين مكة (القرشيين) وفارس خيانة من جانب قريش تضرُّ بالمصالح الإقتصادية للبيزنطيين، ويبدو أن الرسول (ص) أراد بثاقب نظرة للأمور أن يستغِّل هذه الأوضاع السياسية بين قريش وبيزنطية لصالح المسلمين، وأن يفرض على مكة وأهلها عزلة تجارية ، وأن ينقل ما كان بيد هؤلاء القرشيين من تجارات إلى أيدي المسلمين أنفسهم خاصة بعد أن عادت سوريا وفلسطين ومصر إلى تبعية الدولة الرومانية بعد أن تغلَّب هرقل على الفرس.

لهذه الأسباب تقرَّب الرسول إلى الحبشة حليفة الدولة البيزنطية وأرسل إليها وفداً من المسلمين المهاجرين وأقام معها أطيب العلاقات.

ونحن لا ننكر أن نوعا من التعاطف كان قائمًا من جانب المسلمين

إلى ناحية الروم ضد الفرس باعتبار الروم أصحاب ديانة سماوية هي المسيحية. ولكن ما ننكره على المستشرف «مونتجومري وات» أنه أخرج هذا التعاطف المعنوي - الذي حدثنا به القرآن الكريم - إلى جانب مادي إقتصادي فقط بحيث أول النص أكثر مما يحتمل من المعنى، وهي الرغبة عند المسلمين في أن ينتصر الروم على الفرس كما جاء ذلك في القرآن الكريم: ﴿ألم. غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾.

أما الجانب الإعلامي فقد خشيت قريش أن تنتشر أخبار هذه الهجرة - وقد انتشر خبرها فعلاً- ويعرف عرب شبه الجزيرة أن هؤلاء النفر الذين أسلموا واتبعوا محمداً قد فروا إلى الحبشة وأن النجاشي قد حماهم ، وأن تتناقل الألسنة هذا الخبر من مكان إلى مكان، وبهذا يصبح هذا الحديث بمثابة نوع من الاعلام الداخلي الناجح عن وجود هذه الدعوة الإسلامية فيترتب على ذلك إنتشار الدعوة في شبه الجزيرة كلها، ويشجّع المتخوفين من أذى قريش على الإقدام على اعتناق هذا الدين الجديد.

ومن ناحية أخرى فوجود المهاجرين في أرض الحبشة يدفع الأحباش أو بعضهم سواء كانوا من الخاصة (أتباع النجاشي) أو من العامة إلى الإلتفاف حول هؤلاء المهاجرين للوقوف منهم على أسباب مجيئهم ودوافع فرارهم من بلادهم ومعرفة شيء عن الدين الجديد الذي يؤمنون به، ويفرون بأنفسهم في سبيله، وهذا في حد ذاته ناحية إعلامية ممتازة في الإبلاغ عن الدعوة الإسلامية. ودليلنا على ذلك الحديث الذي دار بين النجاشي وجعفر بن أبي طالب في شأن المسيح، وبكاء النجاشي حتى ابتلت لحيته حينما سمع آيات الكتاب الكريم، ودخوله الإسلام.

يتضّح ذلك في قوله تعالى: ﴿لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا

نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ (سورة المائدة).

حقيقة أن هجرة المسلمين إلى الحبشة قد حفت بالمخاطر، ولكن على الرغم من ذلك فالتاريخ لا يعرف هجرة واحدة تماثلها، فقد كانت فكرة الهجرة في حد ذاتها نقلة كبرى وانقلاباً خطيراً في محيط المجتمع العربي بالجزيرة، ربما لم يبد واضحاً في أول أمره، ولم تظهر آثاره إلا بعد أن تمت الهجرة الكبرى إلى يثرب ، والتي ترتب عليها أعظم النتائج، ونتج عنها أكبر تغيير عرفته البشرية في تاريخها المستمدّ منذ آلاف السنين، ونعني به انتشار الإسلام في آفاق الدنيا، وتكوين دولة إسلامية عظيمة اتسعت حدودها في جنوب غربي أوروبا وامتدت إلى الهند وبعض أصقاع في العين وارتفع علمها خفاقاً يعلن كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

دكتور أحمد الشامي

أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك.

مراجع البحث

١ - القرآن الكريم.

٢ - البخاري - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، ٣ مجلدات، الهيئة العامة للكتاب (بدون).

٣ - إبن الأثير الجزري: جامع الأصول، ١١ مجلداً بيروت ١٩٦٩.

٤ - إبن إسحق: السيرة، تحقيق محمد حميد الله الرباط ١٩٧٦.

٥ - إبن سعد: الطبقات الكبرى بيروت ١٩٦٥.

٦ - إبن كثير: البداية والنهاية، بيروت ١٩٦٥.

٧ - إبن كثير: تفسير، ج٣، بيروت ١٩٦٥.

٨ - إبن ماجة: سنن إبن ماجه، تحقيق عبد الباقي القاهرة ١٩٥٢.

٩ - إبن هشام: السيرة، تحقيق محمد عبد الحميد القاهرة ١٩٦٦.

١٠ - إبن داود: سنن أبي داود، ٥ مجلدات، القاهرة ١٩٥٢.

١١ - دكتور أحمد الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، القاهرة ١٩٦٥.

١٢ - الخطيب الشربيني: تفسير دار المعرفة بيروت (بدون).

١٣ - إبن جرير الطبري: تاريخ، القاهرة، المعارف ١٩٦٦.

١٤ - إبن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن.

١٥ - محمد حسين هيكل (دكتور): حياة محمد، النهضة المصرية، الطبعة العاشرة.

١٦ - مسلم القشيري: صحيح مسلم، ٥ مجلدات، عيسى الحلبي بالقاهرة.

١٧ - مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٦ مجلدات، بيروت (بدون).

١٨ - المعجم المفهرس للحديث: ليدن ١٩٤٣.

١٩ - دكتور نبيه عاقل: سيرة الرسول، دمشق ١٩٦٩.

٢٠ - دكتور نبيه عاقل: الامبراطورية البيزنطية، دمشق ١٩٦٩.

التفرقة العنصرية والإسلام

بقلم
الدكتور/ محمد البهي
(مصر)

مقدمة:

التفرقة العنصرية تقوم على ادعاء: أن شعباً من الشعوب أو قوماً من الأقوام أو جنساً من الأجناس البشرية، أو قبيلة من القبائل، أو عشيرة من العشائر أو مجموعة من الناس خاصة.. وتتميز في صفاتها الجسمية والعقلية عن ما عداها.

وإنها لذلك صاحبة الفضل في بناء الحضارة الانسانية والمدنية ومؤهلة من أجل هذا السبب للقيادة والامارة على الآخرين.

هل الاسلام بدعوته ومبادئه يقوم على التمييز العنصري؟ إنه يفرّق حتماً بين الأفراد والمجموعات، بينما يسوي بين الناس جميعاً. فعلى أي أساس يفرّق؟ وعلى أي أساس آخر يسوي؟

وبعض المسلمين في مراحل إيمانهم بالاسلام على عهد الرسول عليه السلام وبعده، كان لا يخفي النزعة إلى «القبيلة» أو «العشيرة».. هل عدم إخفاء هذه النزعة يعد مساوقاً للايمان، أو يعتبر تغاضياً عن دعوته؟.

إن الاسلام كما سنرى في البحث يدعو إلى: «الانسانية» وقيمها العليا وهو من أجل ذلك يعادي «العنصرية» كما يعادي الشر والجاهلية.

وظهور النزعة «العنصرية» في وقت ما، أو في مرحلة ما، عند بعض المسلمين، لا يدل على أن الاسلام يهادن العنصرية لسبب من الأسباب وإنما يدل على ضعف هذا البعض من المسلمين، أو على أن المجتمع يأخذ طريقه شيئاً فشيئاً بعيداً عن الاسلام ومبادئه.

والله المـوفـق

دكتور محمد البهـي

٢٤ من شعبان ١٣٩٩هـ.
مصر الجديدة.
١٩ من يوليه ١٩٧٩م.

* * *

في النصوص الاسلامية:

رسالة الرسول عليه السلام - وهي ما أوحى بها الله في القرآن - جاءت لتعيد إلى القيم الانسانية اعتبارها - جاءت لترفع من شأن هذه القيم في العلاقات بين الناس والأفراد، ويكون لها وزنها، بحيث تحل محل الروابط المادية وهي روابط المنفعية والمبادلات المصلحية، التي تكون نفاق الانسان في التفكير والسلوك، والمواقف بالنسبة للآخرين.

ولكي يفسح الاسلام المجال للقيم الانسانية في ترابط الناس بعضهم ببعض: نحى عن هذا الترابط اختلاف نظرة الناس بعضهم إلى بعض، واختلاف تقديرهم وتقييمهم على أساس من «العنصرية».. أي على أساس من «الشعوبية».. و «القبلية».. و «الذكورة والأنوثة».. على أساس من

«الأصل» و «الجنس».. يقول الله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا﴾[1].. فيأمر المؤمنين بأن ينتقلوا بالترابط فيما بينهم ويرتفعوا به إلى دائرة الهداية بكتاب الله. وهي دائرة أسمى من دوائر الترابط التي كانت سائدة قبل الاسلام، ودائرة أعم في الشمول من أية دائرة أخرى كان لها اعتبارها بين الجاهليين أو الماديين أو غير الاسلاميين.

وبالانتقال إلى هذه الدائرة الأسمى والأدعم في الترابط يجنب القرآن المؤمنين: الفرقة على أساس الاختلاف في القبيلة، أو الشعب، أو اللون، أو الجنس من الذكورة والأنوثة. ولكي يقنعهم بأن يكون الترابط في العلاقات على صلة بهداية الله وحدها، يذكرهم بأحداث الماضي في العلاقات البشرية التي كانت تنشأ على أساس مادي ضيق، كما يذكرهم بآثارها السلبية فتقول الآية مستمرة في الحديث: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾[2].. والعداوة التي كانت قائمة ليست هي فقط العداوة التي كانت بين قبيلتي الأوس والخزرج، كما يذكر كثير من المفسرين. وإنما هي كل عداوة عنصرية قبلية، أو شعوبية، تنشأ على أساس الدم والقرابة فيه، وليس على أساس التوجيه الانساني والهداية الإلهية وهي عداوة تتكرر كلما تكررت الروابط واشتدت على أساس العنصرية.

وتعتبر الآية الكريمة أن الدعوة إلى الانتقال بالترابط بين الناس إلى دائرة الهداية الالهية، هي دعوة لانقاذ البشرية من الهلاك المحقق، وتمتن بها على المؤمنين، مؤملة أن يأخذوا في حياتهم، كي يكونوا على طريق السلام والأمان دائمًا.

وإذ ينحى الاسلام عن ترابط الناس بعضهم ببعض قيام هذا الترابط

---

(١)، (٢) آل عمران: ١٠٣.

على أساس «العنصرية» فإنه يوصل المبدأ الذي يؤكد مساواة الناس جميعاً في الاعتبار البشري ويرد كل سبب آخر للتفرقة العنصرية، فيقول:

﴿يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾.

﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾[1] فالناس جميعاً خلقوا من ازدواج الذكورة والأنوثة. ولا يتخلف فرد واحد منهم في نشأته عن هذا الأصل فالناس إذاً متساوون في الاعتبار البشري، كما هم متساوون في النشأة والأصل هنا ويوضح ذلك قوله تعالى في سورة الانسان:

﴿هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ أي أنه جاء، وقت لم يكن الانسان مخلوقاً.

﴿إنّا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا﴾[2] وعندما خلقه الله سبحانه وتعالى خلقه من نطفة مشتركة من الذكورة والأنوثة. وخلقه على هذا النحو: لا يتبدّل بسبب اختلاف المكان، والزمان، واللغة، والعرق والذكورة والأنوثة، واللون.

وتأتي سورة النساء في أول آية منها فتذكر أن الطبيعة الانسانية التي خلق منها الناس جميعاً، وخلق منها الذكر والأنثى، هي طبيعة واحدة، يقول الله تعالى:

﴿يا أيها الناس اتّقوا ربكم﴾ - فتجنبوا ما تباشرونه ضد الضعفاء فيكم أو ضد المستضعفين لديكم، وهم النساء، واليتامى.

«الذي خلقكم من نفس واحدة وهي الطبيعة البشرية. وما يقوله بعض المفسرين هنا في النفس الواحدة: إنها نفس آدم، فذلك قصة التوراة.

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) الانسان: ١ / ٢.

﴿وخلق منها زوجها﴾ أي خلق من الطبيعة البشرية الذكورة والأنوثة.

﴿وبثّ منها رجالاً كثيراً ونساء﴾ ثم انتشر خلق الرجال والنساء في تعمير الكون من نطفة أمشاج، اختلط فيها ما للذكر وما للأنثى...

ومن هذه الآيات يتضح أن المساواة في الاعتبار البشري بين الذكر والأنثى قائمة بالفعل، وأن مصدرها: وحدة الأصل والنشأة بين النوعين.

فإذا جاءت آية الحجرات السابقة وأضافت إلى شقها الأول قوله الله تعالى ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾.. فإنها تضم إلى المساواة في الاعتبار البشري بين الأفراد بين الذكر والأنثى، المساواة في الاعتبار البشري بين الشعوب، والقبائل، وكل المجموعات الأخرى التي تقوم على عصبية الدم أو وحدة اللغة، أو تجانس اللون فهذا الشق الثاني من الآية يريد أن ينفي أن اختلاف الشعوب يوصل إلى اختلاف اعتبارهم البشري، بل هو مصدر للتقارب والتعارف فيما بينهم، أي هو مصدر لجذب بعضهم إلى بعض لحاجة كل منهم للآخر، فالاختلاف بين الذكورة والأنوثة عامل جذب، وليس عامل تضاد... والاختلاف بين الغني والفقير عامل مشاركة وحاجة متبادلة وليس عامل خصومة ومطاردة.. وهكذا.. فالأفراد البشرية، والجماعات البشرية لا فرق بين بعضها بعضاً في الاعتبار البشري في نظر الاسلام. ومن هنا يمكن أن يقال: إن الاسلام ضد «التفرقة العنصرية» وإنه ينظر إلى الناس جميعاً نظرة المساواة في الاعتبار البشري. فلا يفضل إنساناً على آخر ولا شعباً، ولا قبيلة على قبيلة ولا جماعة من الناس ترابطت على أساس غير إنساني، على جماعة أخرى ترابطت أيضاً على أساس آخر، هو غير إنساني كذلك.

ولكن الاسلام في الوقت نفسه يميز بين الأفراد والجماعات بعد إقراره بالمساواة في الاعتبار البشري - بما تنتهي به آية الحجرات السابقة، وهو قوله تعالى:

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

﴿إن الله عليم خبير﴾.. فتذكر الآية أن مقياس التفضيل للأفراد والجماعات عند الله لا يرجع إلى «العنصر» والعرق بل هو التقوى.. هو تجنب المعاصي والآثام.. هو تجنب المنكر والفواحش.. هو آداء الواجبات المختلفة... هو آداء العبادات هو الوفاء بالعهود.. هو الصبر في البأساء والضرّاء وفي تحديد المتّقين يقول الله تعالى:

﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾..

ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب، والنبيين ﴿وآتى المال على حبه: ذوي القربى واليتامى، والمساكين، وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾.

﴿والموفين بعهدهم إذا عاهدو، والصابرين في البأساء والضرّاء، وحين البأس، أولئك الذين صدقوا، وأولئك هم المتّقون[1]﴾.. فالمتّقي هو صاحب الايمان بما طلبت الآية هنا الايمان به، وهو المؤدي للواجبات والتكاليف حسبما يدعو القرآن فيها كذلك، وهو صاحب الصفات النفسية القائمة على القيم الانسانية العليا والثبات عليها: من الوفاء بالعهد، والصبر والتحمل في الشدة إذا استمرت، ووقت مفاجآتها (وحين البأس).

والتقوى التي يتميز بها فرد عن فرد أو مجموعة من الناس على مجموعة أخرى هي جماع هذه الأنواع من الصفات التي ذكرت في آية البرهان.

والإسلام بذلك يفرّق بين شيئين لا يستلزم أحدهما الآخر.. يفرّق:

(أ) بين المساواة في الاعتبار البشري، على أساس الوحدة في أصل النشأة البشرية.

---

(١) البقرة: ١٧٧.

(ب) وبين التميز في السلوك الانساني، والارتباط بالقيم الانسانية العليا في الحياة على أساس من الايمان وتأثيره على الفكر والوجدان، والعمل الإداري.

* * *

وعندما تبدر بادرة اختلاف بين المؤمنين في جماعتهم تشير إلى الرجوع إلى الاعتزار أو التفاخر «بالأصل» فيهم يتجه الاسلام فوراً إلى النهي عن طريق ذلك ويذكر بالرباط القائم بينهم الآن بديلاً عما كان فيقول ﴿إنما المؤمنين أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلّكم ترحمون[٢]﴾.. فيطالب بالصلح على أساس الأخوة في الإيمان بالله وليس على أساس عنصري. ثم ينهي عن مباشرة الآثار التي تترتب على اعتبار «العنصرية» باقية كما كانت فيقول:

«يا أيها الذين آمنوا:

﴿لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خير منهم﴾ وفي العمل والسلوك؛

﴿ولا نساء من نساء عسى أن يكن خير منهن﴾؛

﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ ولا تذكروا عيوب بعضكم بعضا في غيبتهم؛

﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾- أي لا يلقب بعضكم بما يكره أن يسمعه،

﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ - أي بئس الخروج عن الإيمان بعد الدخول فيه.

فينهي القرآن هنا عن أن يسخر أحد من آخر ذكر أو أنثى بسبب وضاعة النسب أو بأي سبب من الأسباب التي كانت في الماضي يستندون

---

(٢) سورة الحجرات: ١٠.

إليها عند التنقيص، أو السخرية من أحد. لأن ذلك لا يتّفق اطلاقاً مع قيام المساواة في الاعتبار البشري بين الناس جميعاً، التي يطلبها الاسلام ويصرّ على طلبها.

كما ينهي عن انتهاك الحرمات في غيبة أصحابها بما يسيء إليهم، وعن مواجهتهم بما يكرهون من الأسماء والألقاب. ويجعل أي سبيل من سبل الانتقاص المذكورة فسوقاً وخروجاً من الايمان، أو هو بمثابة الإرتداد عن الإيمان. فالسخرية والإساءة إلى الانسان بالتنقيص من خلقه، ودعوته بما يكره من الألقاب: أمور لا تجرح الإحساس الإنساني فقط بمن يسخر منه، أو يساء إليه من خلفه، أو في مواجهته وإنما قد يصل جرح الإحساس إلى ما يعوقه عن التفكير السليم، ومباشرة العمل، ويحول بينه وبين النظرة المتفائلة في الحياة. . هي أمور قد تؤدي إلى أن يكره الإنسان نفسه ويتهرّب بوسيلة، أو بأخرى من لقاء الناس، فضلاً عن أن يستمتع بهم عند اللقاء.

ولكي يبعد الاسلام سوء الظن بالآخرين، اعتماداً على تقليد كان قائماً على تفرقة قبلية يطلب الإبتعاد عنه من قريب أو بعيد فيقول:

﴿يا أيها الذين آمنوا؛ اجتنبوا كثيراً من الظن، إن بعض الظنّ إثم﴾ ﴿ولا تجسسوا، ولا يغتب بعضكم بعضا﴾[1]..

والواقع أن القرآن الكريم يطلب في هذه الآيات الثلاث في سورة الحجرات: أن يتجنّب المؤمن كل أسباب الإيذاء النفسي لمؤمن آخر. وهي أسباب كانت سائدة في الجاهلية، وتسود في كل عهد مادي. والقرآن إذ يطلب أن يتجنّبها المؤمن يطلبها لكي يفسح مجال العلاقات بين المؤمنين إلى الإيمان بالله، والأخوة على أساس منه:

فسخرية إنسان من إنسان؛

---

(١) الحجرات: ١٠-١٢.

وتنقيص إنسان من إنسان آخر وراء ظهره؛
ودعوة إنسان إنساناً آخر بما يكره من ألقاب أمام آخرين؛
وتجسس إنسان على أسرار إنسان آخر،
وغيبة إنسان لإنسان..

كلها عوامل تحول قطعاً دون صفاء النفوس، وتماسك بنيان المجتمع وهي لا تشيع إلاّ إذا كانت «التفرقة العنصرية قائمة» بوجه من الوجوه.

الاسترقاق ليس تفرقة عنصرية:

واسترقاق الأسرى في الحروب بين المسلمين وأعدائهم إذا باشره الإمام وأصبح هناك بين المؤمنين أرقّاء من غيرهم يجوز بيعهم وشراؤهم: لا يعد «تفرقة عنصرية» فعدم مساواة الأرقّاء بالأحرار في المجتمع الاسلامي في الاعتبار الانساني، وجعلهم على النصف في أمور عديدة، مما يجب على الحر، أو مما يجوز له، هو إجراء ضروري لإبعاد خطر الاعتداء والحروب عن المؤمنين من أعدائهم وهو «سياسة» يجب أن تستخدم لتحذير الأعداء والمغامرين بالحروب.

ثم الاسترقاق هو بديل عن قتل الأسير في ميدان القتال، أو بعد أسره فقد يجوز أن يقتل في الميدان، كما يجوز للإمام أن يقتله بعد أن يؤسر - وقد كان عمر رضي الله عنه يرى - والمسمون ضعفاء - أن الأسير ينبغي قتله، ولا يجوز أن تقبل منه فدية، فضلاً عن أن يمنّ عليه الإمام بإطلاق سراحه. وفي رأيه جاء قوله تعالى:

﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ - حتى يتمكن ويكون قوياً «تريدون - أي بالفدية. وقد كانت الفدية برأي أبي بكر لحاجة المؤمنين إلى المال «عرض الدنيا».

﴿والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم﴾؛









وفيما يروى عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلّم قوله: «تجدون الناس معادن: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام.. إذا فقهوا.. وتجدون خير الناس في هذا الشأن: أشدهم له كراهية قبل أن يقع فيه، وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذين يأتي هؤلاء بوجه، ويأتي هؤلاء بوجه»[٢].. يشير كذلك إلى «الوراثة» وأثرها في توجيه الأفراد، دون أن يقصد إلى معنى «التفرقة العنصرية» فالوراثة أمر جوهري في الفروق الفردية، بينما «اللون» مثلاً وهو أساس من أسس «التفرقة العنصرية» - القائمة اليوم لا يفرّق بين فرد وفرد أو مجموعة ومجموعة أخرى على نحو ما يدّعيه أصحاب هذه التفرقة. فاللون الأسود لا يرتبط بضعف مستوى الذكاء في صاحبه، كما أن اللون الأبيض لا يدل دلالة لازمة على رفع مستوى الذكاء فيمن هو أبيض اللون. قد يكون للجو وللطبيعة في برودتها وحرارتها أثر على نشاط الإنسان، ولذلك يختلف نشاط من يسكن المنطقة الباردة في مستواه وفي طول أمدة عن ذلك الذي يسكن المنطقة الحارة أو الرطبة. ولكن لا ينبغي أن يرتبط اختلاف النشاطين في المستوى وفي المدى، باللون الأسود والأبيض، إذا كان الأسود هو الذي يسكن المنطقة الحارّة أو الرطبة، بينما الأبيض يسكن المنطقة الباردة.

* * *

في موقف عمر:

إن عمر رضي الله عنه وهو من هو، في الجاهلية والإسلام، كان يقول عن بلال بن رباح الحبشي، مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم، كما يروى عن جابر رضي الله عنه: «أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا - ويعني بلال - وبلال حبشي الأصل، أسود اللون، وكان مملوكاً لبني جمح، فلما سمع بالإسلام بادر إليه فصار أسياده يعذبونه عذاباً شديداً على الإسلام

---

(٢) كتاب التاج: ص٤٣٥ ج٣.

فلا يرجع. وكان أمية بن خلف يوالي تعذيبه ويفري به الولدان يطوفون به في شعاب مكة يعذبونه ويشهرون به، فلا يفتر لسانه عن قول: أحد.. أحد. وكان هلاك أمية هذا على يديه. فلما اشتد تعذيبه ودفنوه في الحجارة حياً اشتراه أبو بكر بخمس أواق، وأعتقه لله تعالى.

فتكريم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبلال الأسود الحبشي، بالتعبير بأنه «سيده».. يدل دلالة واضحة على أن روح «التفرقة العنصرية» لم تكن قائمة في التطبيق العلمي في المبادىء الاسلامية على الأقل حتى عهد عمر. قد تكون مترسبة في أعماق بعض النفوس. ولكن ليس بترسبها هذا مع ذلك تغيير في مجريات الأمور حسبما يرشد الاسلام بروحه الانسانية العامة:

يروى «أن أبا سفيان قبل إسلامه مرَّ على سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي في نفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها (ويقصدون أنه كان يجب أن يزول أبو سفيان عدو الله من هذا الوجود، وقاية للإسلام من شره وعداوته). فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم: (يعني أبا سفيان). وأتى النبي عليه السلام فأخبره. فقال: يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ إن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك. فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أأغضبتكم؟ فقالوا: ما غضبنا. يغفر الله لك».

فالثلاثة: سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، من «عروق» و«أجناس» ثلاثة. وأبو سفيان قرشي. فرد أبو بكر وهو قرشي أيضاً على الثلاثة ربما يوقظ في نفوسهم معنى «العنصرية».. يوقظ أن قريش تتميز على غيرها من قبائل العرب، والأجناس الأخرى عداها. وهذا مما يثير الفتنة أو روح الانسانية العامة والتي هي فوق الجنسيات والعنصريات.

ولذا كان رد الرسول عليه السلام على أبي بكر: أنه ربما أغضبهم بما

قال. وطلب إليه أن يرضيهم ويطمئنهم على أن الروح الانسانية العامة - وليست روح العنصرية - هي السائدة في المجتمع الإسلامي، وأن المسلم أخ المسلم في الإيمان والاعتبار وأمام المسؤولية.

ووصية عمر رضي الله عنه لمن يخلفه - وهو مصاب بإصابته - تدل أيضاً على عدم وجود نزعة نحو «التفرقة العنصرية» يستلهم منها المسلمون اتجاهاتهم في الحياة تدل على أن الإسلام بمبادئه الانسانية لم يزل صاحب السيادة.

فيروى: أن بعض الرجال أستأذنوا في الدخول عليه رضي الله عنه فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين.. استخلف.. قال:

«ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذي توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راضٍ عنهم».

«فسمى علياً» و«عثمان» و«الزبير» و«طلحة» و«سعداً» و«عبد الرحمن» وقال: «يشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شيئاً».

«فإن أصابت الامرة سعداً» فهو ذاك. وإلا فليستعن به أيكم ما أمر فإني لم أعزله عن عجز، ولا خيانة».

ثم قال: أوصى الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين: أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم.

وأوصيه بالأنصار، الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم، أن يقبل من محسنهم وأن يعفوا عن سيئاتهم.

وأوصيه بأهل الأمصار خيراً. فإنهم ردء الإسلام، وجباة المال، وغيظ العدو وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم، عن رضاهم.

وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام: أن يأخذوا من حواشي أموالهم، ويرد على فقرائهم.

وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله: أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم...

فإن وصيته رضي الله عنه هنا بجميع طوائف المؤمنين وأهل الذمة في الأمة لا تدل فقط على حنكة في التجربة السياسية. وإنما أيضاً تدل على السمو فوق القبلية والعنصرية.

لأنه رضي الله عنه فيما يعلل به وصيته لكل طائفة يذكرها بفضلها في الإسلام، وفضل إسهامها في قوة الأمة وخيرها.

بعد وفاة الرسول عليه السلام:

والرسول عليه السلام صاحب التبليغ بالوحي الالهي، وصاحب الرسالة، والدعوة إليها، وصاحب التطبيق الجاد والصادق لمبادئها في حياته. ولذا كان قوله حجة وتطبيقه حجة كذلك. ومن ثم كانت قدوته قدوة حسنة، يجب على المؤمنين برسالته أن يتبعوها.

وكما رأينا في القرآن الكريم: أن روح الاسلام روح إنسانية عامة فوق العنصرية والشعوبية.. وأن «لا إله إلا الله».. هو شعارها والله وحده هو معبود الخلق أجمعين.

ولكن إلى متى تظل «العنصرية» بعيدة عن مجال الحياة الإسلامية التي سادت فيها القيم الانسانية:

هل انتهت الروح «العنصرية» من نفوس المؤمنين وقلوبهم، وهم عرب لهم قبائلهم، أو عجم لهم تاريخهم وحضارتهم؟ أم كبتت هذه الروح وترسبت في العمق وتظل مترسبة إلى حين؟ حتى إذا ضعف غطاء الإيمان بالله ابتدأت تعلوا على السطح إلى أن يبدو أثرها في السلوك والمواقف، ثم في الفرقة والاختلاف بين الطوائف والجماعات في الأمة؟.

بعد وفاة النبي عليه السلام أراد الأنصار أن يؤمّروا «سعد بن عباده»

وقالوا للمهاجرين: منكم أمير ومنّا أمير - أي من الأنصار - وهذا رجوع بالروح الاسلامية العامة إلى الروح القبلية.

ومنا أمير. . ومن الخزرج أمير.

فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه: سمعت رسول الله عليه السلام يقول:

«الأئمة من قريش» فيبقى على الاعتزاز بقريش. فكان القرشيون أهل زعامة وثنية على عهد الكهان، وليبقوا كذلك أهل الامامة في الاسلام.

ويروي ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يزال هذا الأمر (وهو الإمارة) في قريش ما بقي منهم إثنان. . وهذا وذاك من الأحاديث التي يجب أن تكون موضع نظر للمؤمنين.

فأبو بكر وابن عمر - وهما من أجلّاء الصحابة - يحدثان المؤمنين بما ينسب للرسول عليه السلام من وقوفه بالإمامة أو الخلافة في قريش وحدها.

ويستمر الرأي بوجوب كون الإمام من قريش وحدها فترة أخرى من الزمن بين المسلمين كما يذكر البذودي[1] فيقول يجب أن يكون الامام أفضل علمًا وتقوى وشجاعة ونسباً، ويجب أن يكون من قريش، وهو قول أهل القبلة، واستناداً إلى حديث أبي بكر السابق «الأئمة من قريش». . وإلى أن الصحابة أجمعوا على خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، ولم يكونوا من بني هاشم.

ثم تقوم آراء أخرى معارضة لهذا الرأي:

يقولون: يجب أن يكون من بني هاشم، ولا يجب أن يكون من قريش لأنهم أنصار لعلي رضي الله عنه.

---

(١) مسألة ٦٠ ص١٨٧.

والمعتزلة عامة يرون: أنه يجب أن يكون تقياً عالماً بكتاب الله، ولا يجب أن يكون من قريش.

والخوارج يرون أنه يجب أن يكون من غير قريش، ويوجهون رأيهم بأن الإمام قد يظلم وقد لا يمتنع عن المعاصي فتقع الحاجة إلى عزله. فإن كان قرشياً يكون ذا تبع كثير فلا يمكن عزله، فيؤدي إلى فساد العالم. فيجب أن يكون من غير قريش حتى يمكن عزله.

وبعد الخلفاء الأربعة قال: «أبو بكر الأصم» من المعتزلة، وبعض الخوارج: إنه لا يجب أن يكون هناك إمام بل يجب على الناس أن يعملوا بكتاب الله تعالى ففيه الكفاية عن الإمام.

والرأي الآن في ذلك الوقت بين المسلمين في شأن الإمامة:

يجب أن يكون هناك إمام. ولكن هل يجب أن يكون من قريش؟ أو من بني هاشم؟

أو يجب أن لا يكون هناك إمام اكتفاء بالعمل بكتاب الله؟

إن اختيار قريش أو بني هاشم مؤهلاً للامامة الكبرى لا يخلو من نزعة قبلية.. وإن القول بإلغاء الإمامة والاستعاضة عنها بكتاب الله يدل على كراهية للإنتماء إلى أمية.

قبيلة في اختيار الإمام وكراهية الانتماء إلى القبيلة عند اختيار الإمام تدل على البغض الأعمى للعرب، وللمسلمين جميعاً. فرأيهم تصاحبه الفوضى في التطبيق وتفكك المسلمين في الاتجاه والتوجيه معاً.

والمجتمع الاسلامي هو مجتمع إنساني. على معنى أنه يأخذ بالقيم الانسانية العليا في السلوك، والمعاملات والمواقف. وقمة تطوره هو بلوغه في الأخذ بهذه القيم بلوغاً يوصله إلى المستوى الرفيع في الانسانية. فإذا ابتدأ يضعف أخذ في التنازل عن بعض هذه القيم الانسانية العليا شيئاً فشيئاً..

حتى يصل إلى صفة المجتمع المادي وهي صفات الجاهلية. وكلها تدور في فلك الاقتصاد وتمجيده.

وبعض «الأنصار» كان يروي في قول الرسول عليه الصلاة والسلام لأبي سفيان عندما اشتكى من هلاك قريش في فتح مكة:

«من دخل دار سفيان فهو آمن. ومن ألقى السلاح فهو آمن. ومن أغلق بابه فهو آمن».. عاطفة خاصة وميلاً خاصاً من الرسول عليه السلام نحو عشيرته ورغبة في قريته وهي مكة.

وقد أجاب الرسول عليه السلام على هذا التصور عند الأنصار بقوله:

«هاجرت إلى الله وإليكم. فالمحيا محياكم والممات مماتكم». وبهذا الجواب ضعفت النزعة إلى «العشيرة» وهي ولا شك نزعة «عنصرية». ومع ذلك فاللمحات القبلية أخذت تظهر في التوجيه، كما تظهر في الحديث والمحاورة. وإن كان شأنها لم يكن ذا خطر على الأمة إذ ذاك.

وحديث حذيفة رضي الله عنه:

«كان الناس يسألون رسول الله عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني فقلت يا رسول الله: «إنا كنا في جاهلية وشر (أي كان مجتمعنا مجتمع عادات جاهلية وهي العادات التي يغلب عليها استضعاف الضعيف، وحب المال حباً جماً والاستغناء به والطغيان عن طريقة، وهو مجتمع شر. لأنه يقوم على الأنانية وحب الذات وحدها فجاءنا الله بهذا الخير (وهو الاسلام. والمجتمع الاسلامي مجتمع إنساني يؤثر الروابط الانسانية بين الأفراد على تلك التي تتصل بالمادة وحدها).

«فهل بعد هذا الخير من شر»؟ (أي فهل يذهب هذا المجتمع الخير وهو المجتمع الاسلامي بعد فتح مكة، ويضعف حتى لا ترى فيه إلا العادات الجاهلية من جديد وهي التي تمثل الشر في الانسانية؟).

«قال: نعم (وعلى هذا السؤال يجيب الرسول عليه السلام بأن المجتمع الاسلامي الذي قام منذ الدعوة بمكة، وازدهر وقوي بالمدينة، واشتد أزره وقوي ساعده عند فتح مكة، سيضعف ويزول خيره شيئاً فشيئاً، ويحل بدل الخير فيه: شر هو الذي يصاحب ظواهر المجتمع المادي أو الجاهلي. فالمجتمع الاسلامي القائم عند فتح مكة سيتغير وسيتحول إلى المجتمع المقابل له. وهو المجتمع المادي أو الجاهلي).

«قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال نعم (ويعيد حذيفة نفس السؤال ويجيبه الرسول عليه بنفس الجواب، مما يدل على أن المجتمع البشري لا يبقى على وضع واحد. وإنما هو يتقلب بين وضعين متقابلين. إما أن يكون مجتمعاً إنسانياً تسود فيه القيم الانسانية. وعندئذ يكون مجتمعاً إسلامياً وخير على البشرية كلها. وإما أن يكون مجتمعاً جاهلياً مادياً. وعندئذ يكون شراً على البشرية كلها)»...

وتأسيساً على هذا التحول، وعلى أنه مبدأ إجتماعي إذ اختفت ظاهرة «التفرقة العنصرية» في المجتمع الاسلامي، أي في المجتمع الذي يسود فيه الاسلام والقيم الانسانية العليا فإنها حتماً ستظهر، وربما ستكون في ظهورها قوية في المجتمع المادي أو الجاهلي، إذ آل إليه المجتمع الاسلامي أو الانساني يوماً ما و«التفرقة العنصرية» إذن ظاهرة إجتماعية تسود المجتمع المادي، وتختفي أو تكبت في المجتمع الانساني أو الاسلامي. وهي من الظواهر الواضحة التي يعرف بها اتجاه المجتمع البشري: إن كان نحو المادية.. أو نحو الانسانية.

ولكن بعد وفاته عليه السلام لا يستبعد ظهور إشارات تشير إلى ما كان عليه العصر الجاهلي من أمارات. ومن أهم أماراته «التفرقة العنصرية» فالتفرقة العنصرية ظاهرة المجتمعات المادية أو الجاهلية دائماً. والمجتمعات الأوروبية المعاصرة - مسيحية أو غير مسيحية - وهي مجتمعات

«البيض» تحاول فقط أن تخفي «العنصرية» كأسلوب في الحياة العامة. ولكن أساس نظرة البيض أو الشعوب الأوروبية إلى الملونين أو الشعوب الافريقية والآسيوية، ونظرة عدم المساواة في الخصائص الانسانية وبالأخص العقلية منها. وربما كان استعمار «البيض» للملونين في إفريقية وآسيا في القرن التاسع عشر فترات طويلة، سبباً في تقدير هؤلاء الملونين تقديراً لا يرقى إلى مستواهم هم.

فالبيض يعتبرون «الملونين» متخلفين، ليس في العلم ولا في الصناعة فقط وإنما مع ذلك في الطاقات البشرية، والقدرة على الانجاز، وحل المشاكل والخبرة في شؤون الحياة.

وكثير من الكتّاب الأوروبين ملأوا العالم بصيحاتهم في القرن التاسع عشر عن «ميزات العقل الآري».. ويرونه أنه دون غيره صانع الحضارات البشرية والتاريخ الانساني.

فمن هؤلاء الكتاب Gobineau يؤكد في كتابه: محاولة توضيح عدم المساواة بين الأجناس البشرية في سنة ١٨٥٣ : أهمية العناصر العقلية في علم الأجناس ويشير إلى استخدام التاريخ العالمي. ويذكر أن سقوط الشعوب الكبيرة كان بسبب الاختلاط بين الأجناس التي منها حملة المدنية كالعنصر الآري.

وهو كاتب عاش ما بين ١٨١٦ - ١٨٨٢ وله غير ما سبق من كتاب: «بيان القيم الذاتية للانسان الآري».. وكتاب: «عدم التساوي بين الناس» وله تأثيره على «نيتشه» الفيلسوف الألماني، و«فاجنر» الموسيقي الألماني الكبير وكذلك على Chamberlain الكاتب الانجليزي وصاحب كتاب «القرن التاسع عشر في أهمية العقل الآري[1] في تاريخ المدنية».. وقد عاش هذا الكاتب ما بين ١٨٥٥ - ١٩٢٧.

---

(١) والآري هو الشريف أو السيد، وفق نظر (Gobineau) هو الجرماني الشمالي وأصبح: الألماني أو صاحب القرابة معه في الدم من الأوربيين.

وفي بداية نشأة علم الأجناس كانت تحدد «العنصرية» بأنها اعتقاد بأن الأجناس البشرية بفطرتها تحدد حضارتها. وتنطوي هذه الحضارة عادة على فكرة: أن جنساً خاصاً يتميز على غيره، وأن الحق في أن يحكم الآخرين.

كما كان البعض الآخر يحدد «العنصرية» في علم الأجناس البشرية بمجموعة كبيرة من الناس يرتبط بعضها ببعض عن طريق رباط مشترك عام من خصائص: جسمية وعقلية.. وتنفصل عن غيرها من المجموعات، وتتميز عنها بهذه الخصائص كذلك.

وكانوا يذكرون من علامات الجنس/طول الجسم - وصورة الوجه - وشكل الرأس - ولون العينين - ولون البشرة - ولون الشعر - وفروق الدم.

(Blumanbach) في القرن التاسع عشر كان يحدد العنصريات:

بالعنصر القوقازي.
والعنصر المونجولي.
والعنصر الماليزي.
والعنصر الهندي.

بينما (Cuvier) وهو عالم فرنسي في وراثة الحيوان، وعاش ما بين ١٧٦٩ - ١٨٣٢ - كان يحددها:

بالبيض.
والصفر.
والسود.

وتخصص الأوروبيون في «علم الأجناس» وكتاباتهم الواسعة في «العنصريات» تعطي اهتمامهم الكبير بما يميزون به أنفسهم كصانعي «الحضارة الانسانية».. وحملتها وبالتالي تعطي ما يريدون أن يقولوه

للآخرين غيرهم من البشر وهو : أن على هؤلاء أن يلقوا بالقيادة إليهم زمامها في طوع، حتى لا تنطفىء شعلة الحضارة الانسانية.

والتفرقة العنصرية كاتجاه رسمي اليوم في جنوب افريقيا، وفي روديسيا، هي قائمة في واقع الأمر في الولايات المتحدة الأميركية، وفي الاتحاد السوفيتي الذي يزعم «العالمية» في سياسته فحكام القوقاز وأوكرانيا مثلاً لا بد أن يكونوا من «الروس البيض».

* * *

بعض مقومات الحضارة ونظم الحكم الإسلامية في عهد الرسول صلىّ الله عليه وسلّم

بقلم
الدكتور/ عبد الشافي غنيم عبد القادر
بكلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية
(جامعة قطر)

الحضارة الإنسانية باستمرارية تطورها وتشعُّب دروبها وفروعها لا يمكن أن يتحقق لها ذلك النمو في مختلف الميادين إلا على أكتاف الإنسان ذلك المخلوق الذي ميَّزه الله سبحانه وتعالى على سائر مخلوقاته في قوله تعالى ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً[1]﴾ وقوله في سورة أخرى[2] ﴿ يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم الذي خلقك فسوَّاك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك﴾. والأمر الذي لا شك فيه أن اختلاف التطور الحضاري في أمة من غيرها إنما يرتكز أول ما يرتكز على ما يبلغه هذا الإنسان من تقدُّم علمي وتطُّور منهجي واستيعاب لمختلف العلوم والآداب والفنون وفهم سليم لإمكانية استخدام هذه العلوم في عملية التطوير الحضاري، ولذلك لا نعجب إذا رأينا القرآن الكريم، يرتكز تركيزاً شاملاً ومعجزاً على تربية الإنسان المسلم وإعداده ليحمل الرسالة الإسلامية، ويصل بها إلى أرقى ما وصلت إلييه الحضارة الإنسانية في مختلف أرجاء الأرض شاملة بين طياتها

---

(١) سورة الإسراء الآية رقم ٧٠.
(٢) سورة الإنفطار الآية رقم ٨.

كل الجوانب التنظيمية والسياسية والإجتماعية والإقتصادية والفكرية، في غير تعصُّب أو -استعلاء مستفيدة من كل ما سبقها أو عاصرها من حضارات هاضمة كل الهضم، حتى أصبحت في وقت من الأوقات، المعين الذي تستقي منه الحضارات والمدنيات، وفي مقدمتها الأوروبية الوسيطة والحديثة، والمنهل الذي تغترف من مختلف روافده العلوم التطبيقية والآداب والفلسفة والإجتماع والتاريخ والجغرافيا وغيرها من المواد الإنسانية التي شكلّت أصول الحضارة المعاصرة.

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى، القرآن الكريم على رسول الله صلىَّ الله عليه وسلَّم، موزعاً على مائة وأربع عشر سورة، تضم ثلاثين جزءا، ومائتين وأربعين ربعاً، وبضع وستة آلاف آية كريمة، وثلاثمائة وأربعين ألف وسبعمائة وأربعين حرفاً[1]. نزل بمكة منها سبع وثمانون سورة، ونزل بالمدينة سبع وعشرون سورة، وقد قام رسول الله عليه وسلَّم قبل وفاته بتبويبها وترتيبها وتوزيعها، كما أمره الله سبحانه وتعالى، على لسان جبريل عليه السلام، ولقد حاول بعض المستشرقين المتعصبين إضفاء بعض مظاهر الشك حول هذه الحقيقة التاريخية، مستهدفين في ذلك بذر بذور التشكك في صحته، كما حدث لبعض الكتب السماوية الأخرى، مستغلين في ذلك إختلاف بعض السلف الأولين قبل تدوين المصحف الإمام[2] ممن آثر أن يقدِّم المكي على المدني وقد ردَّ على ذلك كله أبو بكر الأنباري في كتاب الرد بقوله ﴿ إن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا، ثم فرَّق على النبي صلىَّ الله عليه وسلَّم في عشرين سنة، وكانت السورة تنزل في أمر يحدث، والآية جواباً لمستخبر يسأل، ويوقف جبريل رسول الله صلىَّ الله عليه وسلَّم على موضع السورة، والآية فاتساق السور كاتساق الآيات

---

(١) يمكن الرجوع إلى الروايات الواردة في ذلك في القرطبي: الجامع لأحكام القرآن الجزء الأول ص٦٥.

(٢) مصحف عثمان.

والحروف، وكله من محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام عن رب العالمين، فمن أخَّر سورة مقدمة أو قدَّم أخرى مؤخَّرة، فهو كمن أفسد نظم الآيات، وغير الحروف والكلمات، وكان رسول الله صلىَّ الله عليه وسلَّم يقول ﴿ ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن وكان جبريل عليه السلام يوقفه على مكان الآيات[١].

ولعلَّ حرص رسول الله صلىَّ الله عليه وسلَّم، في ألا يحدث للقرآن الكريم ما حدث لبعض الكتب السماويةِ الأخرى، من تغيير وتبديل، أمره لصاحبهته وكتاب الوحي ألا يدونوا غير القرآن، حتى ما كان من أحاديثه صلىَّ الله عليه وسلَّم، مصداقاً لقوله تعالى ﴿ إنَّا نحن نزلنا الذكر وإنَّا له لحافظون ﴾[٢]وذلك هو السر في نقاء القرآن الكريم إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بينما رأينا في الأحاديث النبوية الشريفة، كثيراً من الإدخال والتحريف، ولقد أخطأ بعض العلماء والمستشرقين، ممن تصوروا أن الحضارة الاسلامية لم تظهر مقوماتها الحقيقية إلا بعد الهجرة ناسيين أو متناسين أن الدور المكي في حياته صلىَّ الله عليه وسلَّم قد بذرت فيه البذور الأساسية والأصالية للحضارة الإسلامية ولذلك لا نعجب إذا رأينا سبعاً وثمانين سورة من سور القرآن الكريم قد نزلت عليه صلىَّ الله عليه وسلَّم بمكة وبها عشرات الآيات الكريمة التي تتجه إلى تكوين الإنسان المسلم خلقاً وعلمًا وسلوكاً بهدف التمهيد المنطقي والمنهجي لقيام الحضارة الإنسانية وهو ما تفقده كثير من روافد الحضارة الإنسانية المعاصرة، التي تحاول الآن الحد من خطورة النقص الديني والتربوي والخلقي للإنسان الغربي الذي يوشك أن يدمِّر بيديه كل ما تريده أن تتجه إليه الحضارة المعاصرة لصالح الوجود البشري.

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص٦.

(٢) سورة الحجر آية رقم٩.

إن هذه الثمانين والسبع سور المكية تحتاج إلى دراسات متعمِّقة ومتأنية لأنها تحوي إلى جانب ما تحويه من قدرة الله على الخلق المطلق، وفلسفة وجود الإنسان على هذه الأرض، والجوانب العديدة للحياة البشرية في هذه الدنيا. والآفاق اللامحدودة للحياة الآخرة، بما فيها من ثواب وعقاب، وجنة ونار، تضع أيضاً التوجيهات الإلهية للإنسان في كيفية حياته على ظهر الأرض، في إطار من الإنسانية العامة المتمثلة في قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس إنّا خلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ والمعرفة الإجتماعية التي يريدها الخالق سبحانه وتعالى، تتجه إلى التعاون والتكافل بين الناس لخير الناس أجمعين في ظل المعرفة العلمية، والمشاركة الوجدانية، والعاطفة الإجتماعية، ومن أجل هذا جاءت مليئة بالمقومات الأساسية للحضارة الإسلامية، على اعتبار أن الإسلام خاتم الرسالات السماوية، التي يجب أن يعترف بها الناس جميعاً، على ظهر الحياة في غير إنكار لما سبقها من ديانات كتابية وسماوية.

ننتقل في هذا التعميم إلى شيء من التخصيص، يتناول فلسفة بعض الآيات الكريمة، التي نزلت على رسول الله صلىَّ الله عليه وسلَّم، في فترة الدور المكي، من حياته لتكوين المسلم الحضاري المحصَّن تحصيناً خلقياً وسلوكياً وروحياً وعلمياً وإجتماعياً وفكرياً للابتكار والإبداع في صنع الله سبحانه وتعالى والتمهيد لحضارة إسلامية شامخة تتناول مختلف جوانب الحياة.

أولاً - الوحدانية والتكوين الحضاري للشخصية المسلمة:

الوحدانية ركن أساسي من أركان الإسلام الخمسة، المعروفة، وهي ليست مقصودة بذاتهاللاعلاء من قدرة الله وعظمته، لأنه سبحانه وتعالى غني عن كل هذا، وإنما تستهدف الآيات التي نزلت بشأنها ، إلى إعلاء قدر الانسان نفسه، حتى يثق بنفسه، ويتأكد من أنه خير مخلوقات الله على الإطلاق، فالسجود للأصنام أو الأوثان أو الأزلام فيه إنقاص من عزة الإنسان، وإهدار لكرامته، وكيف يستطيع مفقود العزَّة والكرامة، أن يسعى

لتأصيل أي معنى من المعاني الحضارية في نفسه، ولذلك كان نزول عشرات الآيات التي تفرد الله سبحانه وتعالى بالوحدانية. بالإضافة إلى غيرها من الآيات الكريمة، التي تعترف بفضل الإنسان على سائر مخلوقاته، أول ركن من أركان إيجاد الشخصية الحضارية للإنسان المسلم.

أنظر إلى قوله تعالى في سورة الإخلاص ﴿ قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد[1] ﴾. وقوله تعالى في سورة النجم عن الأصنام والأوثان ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾[2] وقوله تعالى ﴿ولا تجعلوا مع الله إلها آخر﴾[3] وقوله تعالى ﴿ قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض ﴾[3] وقوله تعالى﴿ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ﴾[4] وقوله تعالى ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾[5].

هذا قليل من كثير من آيات الله البينات التي تفرد عظمته بالوحدانية حفاظاً على كرامة الإنسان ورفعاً لجبهته أن تسجد لما هو أقل منه وجوداً من مخلوقات الله العديدة.

إذا انتقلنا بعد ذلك إلى الآيات الكريمة التي يكرم الله فيها البشر تكريماً تعتزّ به الآلإنسانية قوله تعالى ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾[6]

(١) آية من ١-٥.
(٢) سورة الطور آية٥١.
(٣) سورة المائدة آية رقم١٤.
(٤) سورة الحشر آية رقم٥٦.
(٥) سورة الحشر آية رقم٧٦.
(٦) سورة الإسراء آية رقم٧٠.

وقوله تعالى في سورة غافر ﴿ وصوَّركم فأحسن صوركم ﴾[1] وقوله تعالى ﴿ يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم الذي خلقك فسوَّاك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك ﴾[2].

وهكذا نرى رسول الله صلىَّ الله عليه وسلَّم في فترة الدور المكي، يحرص أول ما يحرِص على تكوُّن الكرامة الذاتية للإنسان، ليس بمجرد القضاء على كل ما يهدر كرامته وآدميته، من عباده وسجوده لمصنوعات أو مخلوقات اعترف القرآن الكريم بأنها أدنى منزلة ومقاماً من الإنسان، وإنما بتكريم وتقدير مباشر من الله سبحانه وتعالى للشخصية الإنسانية وتفضيلها على سائر المخلوقات.

وليس من شك في أن كل نظريات التربية الحديثة ابتداء من الطفولة إلى الشيخوخة تتجه إلى تحقيق هذه المعاني في الفرد، كمرحلة من مراحل التكوين الحضاري للإنسان، ولا يمكن أن يطلب إنسان الحرية لنفسه ولغيره إلا إذا كان هو في أعماق نفسه مؤمناً بكيانه واثقاً من شخصيته، وما الثورات السياسية المختلفة في تاريخ الإنسانية إلا انطلاقاً من هذا الواقع الذي يرفض فيه الإنسان السيطرة والجبروت والطغيان حتى ولو كانت من إنسان مثله ملكا كان أو أمبراطوراً أو حاكمًا.

لقد استطاع محمد صلىَّ الله عليه وسلَّم من مدرسته الأولى في دار الأرقم بن أبي الأرقم، أن يكوّن رجالاً من نوع جديد، يفهمون حقيقة وجودهم في غير أفضلية ولا تمييز إلا للخالق الباري المصوِّر له الأسماء الحسنى، ولذلك رأينا العبيد يقولون «لا» في وجوه أسيادهم لأنهم أصبحوا يشعرون أمام سيادة الخالق ووحدانيته أنهم أحرار فيما يعتنقون، ومن هنا

---

(١) آية رقم٦٤.

(٢) سورة الإنفطارآية رقم٨.

كان تقبُّلهم لكل ما يلاقون ابتداء من التعذيب والتنكيل والإضطهاد إلى الهجرة في سبيل الله تاركين بيوتهم وأولادهم وأموالهم.

ثانياً - الجوانب الخلقية والسلوكية كعامل في تكوين الشخصية الحضارية المسلمة:

أكثر ما تعانيه الحضارة المعاصرة على الرغم من تطوّرها وتفوّقها والسرعة المذهلة التي تجتازها، الشعور العام بالشقاء الإنساني، والإشمئزاز المطلق من الإنحرافات الخلقية والسلوكية، التي كادت تصبح طابع هذه الحضارة، والخوف من الدمار المستقبلي للانسانية، بسبب انعدام الضمير، وفقدان الجوانب السلوكية والخلقية عند كثير من الشعوب المتعالية، إلى حد التهام حق الضعيف، وإستغلال قدرات وطاقات وإمكانيات المغلوبين على أمرهم، كل ذلك نتيجة للطفرة المادية، التي لم تواكبها أو تسبق الإنضباطات الخلقية والسلوكية، وهو ما لم نجده عند النبي محمد صلى الله عليه وسلّم الذي كان يؤمن بأن رسالته لكل أهل الأرض قاطبة، وإن الرسالة سوف يكون لها تطورها الروحي والديني والعقيدي والسـ الإجتماعي والإقتصادي، أو بمعنى أشمل تطورها الحضاري الهاد جوانب الحياة، مبتدئاً بالفرد في الأسرة فالعلاقة بين البنوة والأبوة والأ فعلاقة الجيرة، فالعلاقات العامة بين المسلمين وبعضهم في حياتهم الخاصة والعامة، ومعاملاتهم إلى غير ذلك من الأمور التي كانت تقتضيها النظرة الشاملة في هذه الفترة.

أنظر إلى قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾[1] وقوله تعالى ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون﴾[2]

---

(١) الآية رقم٢٤.

(٢) سورة النحل آية رقم١٠٥.

وقوله تعالى لنبيه ﴿إدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[1] وقوله تعالى ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾[2] وقوله تعالى ﴿ولا تمشي الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾[3] وقوله تعالى ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾[4] وقوله تعالى ﴿إدفع بالتي هي أحسن السيئة﴾[5] .

كما يصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين المسلمين بأربع صفات في سورة «المؤمنين»

١ - الذين هم في صلاتهم خاشعون.

٢ - الذين هم عن اللغو معرضون.

٣ - الذين هم للزكاة فاعلون.

٤ - الذين هم لفروجهم حافظون.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة القصص ﴿وإذا سمعوا اللغو ...وا عنه﴾[6] وحين ينصح لقمان إبنه يقول له ﴿يابني أقم الصلاة وأمر ...وف وانه عن المنكر وأصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ولا ... خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخوراً وأقصد في مشيك واخفض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير[7] وقوله تعالى ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة إدفع بالتي هي أحسن

---

(١) نفس السورة رقم١٢٥.

(٢) الإسراء رقم٣٢.

(٣) الإسراء رقم٣٧.

(٤) الإسراء رقم٥٣.

(٥) المؤمنون٩٦.

(٦) آية رقم٥٥.

(٧) سورة لقمان (١٧-١٩).

فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (١) وقوله تعالى ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ (٢) وقوله تعالى لرسوله ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ (٣) وقوله تعالى ﴿لا تطع كل حلّاف مهين همّاز مشاء بنميم، منّاع للخير معتد أثيم، عتل بعد ذلك زنيم﴾ (٤).

تلك هي بعض الآيات التي نزلت على رسول الله في الدور المكي، بهدف تقويم الجوانب الخلقية للإنسان المسلم، ولم تكن هذه التوجيهات الخلقية حتى التي وجه منها إلى رسول الله صلىّ الله عليه وسلّم - عديمة المغزى في هذه الفترة الهامة من فجر الدعوة، وإن الذي يتمعّن تماماً في هذه الوصايا الخلقية، يمكن أن يكوّن لنفسه خلفية حضارية واضحة قد تفسّر له كثيراً من النواحي المختلفة في تاريخ المسلمين بوجه عام والحضارة الإسلامية بوجه خاص.

إذا انتقلنا من هذه التوجيهات الموجهة إلى الف
الخلية الأولى في أي مجتمع، إلى علاقات البنوة بالأبو
أن يكون عليه الأمر بين الولد ووالديه، ليس فقط
الوفاء بالوالدين وإنما يهدف تدعيم كيان الأسرة المسلمة.
مراحل قيامها، لأن الذي يعق والديه يمكن له بعد ذلك: ـسر
يكون العقوق صفة من صفاته، سواء بالنسبة لمجتمعه، أو لوطنه، ومن هنا كانت الآيات المكية في هذه الفترة مليئة بتوضيح وهذا الجانب الهام من جوانب الحياة الحضرية.

أنظر إلى قوله تعالى ﴿ووصيّنا الإنسان بوالديه إحساناً، حملته أمه

---

(١) سورة غافر آية ٣٤.
(٢) الأحقاف ٥١٥.
(٣) سورة القلم ٦٤.
(٤) سورة القلم ٨-١٤.

كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشدَّه وبلغ أربعين سنة قال ربي أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وان أعمل صالحاً ترضاه﴾[1] وقوله في سورة العنكبوت ﴿ووصَّينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ وقوله تعالى في سورة الإنعام ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ وقوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً أما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾[2]. ثم تخرج توجيهات الرسول في الفترة المكية من الحيز الضيّق الأسرى إلى المحيط الأوسع، ويتلقى من ربه الكريم ما يوجه به أصحابه إلى الأفق الأرحب، فيما يجب أن تكون عليهاالعلاقات في المجتمع الإسلا[illegible] الجديد، ناسخاً بذلك كثيراً من القيم والعادات [illegible] كانت تمارس في إطار الطبقية الظالمة، وفي ذلك يقول [illegible] الأنعام ﴿ولا تقرّبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، [illegible] حرَّم الله إلا بالحق﴾[3] وقوله تعالى في نفس السورة [illegible]تيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدَّه﴾[4] وقوله [illegible]ف ﴿قل إنما حرَّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن [illegible] الحق﴾[5] ويخاطب الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل في سورة الأعر[illegible] أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾[6] وقوله في سورة النحل ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها﴾[7] وقوله تعالى في

---

(١) الأحقاف (١٥).

(٢) آية رقم١٥١.

(٣) آية رقم١٥٢.

(٤) رقم٣٣.

(٥) الأعراف ١٤١.

(٦) آية رقم٩١.

(٧) آية ٩٧.

مكان آخر من نفس السورة ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾[1] ثم يهدد الله سبحانه وتعالى الأغنياء من السادة والمترفين الذين يتجبرون في البلاد والعباد بقوله ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾[2] وقوله تعالى في سورة فاطر ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾[3] وقوله في سورة غافر ﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾[4] وقوله في سورة الهمزة ﴿ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالاً وعدده يحسب أن ماله أخلده﴾[5].

ثالثاً - التوجيهات المكية للمجتمع الإسلامي من السابقين إلى الإسلام:

إهتم الإسلام إهتماماً كبيراً بالعلاقات الإجتماعية للمجتمع في فترة الدور المكي لأكثر من سبب:

أولاً: لأن رسول الله صلَّ الله عليه وسلَّم بما فطره عليه من سعة أفق وذكاء، كان يعلم أنه يعيش فترة فجر الدعوة، بين قدوة المسلمين من السابقين إلى الإسلام، وبقدر ما تنجح هذه المدرسة الإسلامية في إعطاء القدوة السلمية للآخرين بقدر ما يتأثر به المجتمع الإسلامي الشامل فيما بعد، وأكبر دليل على ذلك أن هذه النخبة الأولى من السابقين إلى الإسلام ظلت طيلة حياتها قبلة أنظار المسلمين جميعاً، يقتدون سلوكهم ويسمعون عنهم ويتأسون بأعمالهم.

---

(١) آية ٩٧.

(٢) سورة الإسراء آية رقم١٦.

(٣) من ١٩-٢٢.

(٤) آية رقم٤٠.

(٥) الآية من ١-٣.

ثانياً : كان رسول الله صلىَّ الله عليه وسلَّم، يعلم أن أية حضارة إنسانية لا يمكن أن تتم إلا في إطار مجتمع سليم في تصرفاته، متكافل في علاقاته، حريص على صدق القول والفعل والعمل، ومن هنا امتلأت آيات السور المكية في فترة الدور المكي، بالتوجيهات الإجتماعية حتى وصلت إلى النهي عن الغش في المكاييل، والموازين، ولغو الحديث، وأكل حقوق الأرامل والأيتام، إلى غير ذلك من الأمور التي أراد الإسلام أن ينقي منها مجتمع القدوة من السابقين إلى الإسلام، ولعلَّ ذلك كان من بين الأسباب التي فضَّل بها الله بعد ذلك (في السور المدينة) المهاجرين السابقين إلى الإسلام المضحين بكل غال ورخيص على غيرهم، لأنهم جمعوا بين تعاليم وتوجيهات الفترتين المكية والمدينة، فكانوا بذلك أساتذة المدارس الإسلامية في كل مكان وزمان، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى ﴿ ويل للمطففين الذين، إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ﴾[١] وقوله في سورة الإسراء ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾[٢] وقوله تعالى في سورة الشعراء ﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾[٣].

ويتوخَّى القرآن الكريم في السابقين إلى الإسلام البعد عن الإفتراء والكذب، يقول تعالى ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴾[٤] وقوله في سورة القصص ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾[٥] ولما كان الإسلام يعتبر الكذب من كبائر الاثم نزل قوله

---

(١) سورة المطففين (من١-٥).
(٢) آية رقم٣٥.
(٣) آية رقم ١٨٣.
(٤) سورة النحل ١٠٥.
(٥) آية ٥٥.

تعالى في سورة الشورى ﴿ والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ﴾[1] ونحن لا نستطيع أن نحصي عشرات الآيات الكريمة التي كانت تستهدف تنقية المجتمع الإسلامي، من آفة الكذب لما تجرُّه على الشعوب من مخاطر إجتماعية ليس أقلها النفاق، والرياء، وشهادة الزور، وأخذ الناس بالبطل، مما يؤدي إلى فقد الثقة وتفتيت وحدة المجتمعات ولذلك لا نعجب إذا رأينا رجلاً كأبي بكر الصدّيق يفتتح حديثه أمام المسلمين غداة تسلُّمه الخلافة في خطابه العميق الذي قال فيه ﴿الصدق أمانة والكذب خيانة﴾.

أما أكل حقوق الأرامل واليتامى، فقد اهتمت به الآيات المكية في أكثر من موضع لأنه كان من العادات الشائعة في مجتمع ما قبل الإسلام، يقول سبحانه وتعالى في سورة الأنعام[2] ﴿ولا تقربوا مال اليتم إلا بالتي هي أحسن، حتى يبلغ أشدَّه، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ وقوله تعالى في سورة الأعراف ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق﴾[3] وقوله تعالى في سورة النحل ﴿إن الله يأمر بالعدل والأحسن وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾[4] ﴿وأي منكر أشد وأنكى من الإجحاف بحقوق الأرامل واليتامى ، وقوله تعالى في سورة الشعراء ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾[5] وقوله تعالى في سورة المعارج ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾[6] وقوله تعالى في سورة الفجر ﴿كلا بل لا تكرمون اليتميم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حباً جماً﴾[7].

---

(١) آية رقم٣٧.
(٢) آية رقم١٥٢.
(٣) آية رقم٣٣.
(٤) آية رقم٩٠.
(٥) رقم١٨٣.
(٦) رقم٣٢.
(٧) من ١٧-٢٠.

لقد أراد الإسلام منذ فجر الدعوة أن ينقي المجتمع الإسلامي من كل الشوائب التي تفت في عضده أو تضعف من جهده وما أظن أن كتاباً آخر سماوياً كان أوضعياً قد مسَّ هذه الأمور الهامة بالصورة التي مسَّها به القرآن في السور المكية تارة في صيغة الأوامر والنواهي وتارة في صيغ التعجُّب والإستغراب وأخرى في صيغ التحقير والإزدراء.

بمثل هذه القيم الإجتماعية خاض المسلمون معاركهم الكلامية ومعاركهم العسكرية ومعاركهم الحضارية والتنظيمية فخضعت لهم الفلسفات والعقائد السالفة وتكسرت تحت أقدامهم مختلف وسائل الأسلحة والتحمت بثقافاتهم الثقافات والحضارات السابقة واللاحقة.

رابعاً - الدعوة إلى العلم والعمل وتسخير كل مخلوقات الله لخدمة الحضارة الإنسانية:

يذكر أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي صاحب الكتاب الكبير[1] نقلاً عن ابن الطيِّب أن أول ما نزل من القرآن الكريم ﴿إقرأ بسم ربِّك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم، الذي علَّم بالقلم ، علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾.

وكان علي بن أبي طالب قبل الإتفاق على المصحف الإمام يضع هذه الآية المكية في أول مصحفه، وعيّ كما هو معلوم من كتاب الوحي وإنْ دلَّ ذلك على شيء فإنما يدل على أن الله سبحانه وتعالى وهو أعلم العالمين أراد أن يبدأ رسول الله صلىَّ الله عليه وسلَّم رسالته بالقراءة والعلم، ووسيلة الإنسان في ذلك التعلُّم الذي جعله الله سبحانه وتعالى أداة في يد الإنسان المسلم ليتعلَّم بقدرة الله ما لم يكن يعلم ومن هنا لا نجد في أية ديانة من الديانات السابقة على الإسلام من انكبوا على القراءة والعلم والتعلُّم قدر ما

---

(١) الجزء الأول طبعة دار الكتب المصرية ص٥٩ في باب ما جاء في ترتيب سور القرآن وآياته.

رأيناه من علماء المسلمين سواء أولئك الذين نهجوا مذهب (القول بالمأثور) من الملتزمين بالكتاب والسُّنة وهم أصحاب المنهج المدرسي أو أولئك الذين نهجوا مذهب (الأخذ بالرأي) من أصحاب المنهج الفلسفي - وبلغ ما ألفه أو كتبه بعضهم ما يتوقف على المائة مؤلَّف بالدرجة التي أثرت في الحضارة الإسلامية وما زالت تثري الحضارة الإنسانية بزاد لا يتـوقف ومعين لا ينضب.

وآيات الله الكريمة التي نزلت على رسول الله صلىَّ الله عليه وسلَّم في فترة الدور المكي مليئة بالدعوة إلى العلم والسخرية من الجهل وتسخير كل ما في الأكوان لخدمة الإنسان أنظر إلى قوله تعالى في سورة غافر[1] ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ وليس القصد من هذه الآية الكريمة منطوقها اللفظي بقدر ما تتجه إلى توضيح البون الشاسع بين غير المتعلم والمتعلم، ولذلك يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله بقوله ﴿سـ ـئك فلا تنسى﴾[2] وقوله في سورة النحل ﴿ضرب الله مثلاً رجلين أحـ ـا أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ـ يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾[3] وقوله تعالى في سورة خاطـر ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾[4] وقوله تعالى ﴿أفمن يعلم كمن لا يعلم﴾ كما يحذِّر الله سبحانه وتعالى رسوله من مجانبة العلم فيما يعمل فيقول له آمراً ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾[5].

---

(١) آية رقم٥٨.
(٢) آية رقم٦.
(٣) آية رقم٧٦.
(٤) ماية رقم١٩-٢٢.
(٥) الإسراء آية رقم٣٦.

ولقد أمر الله رسوله أن يسخر العلم في خدمة الإنسان وبذلك يحسم قضية طال الجدل من حولها، هل العلم للعلم أو العلم للمجتمع، وعلى الرغم من أن الدنيا ليست دار قرار واستمرار والآخرة هي دار البقاء والخلود إلا أن الله سبحانه وتعالى يوجه الناس عن طريق رسوله بقوله تعالى ﴿وابتغ فيما آتيك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا﴾(١).

وهنا تبدو عظمة إله القادر وهو يدعو السابقين إلى الإسلام في فترة الدعوة المكية إلى التدبر في عظمة خلقه والإفادة من كل ذلك في عشرات الآيات والسور فيقول سبحانه وتعالى ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً، فامشوا في مناكبها﴾(٢) هنا نجد الدعوة إلى العلم والتعلُّم والإفادة من كل ما خلق الله، والسعي في العمل خاصة حين تستكمل الآية بقوله تعالى ﴿وكلوا من رزقه﴾ وهنا تتعدد الآيات الداعية إلى العلم والعمل كقوله تعالى ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾(٣) وقوله عن أصحاب الأيكه ﴿كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً﴾(٣) وقوله تعالى في سورة يونس(٤) ﴿وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخّر لكم الأنهار﴾ وهي دعوة واضحة ليتعلَّم الإنسان كيف يستفيد من البحار في تنقلاته وتجارته ومختلف إتصالاته وكيف يستفيد من الأنهار في زراعة الأرض واستغلال سر الله سبحانه وتعالى فيها خاصة حين يقول سبحانه وتعالى ﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون والأعناب ومن كل الثمرات﴾(٥) ولما كانت الأنهار لا تشكّل المصدر الوحيد للزراعة رأينا الله سبحانه وتعالى يقول في آية أخرى ﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر وفيه تسيمون﴾(٦) ويربط الله سبحانه

---

(١) سورة القصص آية رقم٥٥.
(٢) سورة الملك آية رقم١٥.
(٣) سورة الحجر ١٩.
(٤) آية رقم٨٢.
(٥) آية رقم٣٢.
(٦) سورة النحل رقم١١.

وتعالى نزول الأمطار بظاهرة الرياح فيقول عزَّ من قائلٍ ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء﴾ كل ذلك قبلْ أن يتضح علم الجغرافيا ويتعرّف الجغرافيون على حقيقة ارتباط إتجاه الرياح وإصطدامها بالجبال مما يؤدي إلى سقوط الأمطار ونشأة الأنهار وتتوالى آيات الله المكية في تسخير كل شيء للإنسان تنشيطاً لعقله وفكره وتطويراً لعمله فيقول ﴿وسخَّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخَّر لكم الليل والنهار﴾[1] ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾ [2] ﴿وسخَّر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم﴾[3] وهو الذي سخَّر البحر لتأكلوا منه لحمًا طرياً وتستخرجوا منه حليه تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه وتلك دعوة إلى صيد البحر والغوص واستخراج ما به من لؤلؤ يتحلىً به الإنسان وقوله تعالى ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلَّكم تهتدون وعلامات والبنجم هم يهتدون[4]﴾وهنا نجد مبادىء علوم الجغرافيا والفلك.

وحتى علم الرياضيات علَّمه رسول الله لصحابته بعد نزول الآية المكية الكريمة ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾ ومن هنا كان التقويم الزمني الإسلامي ومبادىء الرياضيات وقوله تعالى ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار .. وكل في ذلك يسبحون﴾ [5].

وبعد فإن هذه العجالة القصيرة لا يمكن أن تتسع لذلك الفيض من المعلومات التي يمكن أن يستخلصها الباحثون في سور الله الكريمة وآياته

---

(١) نفس السورة رقم ١٠.
(٢) يونس ٣٢، ٣٣.
(٣) سورة النحل .
(٤) سورة النحل ١٢.
(٥) يس ٣٧.

البيِّنات التي نزلت على رسول الله صلىَّ الله عليه وسلَّم في مكة المكرَّمة وكانت المعين الأصيل الذي اغترف منه السلف الأول من السابقين إلى الإسلام وأبناء المدرسة الأولى التي تخرَّج منها أساتذة الفقه والشريعة والحضارة الإسلامية وكان منهم الأئمة في كل مجال وميدان.

دعائم ومقومات نظام الحكم الإسلامي في عهد الرسول بعد الهجرة:

لقد كانت هجرة الرسول صلىَّ الله عليه وسلَّم من مكة إلى المدينة، ليست مجرَّد حدث هام بين فترتين، أو حدًّا فاصلاً بين عهدين، أولهما يتسم بالنبوة والدعوة الخالصة وثانيهما يتصف بالنبوة والدعوة والدولة معاً، وإنما كانت هجرته صلىَّ الله عليه وسلَّم حدثاً تاريخياً ونضالياً وتنظيمياً وحضارياً إلى أبعد الحدود.

لقد كان الدور المدني زاخراً بالتطورات الواضحة في مختلف الميادين العقيدية والسياسية والتنظيمية والإقتصادية والفكرية، استكمالاً للأسس الراسخة الأولى التي أرساها رسول الله صلىَّ الله عليه وسلَّم في فترة الدور المكي.

وقد واجه الرسول في دولته الجديدة عدة مشكلات وقضايا هامة، كان على رأسها أربع قضايا:

(أ) قضية الوحدة العقيدية والتكافلية بين المهاجرين والأنصار.

(ب) قضية الوحدة الوطنية لمجتمع المدينة.

(ج) قضية الجهاد في سبيل الله ضد المعتدين.

(د) قضية تفصيل ما سبق إجماله من تشريعات في الدور المكي بالسور والآيات المدنية الكريمة.

وليس من شك في أن هذه الموضوعات تحتاج إلى مجلدات كبيرة يعجز

عنها ذلك البحث المحدود ولذلك فسوف تقتصر على إبراز قدرة رسول الله التنظيمية في مواجهة المشكلتين الأوليتين وكيف إستطاع رسول الله صلىّ الله عليه وسلم أن يحقق هذين الهدفين وهما الوحدة العقيدية والوحدة الوطنية الإسلامية من خلال أول صحيفة وضعها لمجتمع المدينة أوردها ابن هشام في كتابة سيرة رسول الله صلىّ الله عليه وسلّم وهاك نصها[1].

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي (صلى الله عليه وسلّم) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة ومن دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم[2] يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم[3] بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى[4] وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين[5].. ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى وسيعه[6] وظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان أحدهم، ولا يقتل مؤمن في كافر ولا ينصر كافر على مؤمن وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناها، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والاسرة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم وإن سلّم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل وبينهم وإن كل غازية

---

(١) السيرة لأبن هشام الجزء الثاني من ص٩٤-٩٨.

(٢) عن بكرة أبيهم.

(٣) أسيرهم.

(٤) البعض يعنيهم بالأنصار وآخرون يعنوهم بأهل المدينة ونحن نميل للرأي الثاني لأكثر من سبب أولاً لأن الصحيفة نفسها ذكر يهود بني عوف وثانياً لأن الرسول كان يشرك اليهود مع الأنصار في افتداء أسرى الأنصار من المسلمين إلى الحروب.

(٥) أو كما كانوا يفعلون من قبل في افتداء أسراهم.

(٦) طبيعة.

غزت معنا تعقب بعضها بعضاً وإن المؤمنين يبيء[1] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجيرّ مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه ودٌّ به إلى أن يرضي ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه وإنه لا يحل لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم والآخر أن ينصر محدثاً لا يؤويه وإنه من نصره أو آذاه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة . . وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد (صلىٌ الله عليه وسلّم) وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشـ[illegible] يخاف فساده فإن مردّه إلى الله عزَّ وجلَّ وإلى محمد رسول الله [illegible]ه عليه وسلّم وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وابره وإنه لا [illegible] [illegible]ريش ولا من نصرها وإن بينهم النصر على دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين على كل أناس من حصتهم من جانبهم الذي قبلهم . .

لقد كانت أول مشكلة واجهت رسول الله صلىٌ الله عليه وسلّم مشكلة المهاجرين من مكة الذين أخذوا يتوافدون على المدينة بعد الهجرة تاركين من خلفهم كل شيء من مال ومتاع وولد، وكان على رسول الله أن يجابه ذلك الموقف المؤقت على ما فيه من خطورة وحساسية فبدأ بما يعرف في التاريخ الإسلامي بالمؤاخاة حين كان يأتي بمهاجر من المهاجرين ليضع يده في يد أنصاري من الأنصار أن يكون له أخاً وعوناً وساعداً وكفيلاً ولقد تقبّل الأنصار المؤمنون ذلك بصدر رحب ندر أن يوجد مثله في التاريخ

---

(١) يرجع.

خاصة وإن المهاجرين أخذوا يتوافدون تباعاً ليلحقوا برسول الله في المدينة وبلغ من شدَّة إخلاص الأنصار لدينهم وحبهم لنبيِّهم أنهم طالبوا بتوريث المهاجرين بل أن بعضهم من أراد أن يقتسم نساءه بمقتضى الشريعة والحق ولكن المهاجرين الذين كانوا يدركون حساسية الموقف أخذوا يعملون بكل جد وإخلاص لكفالة أنفسهم كي لا يظلوا عالة على إخوانهم الأنصار وكانت الأحداث المتتابعة تشارك في حل هذه المشكلة خاصة وإن الأنصار قبلوا بما عرضهم الرسول عليهم من إختصاص المهاجرين بجزء من أموال اليهود الذين نقضوا عهودهم مع المسلمين واضطروا للجلاء عن المدينة وانتهت المشكلة نهائياً بغزوة الفتح وعودة المهاجرين إلى ديارهم وأموالهم وعيالهم.

وعلى الرغم من كل هذا فقد حاول بعض المنافقين في المدينة أن يستغلّوا هذه الظاهرة لبث الفرقة بين الأنصار والمهاجرين وبذر بذور الشقاق بينهم تارة بإذكاء نيران خلافات مفتعلة بين الجانبين كما حدث بعد غزوة بني المصطلق حين اختلف أحد الأنصار ويدعى سنان بن الجهني مع واحد من المهاجرين ويدعى جهجاه بن مسعود الغفاري فنادى سنان: يا للأنصار، ونادى جهجاه: يا للمهاجرين، وشهر بعض المهاجرين والأنصار السلاح في وجه البعض وكادوا يقتلون لولا أن تداركهم الرسول الحاكم والمنظم وقال لهم: ما بال دعوى الجاهلية دعوا هذه الكلمة فإنها فتنة، وسرعان ما سكنت الفتنة.

ولقد بذل عبد الله بن أبي سلوك رأس المنافقين في المدينة جهوداً مضنية لتمزيق وحدة هذه المؤاخاة حقداً منه على الرسول الذي أفقده سيادة يثرب التي كاد يلبس شارتها قبيل وصول محمد إلى المدينة وكثيراً ما كان يحصن تابعيه على طرد المهاجرين وعودة الحال إلى ما كان عليه المدينة قبل الهجرة وإقامة الدولة والنظام الإسلاميين وكان دائماً يقول لقومه: أو قد فعلوها قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما عدوّنا وجلابيب قريش ما قال القائل، «سمن كلبك يأكلك أما والله ليخرجنَّ الأعز منها الأذل».

غير أن كل هذه المحاولات باءت بالفشل لعدة أسباب منها:

أولاً: دقة التنظيم الذي وضعه الرسول لحكم المدينة وعدالته ومثاليته وقدرته الأصلية بالإضافة إلى سرعة حركته ووجوده عند كل فتنة لأطفالها قبل استفحال شررها.

ثانياً: توقيع الجميع على الصحيفة (الدستور) التي وضع الرسول بنودها ووافق الجميع على احترامها.

ثالثاً: ضعف العصبية القبلية شيئاً فشيئاً بين الأنصار والمهاجرين وإحلال العاطفة العقيدية والروحية والإيمانية مكانها.

رابعاً: بمرور الزمن أخذت مشكلة المهاجرين تحل نفسها بنفسها للأسباب التي سبق أن ذكرناها.

خامساً: انكشاف أمر المنافقين خاصة بعد موقفهم من حادث الأفك بالدرجة التي جعلت ابن عبد الله بن أبي سلوك يطلب من الرسول أن يأذن له في قتل أبيه ورفض الرسول.

أما عن المبادىء التنظيمية التي أرسلتها الصحيفة (الدستور) لحكم المدينة بعد هجرة الرسول إليها فيمكن أن نلخصها فيما يلي:

أولاً: النص على أن مجتمع المدينة يتشكّل من كل المواطنين المسلمين أنصار ومهاجرين (الموجودين وقت وضع الصحيفة والوافدين) والذميين من اليهود أو من قد يوجد من كفار أو مشركين ومن هذا النص كسب الذميون بعد ذلك كل ما لهم من حقوق في االدول والدويلات الإسلامية المتعاقبة ومن هنا كان النص في نظم الحكم الإسلامية على الوحدة الوطنية التي يمكن أن يعيش في ظلالها المسلم والذمى في إطار القواعد والقوانين المنظمة لهذه المواطنة.

ثانياً: وتفريقاً على هذا أصبح أمن المدينة في الداخل والخارج مسؤوليّة

كل مجتمع المدينة وكل إثارة للفتنة أو الإستعانة بعدو المسلمين عليها يقضي في مهده ومن هنا كانت مواقف الرسول صلىّ الله عليه وسلّم من المنافقين ومن يهود بني قيقاع ويهود بني قريظة ويهود بني النضير وبنود هذه الصحيفة تحمل أبلغ رد على محاولات بعض المستشرقين المتعصبين الذين يؤكدون سياسة الرسول المسبقة في التخلّص من يهود المدينة ولكن الحقيقة التي لا شك فيها أن كل واحدة من القبائل اليهودية كان طردها من المدينة يرجع قبل كل شيء إلى نقضهم لبنود الصحيفة التي وقّعوا عليها فبنو قيقاع من اليهود حاولوا بذر بذور الفتنة عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام وبنو النضير فإنهم رغم تآمرهم على قتل الرسول بعد غزوة أحد رفضوا أن ينفذوا ما نصت عليه الوثيقة من اشتراكهم مع الأنصار لفك بعض أسراهم أما بنو قريظة فقد إرتكبوا جريمة الخيانة العظمى بإتصالهم بأعداء المسلمين في موقعة الخندق.

ثالثاً: غلبة الوحدة العقيدية على العصبية القبلية فعلاقة المؤمن بالمؤمن فوق صلة القرابة والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس ولا يخالف مؤمن مولى دون استشارته والمؤمنون على من بغى منهم ولو كان ولد أحدهم ولا يقبل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافر على مؤمن وسلم المؤمنين واحدة . . . الخ.

رابعاً: حق الذمين في إقامة شعائرهم الدينية والبقاء على ديانتهم مكفول لهم كما هو مكفول للمسلمين تماماً سواء بسواء ومن هنا كانت جدران المساجد تلاصق جدران الكنائس في البلاد الإسلامية على اختلاف اتساعها وليس على الذمي إلا أن يدفع الجزية والخراج نظير ما يدفعه المسلم من زكاة وعشور وضريبة دم وكلها من الأمور التي وضع الله ضوابطها بما أنزله الله عليه من آيات بيّنات وما أثر عنه من أحاديث.

خامساً: القصاص العادل أمن المجتمع لا يهادن فيه ذو نسب أو صلة أو قرابة حتى ولو كان من المسلمين.

سادساً: المرجع الأخير لأي خلاف يقوم حول بنود هذه الصحيفة موكل إلى ارسول الله صلىً الله عليه وسلَّم الذي يستمِّد مصدر تشريعاته من القرآن الكريم.

سابعاً: يحرِّم على كل مقر لهذه الصحيفة أن يأوي عدوا أو ينصره أو يفعل ما من شأنه إضعاف أمن الدولة الإسلامية.

ثامناً: لما كان اليهود غير مطالبين بالإنخراط في جيش المسلمين نصَّت الصحيفة على واجبهم في تمويل حروب المسلمين كجزء من الدفاع عن سلامتهم وأمنهم وهكذا كان رسول الله صلىً الله عليه وسلَّم المشرِّع الأول ليس فقط لأصول العقيدة الإسلامية وفروعها وإنما أيضاً للحضارة الإسلامية ونظم حكمها وعلى نهجه سار من أتى بعده...

د. عبد الشافي غنيم عبد القادر
أستاذ ورئيس قسم التاريخ بجامعة قطر

موجز البحث

د. عبد الشافي غنيم عبد القادر أستاذ ورئيس قسم التاريخ
كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية.
جامعة قطر

عن

بعض مقومات الحضارة ونظم الحكم الاسلامية
في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

تناول البحث مقدمة عن الحضارة الانسانية بوجه عام ودور الانسان في تنميتها وتطويرها وإلى أي حد كان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤسساً طليعياً في الحضارة ونظم الحكم في إطار ما أوحى به الله سبحانه وتعالى عليه من آيات القرآن الكريم في الدورين المكي والمدني. وكيف مسّت هذه الآيات الكريمة مختلف مراحل ونواحي التطور التي تناولت الجوانب الانسانية والخلقية والسلوكية والاجتماعية والعلمية وشكلت أسس الحضارة الاسلامية الشاملة التي أثرت وما زالت تؤثر في النهضات والحضارات والثقافات الانسانية بوجه عام.

وكانت بداية الحديث تناول لصدق القرآن الكريم ورسوخه وحفظ الله سبحانه وتعالى له من أية تحريفات أو إدخالات حدثت في غيره من الكتب السماوية الأخرى والرد على بعض غلاة المستشرقين الذين حاولوا بذر بذور التشكيك في جمع القرآن الكريم وتبويبه وترتيبه.

ثم انتقلنا من التعميم إلى التخصيص مبتدئين بمظاهر التكوين الحضاري في آيات الذكر الحكيم في **الدور المكي** وفيه نزلت ثمانين وسبع سور مكية نسقناها على النحو التالي:

أولاً - الوحدانية والتكوين الحضاري للشخصية المسلمة:

وقد أوضحنا فيها فلسفة العقيدة الاسلامية في وحدانية وجود الله سبحانه وتعالى والسور والآيات الكريمة التي تناولتها وكيف كانت فكرة التوحيد في حد ذاتها تستهدف إعلاء قدر الانسان نفسه وكيف إنه بذلك خير مخلوقات الله لا يجوز له أن يسجد لصنم أو يتعبد لوثن أدنى منه خلقاً وخليقة كي لا ينتقص شيئاً من عزته أو يهدر بعض كرامته لأن السجود لغير الله مذلة للانسان وكيف يستطيع فاقد العزة والكرامة أن يسعى لتأصيل أي معنى من معاني الحضارة الانسانية.

ثانياً -الجوانب الخلقية والسلوكية كعامل في تكوين الشخصية «الحضارية المسلمة:

وفي هذه المعاني السامية تعددت الأيات المكية ولم تترك ناحية من نواحي السلوك البشري الرفيع إلا وتناولته في الفرد والأسرة والمجتمع والأمة والكيان البشري بوجه عام على يد المعلم الأول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي أولى مدارس الدولة الاسلامية في دار الأرقم بن أبي الأرقم التي تخرَّج منها القادة من السابقين إلى الاسلام في الدين والعلم والفكر والحرب والادارة وكانوا الطلائع والنجوم في المدارس الاسلامية وفي مختلف الأمصار الاسلامية وعلى أيديهم تخرَّجت أجيال من القيادات التي سطرت أعظم صفحات الدين والدولة في الاسلام.

ثالثاً - التوجيهات المكية للمجتمع الاسلامي من السابقين إلى الاسلام:

تعرضت الأيات المكية الكريمة لتفصيلات ودقائق في السلوك الانساني لعلها كانت الأسس في ذلك الشموخ الذي قامت عليه الدولة الاسلامية حتى أنها لم تترك فضيلة إلا ودعت إليها أو رذيلة إلا ونهت عنها ويمكن أن يقاس نمو وضعف الدول والدويلات الاسلامية بمدى تمسكها بها أو إغضائها عنها لدرجة أنها لم تترك الغش في المكاييل والموازين ولغو الحديث وأكل حقوق الأرامل والأيتام والنفاق والرياء وشهادة الزور والكذب وأكل أموال

الناس بالباطل ولذلك لا نعجب إذا رأينا خليفة مثل أبي بكر الصديق يبدأ أول حديث في خلافته بقوله «الصدق أمانة والكذب خيانة».

رابعاً - الدعوة إلى العلم والعمل وتسخير كل مخلوقات الله للانسان:

تناولت الآيات الكريمة في هذا الدور أهمية العلم والقراءة بوجه عام وتسخير كل ما في الكون لخدمة الحياة وإعلاء شأن العلماء وإغفال شأن الجهلاء وكيف يستوي الأعمى والبصير وكيف ضرب الله سبحانه وتعالى المثل برجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل علا مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم «كما تناولت الآيات الكريمة علوم الفلك والجغرافيا والتاريخ والرياضيات والنبات والحيوان».

ثم ينتقل البحث بعد ذلك للحديث عن دعائم ومقومات نظام الحكم الاسلامي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة متناولاً أربع قضايا هامة:

أولاً: قضية الوحدة العقيدية والتكافلية بين المهاجرين والأنصار في المدينة.

ثانياً: قضية الوحدة الوطنية في الدولة الاسلامية ومعاملة أهل الذمة.

ثالثاً: قضية الجهاد في سبيل الله.

رابعاً: قضية تفصيل ما سبق إجماله من تشريعات في الدور المكي بالسور والآيات المدنية الكريمة.

ونظراً لإيجاز البحث فقد أوجزنا الحديث عن القضيتين الأولى والثانية والله الموفق.

مقترحات للتوصية في المؤتمر

أولاً: التركيز في مراحل التعليم الأولى في الدول الاسلامية على دراسة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مع توجيه العناية إلى إبراز

المبادىء والقيم الدينية والروحية والخلقية والسلوكية المؤثرة في مستقبل الأمة الاسلامية.

ثانياً: وضع سياسة مشتركة للدول العربية والاسلامية لزيادة اهتمام وسائل الاعلام المرئية والسمعية والمقروءة للدور الانساني والعقيدي. والبشري العظيم الذي قام به الرسول الكريم.

ثالثاً: إنشاء جائزة عالمية تحت عنوان «رسول الاسلام» يقوم المؤتمر الاسلامي بوضع شروطها ومواصفاتها ومتطلباتها على أن تعطى هذه الجائزة سنوياً في موسم الحج لأقْيَمْ ثلاثة بحوث في هذا المجال.

رابعاً: تخصيص أركان خاصة للدراسات التي تتناول سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في المكتبات العامة والمدرسية والجامعية في العالمين العربي والاسلامي.

خامساً: إقامة مؤتمر عام كل ثلاث سنوات لأساتذة التاريخ الاسلامي والتربية وأقطاب وأساتذة العلوم الشرعية لمتابعة التوصيات العامة التي يقرها المؤتمر وخاصة ما يتعلق بالتعليم والاعلام.

المنهج العلمي
في تدوين الحديث النبوي

بقلم
سماحة الشيخ/ أحمد بن عبد العزيز آل مبارك
رئيس دائرة القضاء الشرعي
بدولة الامارات العربية المتحدة

التمهيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين. أما بعد:

إن الله تعالى قد جعل القرآن الكريم دستوراً للمسلمين وشفاء لما في صدورهم وهدى للعالمين. وقد شرح الرسول صلى الله عليه وسلم -هذا الدستور وفصَّل فروعه تارة بالنص وتارة بالدلالة وتارة بالايماء والاشارة، والرسول صلى الله عليه وسلم أمين على شرع الله، لا يبلغ في أمر الدين إلا ما يوحى إليه؛ قال الله تعالى ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾[1] ففهم الشريعةوالاحاطة بأحكامها يحتاج إلى الرجوع إلى الحديث والسنّة، ولذلك اعتنى المسلمون بالسنّة النبوية ونقلها الخلف عن السلف جيلاً بعد جيل ورجعوا إليها في جميع أمور دينهم وعملوا بما فيها وتمسكوا بها، وحافظوا عليها.

ولكن قد أثار المستشرقون وتلاميذهم في العالم الاسلامي شبهات

(١) النجم آية: ٣.

حول السنّة، وأرادوا أن يشككوا الناس في هذا المصدر الثاني للشريعة بعد كتاب الله العزيز بما زعموا أن تدوين السنّة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بتسعين سنة ويقولون إن عدم تدوين السنّة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أدى إلى وجود الخلاف بين فرق المسلمين كما أدى إلى الوضع والكذب في الحديث مما كان له أكبر الضرر في ضياع السنّة الحقيقية، هذه خلاصة قولهم حول تدوين السنّة، فنريد في هذا البحث الموجز الذي نقدمه إلى المؤتمر الثالث للسيرة والسنّة النبوية المنعقد بالدوحة في دولة قطر أن نبينّ أن القرآن والسنّة متلازمان متعاضدان لا يفهم القرآن في كثير من المواضع إلا بالرجوع إلى السنّة، ولا يختلف أحد في أن السنّة لم تدوّن رسمياً كما دوّن القرآن الكريم، مع هذا لا يستطيع أحد أن ينكر أن السنّة قد لقيت من السلف إلى الخلف عناية تامة بعد كتاب الله العزيز، واستخدمت لحفظها جميع الوسائل من الكتابة والحفظ بصورة لا نظير لها في تاريخ الأمم والحضارات حتى صار ليلها كنهارها.

وإني أرجو من الله العلي الكريم أن أكون بعرض هذا الموضوع بشكل يحقق الغاية منه، فإني أوجزت البحث لاشتغالي بالأعمال الكثيرة التي أزاولها باعتباري رئيس القضاء الشرعي بدولة الامارات، وإن كل ما قمت به في هذا البحث مجرد محاولة علمية لدراسة السنّة وتاريخها وتدوينها في منهج علمي يسهل الرجوع إليه، والله الموفق.

الكتابة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم:

يدل التاريخ على أن العرب كانوا قبل الاسلام لا يعتمدون على الكتابة في حفظ أشعارهم وخطبهم وقصص أيامهم وأنسابهم بل كانوا يعتمدون على الذاكرة والحفظ، حتى شعرائهم كانوا يفخرون بحفظهم وقوة ذاكرتهم[1] ولكن هذا لا يعني عدم وجود من يعرف الكتابة بينهم ذلك لأن

---

(١) أنظر كتاب الأغاني ج١٦ ص/١١٦.

مجتمع مكة التجاري يحتاج إلى معرفة بالكتابة والحساب، ولكن الكتابة كانت قليلة في العرب(١) ولذلك وصف القرآن الكريم العرب بأنهم أميون، فقال الله تعالى ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾(٢).

وفي الحديث الشريف (إنّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب)(٣) ولا شك أن الكتابة قد انتشرت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أوسع مما كانت عليه في الجاهلية، لأن القرآن قد حثهم على التعلم واهتم الرسول صلى الله عليه وسلم بتعليم المسلمين الكتابة، ولا يفوتنا أن نذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم أذن لأسرى بدران يعلم كل كاتب عشرة من صبيان المدينة، ويعتبر هذا فدية عن نفسه(٤).

إن الاسلام كان في حاجة إلى القارئين والكاتبين يحتاج إلى الكتابة وأمور الدولة من مواعيد ومواثيق حتى صار عدد الكتّاب لا بأس به في عهد النبوة، وقد ذكر بعض المؤرخين عدد كتّاب النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثين(٥) وذكر بعضهم عدد كتّاب الوحي زهاء أربعين كاتباً(٦) ناهيك عن كتّاب المصدقات والرسائل والعهود.

كتابة الحديث في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم:

ومع وجود عدد من الكتّاب في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم نحن نرى أن الحديث لم يدوّن كما دوّن القرآن الكريم في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وما عين كتبة يكتبونه كما اهتم بتعيين الكتّاب للقرآن، وهم يكتبون آياته عند نزولها وما ذلك إلا لأن القرآن وحي كله بألفاظه

---

(١) طبقات ابن سعد ص٨٣ قسم٣ ج٣ وص٧٧ قسم٢ ج٣.
(٢) الجمعة آية: ٢٠.
(٣) أخرجه مسلم ص٧٦١ كتاب الصيام -باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال.
(٤) طبقات ابن سعد٢٢٢ وإمتاع الأسماع ص١٠١.
(٥) التنبيه والاشراف للمسعودي ص٢٤٦.
(٦) عيون الأثر لابن سيد الناس ١/٣١٥-٣١٦.

ومعانيه نزل به الروح الأمين على قلبه وأما السنّة فألفاظها من عند الرسول صلى الله عليه وسلم وإن كانت السنّة كلها من الله تعالى كما نص عليه القرآن، وهذا هو السر لاهتمامه الكبير بتدوين القرآن دون السنّة لأن ألفاظ القرآن ومعانيه من الله كلها فلا يجوز إبدال لفظ مكان لفظ آخر وإن كان مرادفاً له وأما الحديث فإن معظم المقصود منه معرفة الحكم منع لا غير.

فلو دوّنت السنّة كما دوّن القرآن الكريم وهي واسعة كثيرة النواحي شاملة لأعمال الرسول صلى الله عليه وسلم التشريعية وأقواله منذ بدء رسالته إلى أن لحق بربه يلزم إكبابهم على حفظ السنّة مع حفظ القرآن وفيه من الحرج ما فيه، عدا خوف اختلاط بعض أقوال النبي الموجزة الحكيمة بالقرآن سهواً من غير عمد ولو تم ذلك لكان فيه خطر على كتاب الله، يفتح باب الشك فيه لأعداء الاسلام مما يفتح لهم ثغرة ينفذون منها إلى المسلمين لحملهم على التحلل من أحكامه والتفلت من سلطانه، كل ذلك وغيره مما توسع العلماء في بيانه من أسرار عدم تدوين السنّة في عهد الرسول كما دوّن القرآن الكريم.

مع هذا نحن نرى من خلال الآثار الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تدوين الحديث مرَّ بمراحل منظمة حققت حفظه وصانته من العبث وقد تضامنت الذاكرة والأقلام وكان جنباً بجنب في خدمة الحديث الشريف.

وقد وردت أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم تنهي عن كتابة الحديث كما وردت أحاديث تسمح بالكتابة.

أحاديث النهي عن الكتابة:

١ - لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه وحدثوا عني ولا حرج. أخرجه مسلم[1] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

---

(١) صحيح مسلم ج١٨ ص١٢٩ وجاء مع بيان العلم ج١ ص٦٣ وتقييد العلم ص٣٢/٣٣.

٢ - قال أبو سعيد الخدري (جهدنا بالنبي صلى الله عليه وسلم) أن يأذن لنا في الكتاب فأبى[١].

٣ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نكتب الأحاديث فقال: ما هذا الذي تكتبونه؟ قلنا: أحاديث نسمعها منك، قال: كتاب غير كتاب الله، أتدرون؟ ما ضلَّ الأمم قبلكم إلا بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى[٢].

وأصح ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الباب حديث أبي سعيد الذي أخرجه مسلم في صحيحه.

أحاديث السماح بالكتابة وهي كثيرة منها:

١ - قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتني قريش وقالوا تكتب كل شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب والرضا فأمسكت عن الكتاب فذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأومأ بإصبعه إلي فيه وقال: أكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق[٣].

٢ - قال أبو هريرة رضي الله عنه: ما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثاً مني إلا ما كان من عبد ا الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب[٤].

---

(١) تقييد العلم ص٣٢، ٣٣

(٢) تقييد العلم ص٣٤.

(٣) أخرجه الدرامي ج١ ص١٣٥.

(٤) أخرجه البخاري ج١ ص٣٨.

٣ - حديث أبي هريرة: إن رجلاً أنصارياً شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قلة حفظه فقال: استعن على حفظك بيمينك[١].

٤ - طلب رجل من أهل اليمن يوم فتح مكة من الصحابة أن يكتبوا له خطبة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفتح فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فقال: اكتبوا لأبي شاه[٢].

٥ - روي عن أنس بن مالك أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قيدوا العلم بالكتاب[٣].

٦ - روي عن رافع بن خديج رضي الله عنه أنه قال: قلنا يا رسول الله إنّا نسمع منك أشياء أفنكتبها؟ قال: اكتبوا ولا حرج[٤].

٧ - كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم[٥].

٨ - قال النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي توفي فيه: أتـوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده[٦].

قد اختلف العلماء في التوفيق بين أحاديث النهي عن الكتابة وبين هذه الأحاديث التي تدل على الاذن بها، والأرجح عندي أن التعارض ليس تعارضاً حقيقياً بين هذه الروايات إذا فهمنا النهي على أنه نهي عن التدوين الرسمي كما كان يدوّن القرآن وأما الاذن فهو سماح بتدوين نصوص من السنّة لظروف وملابسات خاصة أو سماح لبعض الصحابة الذين كانوا

(١) تقييد العلم ص٦٥، ٦٦. أخرجه الترمذي.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ص٢٣٢ ج١٢ وتقييد العلم ص٨٦.

(٣) تقييد العلم ص٦٩ وجامع بيان العلم وقد ذكر العلامة رشيد رضا في مجلة المنارج١٠ ص٧٦٣ وضعف الحديث لعبد الله بن المؤمل ولكن روي الحديث بطريق اسماعيل بن محمد/أنظر هامش تقييد العلم ص٦٨.

(٤) تقييد العلم ص٧٢،٧٣.

(٥) جامع بيان العلم وفضله١/٧١.

(٦) أخرجه البخاري ج١ ص٢١٨ ومسلم ص٢٥٧و٢٥٩ ج٣.

يكتبون السنّة لأنفسهم، ويؤيد هذا الرأي ما رواه الخطيب عن الضحاك من قوله: لا تتخذوا للحديث كراريس المصاحف[1].

وذهب بعض العلماء -ورأيهم ينسجم مع ما ذكر آنفاً- إلى أن أحاديث السماح بالكتابة نسخت أحاديث النهي عنها[2].

لقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كتابة الحديث خشية اختلاطه بالقرآن الكريم الذي لم يكن قد جمع بعد، وكذلك خشية انشغال المسلمين بالحديث عن القرآن وهم حديثو عهد به فلما اطمئن إلى عدم خلطه بالقرآن أذن إذناً عاماً لكتابة الحديث.

كتابة الحديث في عصر الصحابة رضي الله عنهم:

إن كتابة الحديث والسنن والأخبار قد بدىء بها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا قبل ذلك، وقد ازدادت في عصر الصحابة.

وقد وعى الصحابة -رضي الله عنهم- كل ما سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم أو شاهدوه وكانوا حريصين على حفظه ونشره وتبليغه حرصاً لم يعرف عن أمة نبي وأصحاب ديانة. إنهم كانوا يكتبون الحديث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته، ومنهم من كانت له مجموعة خاصة اشتهرت به، فقد كان لعبد الله بن عمرو بن العاص مجموعة تسمى (الصادقة) وأثر عنه أنه كان يقول: ما يرغبني في الحياة إلا خصلتان، «الصادقة» و«الوهط» فأما الصادقة فصحيفة كتبها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[3].

وكان لأنس صحيفة كان يبرزها إذا اجتمع الناس[4] ونقل الجمع

---

(١) جامع بيان العلم ج١ ص٧٢.

(٢) أنظر تأويل مختلف الحديث ص٣٦٥.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ج١ ص٧٢ الوهط: بستان لعبد الله بن عمرو بن العاص بالطائف.

(٤) الجامع الصحيح للبخاري/كتاب العلم.

والكتابة عن عبد الله بن عباس[1] وعبد الله بن مسعود[2] وعن جابر بن عبد الله[3] وتدل صحيفة[4] همام بن منبة (م١٠٣هـ) صاحب أبي هريرة رضي الله عنه التي يرجع تأليفها إلى أواسط القرن الأول (لأن أبا هريرة توفي نحو سنة٥٨ للهجرة وهي من إملائه) على تقدم الجمع والكتابة. وكذلك كانت لسعد بن عبادة الأنصاري صحيفة[5] ولعبد الله بن أبي أوفى صحيفة[6]. . . ولسمرة بن جندب نسخة جمع فيها أحاديث كثيرة[7].

إن هذه الصحف والمجاميع قد اندمجت وذابت في المؤلفات المتأخرة ولكن إذا جمعت هذه الصحف والمجاميع وما احتوت عليه من الأحاديث لكونت العدد الأكبر من الأحاديث التي جمعت في الجوامع والمسانيد في القرن الثالث، وهكذا يتحقق أن المجموع الكبير الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه وتسجيله -من غير نظام وترتيب- في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم.

ربما يتعجب الانسان من هذا الرأي إذ يقرأ في الكتب ضخامة عدد الأحاديث المروية فيقال أن أحمد بن حنبل كان يحفظ أكثر من سبع مائة ألف حديث وكذلك يقال عن عن أبي زرعة ويروى عن الامام البخاري أنه كان يحفظ مائتي ألف من الأحاديث الضعيفة، ومائة ألف من الأحاديث الصحيحة، ويروى عن الامام مسلم أنه قال: جمعت كتابي هذا من ثلاث مائة ألف حديث.

---

(١) تقييد العلم ص٥.

(٢) الترمذي كتاب العلل.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ج١ ص٧٢.

(٤) طبعت مع المقدسات والتعليقات في حيدر أباد -الهند عام ١٣٧٤هـ بعناية الدكتور حميد الله.

(٥) الترمذي باب اليمين مع الشاهد.

(٦) البخاري -كتاب الجهاد- أبواب الصبر عند القتال.

(٧) تهذيب التهذيب ٤/ ٢٣٦.

والحقيقة أن كثيراً من المتعلمين -فضلاً عن عامة الناس لا يعرفون أن هذا العدد الضخم هو كثرة المتابعات والشواهد التي عني بها المحدثون، فحديث (إنما الأعمال بالنيات) مثلاً يروى من سبع مائة طريق، فلو جردنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات والشواهد لبقي عدد قليل من الأحاديث، فالجامع الصحيح للامام البخاري لا يزيد الأحاديث التي رويت بالسنّة الصحيح فيه على ألفين وستمائة وحديثين، وأحاديث مسلم يبلغ عددها إلى أربعة آلاف حديث وهذا لا يبلغ عدد الأحاديث المروية في كتب السنّة خمسين ألف حديث منها الصحيح ومنها السقيم، ومنها المتفق عليه ومنها المتكلم فيه، وقد صرح الحاكم أبو عبد الله النيسابوري الذي يعد من المتساهلين في أخذ الحديث إن الأحاديث التي في الدرجة الأولى لا تبلغ عشرة آلاف[1].

فبعد هذا يمكن أن يقال: إن ما ثبت من الأحاديث الصحاح واحتوت عليه مجاميعها ومسانيدها قد كتب ودوّن في عصر النبوة وفي عصر الصحابة رضي الله عنهم، قبل أن يدوّن الموطأ والصحاح السنّة بكثير.

كتابة الحديث في عصر التابعين:

ومن أعظم الخطأ في تاريخ تدوين الحديث دعوى بعض الناس أنه بدأ بعد المائة وذلك تبعاً لخطئهم في تحديد زمن التابعين، فإنه لما بلغهم أن التدوين بدأ في عهد التابعين وهم يعلمون أن بعض الصحابة امتد العمر بهم إلى أواخر المائة الأولى للهجرة، ظنوا أن عهد التابعين يبدأ بعد انقضاء زمن الصحابة فذهبوا إلى أن تدوين السنّة بدأ بعد المائة وهذا كله خطأ، والحق أن لقب التابعين أطلق على الذين لم يدركوا النبي صلى الله عليه وسلم أو ولدوا في أواخر عهده فلم يروه، وإنما رأوا أصحابه، أو ولدوا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم (ربيع الأول سنة١١هـ) كلهم داخلون في طبقة

---

(١) أنظر توجيه النظر ج/ص٩٣.

التابعين[1] فأعمال التابعين ومنها البدء بتدوين الحديث -ينبغي أن ينسب الى زمنهم الذي يبدأ من بعد سنة ١١هـ التي انتقل فيها النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى. إن التابعين رضي الله عنهم أجمعوا جميع المرويات في عهد الصحابة وكتبوا في حياتهم ما وصل إلى علمهم من الأخبار والشؤون وبذلوا فيه جهودهم وسافروا له وطرقوا أبواب العلماء والمحدثين حتى لقد كانوا يطوون لأجل الحديث الواحد مسافة طويلة وشقة بعيدة.

هذا سعيد بن جبير (٩٥هـ) كان يقول: كنت أسير بين ابن عمرو بن عباس، فكنت أسمع الحديث منهما، فأكتبه على واسطة الرحل حتى أنزل فأكتبه[2] ورخص سعيد بن المسيب (-٩٤هـ) لعبد الرحمن بن حرملة بالكتابة حينما شكا إليه سوء حفظه[3] ونرى عامر الشعيبي يردد قوله: الكتاب قيد العلم[4] وكان يحض على الكتابة ويقول: إذا سمعتم مني شيئاً فاكتبوه ولو في حائط[5].

وقد انتشرت الكتب حتى قال الحسن البصري (١٠٠هـ) (إن لنا كتباً كنا نتعاهدها)[6] كان مجاهد بن جبير (١٠٣هـ) يسمح لبعض أصحابه أن يصعدوا إلى غرفته فيخرج إليهم كتبه فينسخون منها[7].

كان نافع مولى بن عمر (١١٧هـ) يملي العلم على طلابه يكتبون العلم بين يديه[8] ويصور لنا قتادة بن دعامة السدوسي (١١٨هـ) بإجابته

---

(١) الرسالة المحمدية ص/٥٥.
(٢) تقييد العلم ص/١٠٢ ونحوه في جامع بيان العلم ج١ /ص٧٢.
(٣) تقييد العلم ص/٩٩ وجامع بيان العلم ج١/ص/٧٣.
(٤) جامع بيان العلم ج١ ص٧٥.
(٥) تقييد العلم ص/١٠٠.
(٦) جامع بيان العلم وفضله ج١ ص/٧٤.
(٧) أنظر سنن الدرامي ج١ ص/١٢٨ وتقييد العلم ص/١٠٥.
(٨) أنظر سنن الدرامي ج١ ص١٢٩، ص/١٢٦ ج١.

لمن يسأله عن كتابة الحديث موقف هذا الجليل من التابعين من الكتابة، بعد أن فشت فيهم وانتشرت وأصبحت من ضروريات كل طالب علم، فيقول: (وما يمنعك أن تكتب وأخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب (قال علمها عند ربي في كتاب، لا يضل بي ولا ينسى)[1].

وقد حملت كراهية بعض التابعين للكتابة على أنهم كرهوا تدوين آرائهم وفتاويهم مع الحديث، وكذلك خوفهم من الاعتماد على الكراريس وإهمال الحفظ.

أمر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بجمع السنن:

وبالجملة مضى القرن الأول ولم يدوّن الحديث كما دوّن القرآن ومن دوّن فإنما كان دوّن لنفسه وليس من المعقول أن يترك الحديث فوضى لا يدوّن في كتاب وإن الاسلام قد عمَّ البلاد ودخل فيه طوائف من الأمم ومات معظم الصحابة وتفرّق أصحابهم وتلاميذهم في البلدان وقد ذهب عذر اختلاط القرآن بالحديث وكانت أشد حاجة أن تجمع السنن وتكتب في كتاب تحت إشراف الحكومة الاسلامية خوفاً عليها من الضياع وصيانة لها من التزيد والنقصان. فكان أول من فكر في الجمع والتدوين هو الامام العادل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فكتب إلى الأفاق: (انظروا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم فاجمعوه)[2].

وكان فيما كتب إلى أهل المدينة: (انظروا حديث الرسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبوه فإني خفت دروس العلم وذهاب أهله)[3].

وقد كتب إلى أحد كبار علماء الحديث وأوعية العلم في عصره أبي

---

(١) تقييد العلم ص/١٠٣ والآية/٥٢ من سورة طه وانظر طبقات ابن سعد ص/٢ قسم٢/ ج٧.

(٢) فتح الباري ج١ ص/٢٠٤.

(٣) سنن الدرامي ج١/ص/١٢٦.

بكر بن محمد بن حزم المتوفى (١١٧هـ) (أنظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء)[١].

وأشار عليه بالعناية الخاصة بمجاميع عمرة بنت عبد الرحمن المتوفى سنة ٩٨هـ، والقاسم بن محمد ابن أبي بكر المتوفى ١٠٧هـ، فكتبه له[٢].

وفي رواية: (فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولا يقبل إلا حديث النبي صلى الله عليه وسلم وليفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً[٣]. كما أمر ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ وغيره بجمع السنن[٤].

كان محمد بن شهاب الزهري أحد أعلام عصره كان قد كتب السنن وما جاء عن الصحابة أثناء طلبه للعلم فقد روي عن أبي الزناد انه قال: كنا نكتب الحلال والحرام وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع فلما احتج إليه علمت أنه أعلم الناس[٥].

قد توفي أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز قبل أن يرى الكتب التي جمعها أبو بكر بن حزم كما يذكر ذلك بعض العلماء[٦] ولكن لم تفته أولى ثمار جهوده التي حققها ابن شهاب الزهري الذي يقول: (أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفتراً دفتراً، فبعث إلى كل أرض له

---

(١) أنظر سنن الدارمي ج١ ص/١٢٦ وتقييد العلم ص/١٠٥.

(٢) تقدمة الجرح والتعديل ص/٢١، قاسم بن محمد تلقى علمه عن عمته عائشة، رضي الله عنها وكان عالم أهل زمانه وأحد الفقهاء السبعة.

(٣) فتح الباري ج١ ص/٢٠٤.

(٤) أنظر جامع بيان العلم وفضله.

(٥) جامع بيان العلم ج١ ص/٧٣.

(٦) أنظر قواعد التحديث.

عليها سلطان دفتراً[1] ولذلك قال كثير من المؤرخين والعلماء: إن أول من دوّن الحديث ابن شهاب[2].

وقد اعتبر علماء الحديث تدوين عمر بن عبد العزيز هذا أول تدوين للحديث وذكروا في مؤلفاتهم هذه العبارة: (وأما ابتداء تدوين الحديث فإنه وقع على رأس المائة في خلافة عمر بن عبد العزيز)[3] أو نحوها.

فغرض هؤلاء العلماء بيان أن التدوين الرسمي كان في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أما تقييد الحديث وحفظه في الصحف والرقاع والعظام فقد مارسه الصحابة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ولم ينقطع تقييد الحديث بعد وفاته عليه الصلاة والسلام بل بقي جنباً إلى جنب مع الحفظ حتى قيّض للحديث من جمعه في المدونات الكبرى.

ولم ينتصف القرن الثاني حتى نشطت حركة تدوين الحديث وكان من سبق إليها من رجال هذا القرن ابن جريج المكّي (م١٥٠)هـ وابن إسحاق (م١٥١) ومعمّر بن المثني (م١٥٣هـ) وسعيد بن أبي عدوية المدني (م١٥٦) وربيع بن صبيح (م١٦٠) وسفيان الثوري (م١٦١) ومالك ابن أنس (م١٧٩هـ) والليث بن سعد (م١٧٥) وابن المبارك (م١٨١هـ) ثم تتابع الناس[4].

ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم في النسج على منوالهم وقد كان هذا التصنيف بالنسبة إلى جمع الأبواب وضمها إلى بعضها في مؤلف أو جامع، وأما جمع الحديث إلى مثله في باب واحد قد سبق إليه التابعي الجليل عامر الشعبيي المتوفى ١٠٣هـ[5].

(١) جامع بيان العلم وفضله ج١ ص/٧٦.
(٢) حلية الأولياء ج٣ ص/٣٦٣.
(٣) قواعد التحديث ص/٤٦ وتدريب الرواي ص/٤٠.
(٤) تذكرة الحفاظ ج١ ص/٢٢٩.
(٥) تدريب الراوي ص/٤٠.

وكان معظم هذه المصنفات والمجاميع يضم الحديث الشريف وفتاوى الصحابة والتابعين كما يتجلى لنا هذا في موطأ الامام مالك بن أنس[1].

ثم رأى بعضهم أن تفرد أحاديث النبي صلى الله عليه وسلّم في مؤلفات خاصة، فألّفت المسانيد وهي كتب تضم أحاديث النبي صلى الله عليه وسلّم بأسانيدها خالية من فتاوى الصحابة والتابعين تجمع فيها أحاديث كل صحابي - ولو كانت في مواضيع مختلفة - تحت اسم مسند فلان، ومسند فلان وهكذا، وأول من ألّف المسانيد أبو داود سليمان بن الجارود الطيالسي المتوفى ٢٠٤هـ وتبعه آخرون، مصنف أسد بن موسى الأموي المتوفى ٢٠٢هـ وعبيد الله بن موسى العبسي المتوفى ٢١٣هـ ومسدد البصري المتوفى ٢٢٨هـ ونعيم بن حماد الخزاعي المصري المتوفى ٢٢٨هـ وأقتفى الأئمة آثارهم كأحمد بن حنبل المتوفى ٢٤١هـ وإسحق بن راهوية المتوفى ٢٣٨هـ وعثمان بن أبي شيبة المتوفى ٢٣٩هـ وغيرهم[2].

ويعتبر مسند الامام أحمد - وهو من أتباع التابعين - أو في المسانيد وأوسعها، أن هذه المسانيد لم تقتصر على جمع الحديث الصحيح بل احتوت على الأحاديث الضعيفة أيضاً مما يجعل من الصعوبة الافادة منها إلا من قبل العلماء المتخلفين في الحديث وعلومه وكذلك فإن طريقة الترتيب تجعل من الصعوبة الوقف على أحاديث لحكم معين لأنها لم ترتب على أبواب الفقه مما حدا بالامام محمد بن اسماعيل البخاري المتوفى ٢٥٦هـ إلى تصنيف كتابه (الصحيح) الذي يقتصر على الأحاديث الصحيحة، دون أن يستوعبها جميعاً وجرى على منواله الامام مسلم بن الحجاج النيسابوري المتوفى ٢٦١هـ في صحيحه وقد تابعها في الترتيب على أبواب الفقه الامام أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى ٢٧٥هـ في السنن، والامام بن ماجة (محمد بن

---

(١) في موطأ مالك ثلاثة آلاف وسبعمائة حديث، أنظر الرسالة المستطرفة ص/١١.

(٢) أنظر تدريب الراوي ص/٤٠ والرسالة المستطرفة ص/٣٦-٤٧.

يزيد) المتوفى ٢٧٣هـ في سننه، والامام محمد بن عيسى الترمذي المتوفى ٢٧٩هـ في جامعه والامام أبو عبد الرحمن أحمد بن علي النسائي المتوفى ٣٠٣هـ في سننه.

وقد خدمت هذه الكتب بالشرح والتهذيب والاختصار والاستخراج عليها من العلماء الذين جاؤوا بعدهم.

هذا ما أردنا إيراده في هذا البحث الموجز والله ولي التوفيق،،،

أحمد عبد العزيز آل مبارك
رئيس القضاء الشرع
بدولـــة
الامارات الـ ... ا

* * *

المنهج العلمي في تدوين الحديث النبوي

(خلاصة البحث)

١ - لم يدوّن الحديث رسمياً في عهده صلى الله عليه وسلّم لأسباب خاصة أهمها: الخوف من اختلاط القرآن، ... نتيجه انشغال المسلمين بكتابة الحديث عن كتابة القرآن الكريم ودراسته وحفظه.

٢ - الأحاديث النبوية الشريفة قد بدىء في كتابتها في عهد النبي صلى الله عليه وسلّم وازداد نشاط الكتابة ولو كانت جهودهم جهوداً فردية لكنهم حفظوها في صدور كما حفظوها في الصدور.

٣ - وقد مرَّ تدوين الحديث بمراحل منتظمة، وفي رأس المائة للهجرة خشي عمر بن عبد العزيز الامام العادل اندراس السنّة وتسرب

الوضع إليها فأمر بجمعها على أيدي كبار علماء التابعين ووزع قبل وفاته ما كتبه الامام الزهري فمفهوم ابتداء التدوين في عهده المراد منه كتابة السنّة رسمياً.

٤ - وفي القرن الثاني تحول عمل العلماء من جمع الحديث وتقييده إلى تصنيفه على الأبواب ثم في مصنف أو جامع ثم ظهرت المسانيد.

٥ - ثم ألّفت الصحاح السنّة وغيرها من كتب السنّة.

راحات للنهوض بعلم الحديث ونشره:

بما أننا نرى بعض الاقتراحات للنهضة بهذا العلم العظيم ندلي بآرائنا ال... ـو أن نسير في تحقيقه من خدمة الحديث الشريف:

إنشاء دار للحديث «تضم خيرة علماء الحديث» تقوم بنشر ا في الصعيد العام ومن وسائل ذلك:

يجاد حلق علمية في المساجد الكبرى تقرأ بها على الناس كتب ا... ث وتشرح باختصار.

ار أبحاث موجزة ميسرة عن السنّة وتدوينها وأئمة الحديث وداتهم وعن كتب الحديث وغير ذلك من الأمور.

٣ - وانتخاب مجموعة من أحاديث ما تتعلق بالأخلاق والزهد والآداب ومجموعة من أحاديث ما تتعلق بعلم الاقتصاد والسياسة واختيار عنوان مناسب لكل باب وشرحه بأسلوب سهل يسهل على عامة الناس والمثقفين فهمه.

ثانياً: أن يدرس تاريخ السنّة كما يدرس تاريخ الفقه الاسلامي في الكليات المختصة ككليات الشريعة وأصول الدين وكليات الحقوق وألا يكتفى بدراسة أحاديث الأحكام في الكليات المختصة بل تقرر أحاديث في

التربية ومكارم الأخلاق والآداب وغيرها من الموضوعات التي تناولتها السنة المطهرة.

ثالثاً: أن تكوّن لجان لعلماء الحديث المختصين بهـذا الفن، لجنة لتحقيق ونشر بعض أمهات الكتب التي ما زالت مخطوطة في مكتبات العالم الاسلامي ولجنة أخرى: لاختيار أحاديث مناسبة لشرحها والتعليق عليها.

أرجو أن تقوم المؤسسات الاسلامية والحكومات الاسلامية بالمساعدة المالية لإنجاز هذا العمل العظيم.

والله ولـــي التوفيــق

أحمد بن عبد العزيز آل مبارك
رئيس القضاة
ورئيس دائرة القضاء الشرعي
بدولـــة الامارات العربية المتحدة

مراجع البحث

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني - مصر/١٣٢٢.

(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة - مصر/١٣٢٦.

(٣) توجيه النظر - طاهر الجزائري - مصر/١٣٢٠.

(٤) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني - حيدر أباد - الهند/١٣٢٤.

(٥) تقدمة الجرح والتعديل لعبد الرحمن الرازي - الهند/١٩٥٢.

(٦) تذكرة الحفاظ - للامام الذهبي - الهند/١٣٣٣هـ.

(٧) تدريب الرواي للسيوطي/١٣٧٩هـ.

(٨) التنبيه والاشراف لأبي الحسن السعودي/١٣٥٧هـ.

(٩) تقييد العلم للبغدادي - بيروت/١٣٩٥هـ.

(١٠) الجامع الصحيح للامام البخاري - القاهرة.

(١١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر المالكي/القاهرة.

(١٢) الجامع الصحيح للامام مسلم/القاهرة (١٣٧٥ و١٣٤٩).

(١٣) جامع الترمذي/القاهرة.

(١٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لابن نعيم/مصر/١٣٥١.

(١٥) الرسالة المحمدية - القاهرة ١٣٨٩هـ.

(١٦) الرسالة المستطرفة، لمحمد بن جعفر الكتاني بيروت/١٣٣٣هـ.

(١٧) سنن الدرامي/دمشق ١٣٤٩.

(١٨) صحيفة همام بن منبة/دمشق ١٣٧٢.

(١٩) طبقات ابن سعد - ليدن/١٣٢٢.

(٢٠) عيون الأثر لابن سيد الناس/القاهرة/١٣٤٣هـ.

(٢١) فتح الباري للحافظ بن حجر العسقلاني القاهرة/١٣٧٨هـ.

(٢٢) كتاب العلل للامام الترمذي/القاهرة.

(٢٣) مسند الامام أحمد بن حنبل/القاهرة.

الزهـــراوي
وعمليات الغدّة الدرقية

قبل أن أخوض .. سيرة أبي القاسم خلف بـ
الأندلسي الزهراوي لا بد لي أن أتقدم بالشكر والا
الدكتور حسين أمين الأمين العام لاتحاد المؤرخين العـ
عليّ مشكوراً لأعرّف بهذا العالم الفاضل الذي خدم
والاسلام والامة العربية بصورة خاصة وذلك بمنا
أسس الحضارة العربية والاسلامية في اسبانيا فاخترت
الجراحية لتضخم الغدة الدرقية وهي عمل واحد من الاعمال العلميه الجمة الجبارة التي قام بها صاحبنا.

ولا بد قبل التطرق إلى ما قدمه عالمنا أبـو القاسم الـزهراوي أن نتعرف على الحالة الاجتماعية التي كانت سائدة في بلاد الاندلس آنذاك.

إن الحكم الاموي الشامي في الاندلس كان غير مستقر حتى أنه منذ فتح الاندلس على يد موسى بن نصير وقائده طارق بن زياد سنة (٧١١) م ولغاية نهاية الدولة الاموية في الشام (٧٥٦) م كان هنالك ما يقارب أربعين والياً تولى الحكم لهذه الرقعة أي بمعدل سنة وثلاثة أشهر لكل وال. وهذه الفترة لا تتيح لاي والٍ أن ينهض بمستوى البلاد ويواكب التطوير العلمي

والفكري وخاصة إذا علمنا أن كل والٍ كان يحاول أن يمسخ أعمال سلفه ويحاول بناء ما يخلّد اسمه.

إن عدم الاستقرار السياسي والعمل في تلك الفترة على أيدي غير ثابتة جعل التأخر والتخلف الصفة التي تتصف بها الاندلس ولكن بعد أن نجا عبد الرحمن الاموي الملقب بالداخل من فتك العباسيين ووصل إلى الاندلس واستولى على قرطبة (٧٥٦ -٧٨٨م) واستقر فيها كان ذلك على موعد مع التقدم وما الجسر العظيم الذي بناه لربط جهتي قرطبة إلا مثال على التقدم العمراني في عصره وأخذت الأندلس طريقها إلى الاستقرار فازدهرت العلوم وساد العدل ونقلت المبادىء الاسلامية على حقيقتها. وأخذ ولده هشام (٧٨٨ - ٧٩٦ م) بعده يحذو حذو بغداد وتقدمها حيث تقف بشموخ إلى جانب مدارس أثينا والاسكندرية إبان طريق الترجمة والتعريب وانتشار العلوم بسرعة لتفهم ة ووصول كتب الرازي وابن سينا وغيرهما إلى بلاد ، ما ترجم في نفس الاندلس من كتب الاسكندرية تأثرة بالحضارة الشرقية وظهور الافكار الهلينية إضافة إلى الوافدين من العرب إلى الاندلس مع كتبهم كل هذه العوامل خلقت ثورة فكرية علمية ذات الأثر الكبير في تطوير النهضة العلمية.

وفي عصر عبد الرحمن الثالث (٩١٢- ٩٦١ م) أخذت الاندلس تحذو حذو المأمون بالترجمة وصارت قرطبة المركز العلمي الأول في العصور الوسطى وخاصة بعد تخلف سمعة بغداد ووقوع الفتن فيها وأعطى عبد الرحمن الثالث لنفسه لقب أمير المؤمنين وسمي بالناصر.

وهكذا نرى أن الاستمرارية بالعمل وبعد قرنين فقط من حكم العرب للاندلس وصلت إلى أعلى قمة من الشهرة واستمرت هذه الاعمال

كذلك على عهد ولده المستنصر (٩٦١ - ٩٧٦ م) وتقدمت في الزراعة والعمران حيث شيّدت في عصره أكثر من ١١٣ ألف بيت إضافة إلى الجوامع والمكاتب والحمامات والمدارس والمكتبات وكان جامع قرطبة ينافس جامع القدس والكعبة الشريفتين وأصبحت قرطبة تنافس وتضاهي بغداد المسلمة والقسطنطينية المسيحية وإلى جانب ذلك الاهتمام العظيم بالثقافة والعلوم كان الجيش آخذاً بتوسيع تلك الرقعة كما كان الامر في عهد المأمون علمياً وعسكرياً والذي سبقه بحوالي ١٢٥ سنة فتوافد العلماء من كافة أقطار الدنيا آنذاك إضافة إلى إرسال بعثات للعلوم ولشراء الكتب المترجمة وغير المترجمة من كافة الاقطار وكانت في قصره الزهراء مكتبة تحتوي على ٤٠٠ ألف كتاب موضوعة في ٤٤ فهرست معظمها مذيلة باسم المستنصر.

في هذا الجو العلمي الخلّاق والحضارة الم
يطلبها ولد أبو القاسم وشبّ وسط هذا المحيط ا
تنوير أفكاره وتحضير أعماله.

إن مما يحملني على الاشادة بهذا الانسان ال
والانارة بأفكاره هي الشهادة بمقدرته وبراعته
الأمر الذي حدا بمفكري وكتاب وعلماء ال
والوقوف على سيرته وتفسير كتبه وتتبع أبحاثه في الوقت الذي أهمل مؤرخو العرب وكتّابهم البحث عن مناقب هذا العالم الفاضل الأمر الذي أدى إلى طمس معالم آثاره العلمية وقد لاحظت من جملة ما لاحظت أثناء تتبعي لسيرة عالمنا هذا أن إحدى المخطوطات عنه باللغة العربية كتبت بأيدٍ متعددة وبأشكال كتابية مختلفة مما يدل على تفاوت زمني بأساليب الكتابة وربما لم يكن بين من قام بذلك من هو على صلة بالطب لأني لاحظت افتقار عملهم إلى الدقة العلمية وحتى فيها سذاجة بالديباجة والمعاني.

ولكننا نرى في الوقت نفسه أن العالم وليم هارفي مكتشف الدورة

الدموية الحديثة يروي عن أستاذه فاير بركس بأنه كان يدعم معلوماته بالكتاب الثلاثة الاوائل جالينوس وبول الأجنبي وأبي القاسم الزهراوي.
رغم أنه عرف الكثير عن معاصريه كابن حزم وغير إلا أننا نعلم القليل عن حياة هذا الرجل الخاصة كما هي الحال بالنسبة لكثير من علماء العرب الأعلام في الاندلس حيث تضافرت عدة عوامل لطمس آثارهم وإخفاء معالمهم بعد زوال الحكم الاسلامي فيها حتى أنه تعذر علينا الوقوف على أية مقالة خطت بيدهم ما خلا استنساخات قام بها فلان عن فلان وحتى المخطوطات العربية بعد أن ترجمت عن اللاتينية أو الانجليزية مما شوّه حقيقتها.

... الشخص المتواضع حيث يقول: إن جل معلوماتي أنا مدين له لكتب القدماء ورغبتي لفهمها ولتقديري للعلم ...اتي وخبرتي خلال طيلة حياتي.

...يبخس حق من سبقه من العلماء ويشيد بذكرهم ... مدين لابي القاسم بشهادة المتخصصين حيث ...ام بالعمليات وشرحها ووصف الأدوات التي ...ضحة بالتصاوير قد أخذت كمرجع أساس

...جر... في اوربا.

وذكرت دائرة المعارف البريطانية المطبوعة ١٩١٧ في جزء ٢٦ ص١٢٧ ليس للعرب مزية في علم الطب أعظم من أنهم حفظوا ما استلموه من الأقدمين وما أضافوا إلى الجراحة بنوع خاص رغم أن دينهم يكره تشريح الموتى وثانياً لان من طبعهم تحمل الالام التي تصيبهم بالصبر والانفة من اتخاذ الوسائل لمعالجتها واشتهر منهم بالجراحة أبو القاسم وهو مشهور بنوع خاص بكثرة استعماله الكي والكاويات.

كان الطب اليوناني معروفاً في اسبانيا بعهد الامويين من التراجم

المتعددة وهنالك أسماء كثيرة كسبت شهرة كبيرة في هذا الميدان ومنهم يحيى بن الحق حيث كان والده رجل دولة مسؤول وطبيباً في عهد الناصر كتب معجم الطب في خمسة أجزاء وكذلك ابن ملوكة وسعيد بن الربح وكان الأخير شاعراً إضافة إلى طول باعه في الطب.

وكان هارون بن موسى العشيوني معاصراً للزهراوي في عهد الناصر والمستنصر ولم يترك هذا الاخير أي كتاباً (حسب ما جاء في كتاب بن حزم) وكذلك خالد بن يزيد الروماني وكتابه عن الاعشاب وكانت فلسفتهم وعقائدهم في ذلك العصر عصر الحرية تجنح إلى الالحاد.

فقد لعب الحجاب المحتكون بالحكام والمستفيدون من امتياز تقربهم من الولاة الحكام لعبوا دوراً كبيراً في تشويه الحقائق وتسببوا في إعدام الكثير منهم وحرق كتبهم قبل ان يشيع علمهم ويذيع صيتهم وقد حدث بصورة متكررة في عهد الحاجب محمد بن أبي عامر عام (٩٧٧ - ١٠٠٢م) يوم كان هو المسيّر الحقيقي لدفة الأمور في حكم هشام المؤيد ورغم ذلك فقد انتشرت أفكار هؤلاء العلماء وكثرت النشرات حتى باتت تقرأ يوماً بيوم من قبل عامة الناس والخاصة.

أما عن الشعر والموسيقى في ذلك العصر فكانت هناك أنواع من الشعر تعرف بالموشحات والزجل الاندلسي ذي السلم الموسيقي السليم والتي أخذت تكتب وتستغل كميدان للتقرب من الملوك والتذلل الفكري والاخلاقي فلا مجال لخوض ميدانها في بحثنا هذا.

نبذة وجيزة عن حياة أبي القاسم الزهراوي: -

بعد هذه الالمامة القصيرة في الحياة التي كانت سائدة في بلاد الأندلس من قهر للحريات إلى الانطلاقات الفكرية والتقدم الحضاري ننصرف إلى دراسة صاحبنا فنقول:

هو أبو القاسم خلف بن عباس الاندلسي الزهراوي والده عباس

الأنصاري كما جاء في المقالة السابعة عشرة من كتابه (التصريف لمن عجز عن التأليف) وعباس من الاسماء العربية قبل الاسلام وبعده ولم يعرف عن والده الكثير ولو كان مرموقاً لوصف شغله مع اسمه ولكن من اللقب (الأنصاري) أي أنه من أهل يثرب في المدينة المنورة من الذين ناصروا النبي الكريم (ص) وربما نزح مع من نزح من العرب إلى الاندلس وكان يلقبه بعضهم أيضاً بالاندلسي كما جاء في إحدى مقالاته الاخرى ولكن لقب (الزهراوي) اشتهر به أكثر من غيره وأحياناً يلقب الزهراوي فقط لشهرته الواسعة وهذا اللقب جاء نسبة إلى مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الثالث (الناصر) الذي اشتهر بسعيه الدائم إلى حب العلم والعمران والتقدم.

ومدينة الزهراء هذه هي إحدى مقاطعات الثانية والعشرين التي تحيط مدينة قرطبة. وكانت مرتفعة بعض الشيء عن بقية المقاطعات الاخرى وينبت فيها شجر اللوز الذي يورق في شهر شباط من كل عام فتكثر الورود اللوزية البيضاء وعند سقوطها تصبغ لون الارض في تلك المنطقة بالبياض الناصع كالوفر المتساقط - رغم عدم سقوط الثلج في تلك المنطقة - فتظهر للعين كالدرة ساطعة بيضاء وياقوت الحموي يقول في ص٣٢٥ ج١٦ (الزهراء هي الدرة الساطعة البياض) وتبعد هذه المقاطعة عن قرطبة حوالي ٦ أميال وبناها كمدينة كاملة لوسائل حكم الاندلس وكانت تسمى بـ(فرسايل العرب) حيث الأخيرة بنيت على نمطها. حيث كان يسكنها أمير المؤمنين وحكامه وحاشيته وجنده.

وفيها أجنحة ملكية ودور ضخمة للضيافة وقد اشتهرت بمكتبتها العامرة التي كانت مرجعاً لعلوم الزهراوي وميداناً لتعلمه وطول باعه وفي الروايات العاطفية إن مدينة الزهراء نسبت إلى زوجة أو حبيبة أمير المؤمنين التي اسمها (الزهراء) وشيّدت سنة ٩٣٦ واستغرقت مدة عشرين عاماً لبنائها، وفي اعتقادي أنه ليس من الممكن لحاكم اهتم بالفتوح والعلوم وله

مشاغل كثيرة ومتعددة أن ينصرف لقيام هذا العمل لارضاء نزوة زوجته أو حبيبته وإنما شيّدت هذه المدينة العظيمة لبناء مجده وصرح حكمه وفرض سيطرته على قرطبة وغيرها من هذه القاعدة العظيمة.

لا نعلم عن ميلاد الزهراوي شيء ولكنه توفي عام ١٠١٣م أي عام ٤٠٧هـ وهي محققة لدى (ليو الافريقي (LEO AFRICANUS) ويقول إنه عاش ١٠١ هجرية أي ما يقارب ٩٧ سنة ميلادية وليست هنالك ضرورة لدحض هذا الادعاء من أنه صحياً غير ممكن معيشة هذا العمر لشخص قام بمثل ما قام به من أعمال ترهق كاهل الشباب ولكن إن صح القول فإنه يدل على أن الزهراوي ولد قبل تشييد مدينة الزهراء بحوالي عشرين عاماً حيث اشتهر أثناء إقامته فيها وأخذ اسمها بعد شهرته الواسعة. رغم انه عاصر ابن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤م) حيث يقول عنه وقد أدركناه وشاهدناه وأثنى على كتابه التصريف ويقول أيضاً انه توفي سنة ٤٠٤ هجرية أي (١٠٠٩ - ١٠١٠م) ميلادية في الاندلس ولكن ليو الافريقي يربط وفاته في سنة احتلال قرطبة من قبل البرابرة والمسيحين أي سنة (١٠١٣م).

إنه من الواضح عاش أثناء ازدهار العصر الأموي في الاندلس وأثناء حكم الخليفتين العظيمين اللذين حكما إسبانيا وبذلا العطاء الجزيل للفعاليات العلمية. إلا أن الزهراوي لم يتقرب لأي خليفة أو حاكم أو وزير ولم يقدم كتبه أو أعماله لهم كما كان العرف السائد بالنسبة لجميع الكتّاب والمفكرين آنذاك وكانت كلمة الشيخ كرسبا في أعماله وتدريسه كما فعل قبله الرازي. كان هو والوزير عيسى بن إسحق الطبيبين النابغين في العلوم والمعارف في عصرهما وكان بيتهما دارا ندوة يحضرها ذو المكانة من الاختصاصيين في الرياضيات والطبيعيات ويقال أن كلاهما الطبيب الخاص للامير عبد الرحمن الثالث وعميدا مستشفيات قرطبة كما جاء في كتاب أمين أسعد خير الله المطبوع بالجامعة الامريكية ببيروت ١٩٤٦ وذكر كونه ولد عام ٩٣٦ في مدينة الزهراء وكذلك ورد نفس القول في الموسوعة البريطانية

الحديثة الجزء الأول صفحة ٣٧ لسنة ٧٤ طبعة شيكاغو وقول آخر انه ولد سنة ٩٢٢ كما جاء في المقتطف لنوفمبر ١٩١٧ صفحة ٤٢٥ لحسين هراوي وإنه طبيب البلاط رغم ذلك لا توجد مراجع ثابتة تؤيد ذلك سواء كان طبيبا لعبد الرحمن الثالث أو لـولده الحكم الثـاني وحتى للوزير المنصـور (١٠٠٢) وربما يعزى عدم تقربه للملوك لأسباب عديدة أهمها:

١ - إن كونه متواضعاً وتواضعه هذا يمنع من أن يقرن اسمه بمثل هذه التعيينات الرفيعة مع الملوك والامراء، رغم أنه ذكر أن زميله ومعاصره السبتي كان طبيباً لأمير المؤمنين بكل افتخار حيث جاء في المقالة الثالثة والعشرين في الباب الثالث منها قال: وصفة لعوق الخشخاش الذي كان يصنعها السبتي لأمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد وكان يحملها ويمضغ بها وهي لذيذة نافعة مختبرة من جميع من نفع بها. وكذلك ذكر في المقالة الثامنة من كتابه التصريف في الادوية لأبي إسحق الذي زامله: لمن كان عنده ضعف في معدته أو تقزز أو يسرع إلى التقيؤ ومن كان ضعيف الأحشاء والبنية وكان بالطبع لذيذاً يستعمله الملوك والأشراف. من هذا نعلم إن أبا إسحق كان طبيباً للملوك والأشراف.

رغم أننا لم نعثر على شواهد في كتبه تشير إلى قيامه بوصفة أو علاج أو حتى إجراء عملية لأمير المؤمنين أو أحد الأشراف. رغم أننا نعلم إن اللذين سجلوا كتبه في مختلف العصور وبشتى اللغات لم يشيروا إلى ذلك مطلقاً.

٢ - ربما انه لم يعش بالزهراء قرب الملوك كما سبق ذكره ولكنهـا كانت ملجأ لدراسته وتتبعه في مكتبتها العامرة كما قال عنه محمد بن هويات الحسن الرضوي في كتابه عن التصريف حيث قال ربما درس في قرطبة ومارس الطب فيها وتتبع دراسته في الزهراء ومكتبتها العامرة وكذلك قال عنه أيضاً - المراكشي - في كتابه البيان المغربي في أخبار الاندلس والمغرب حيث قال: استفاد من مكتبتها (الزهراء) التي جعلته يعرف الكثير عن

الطب في مختلف البلدان وهذا ما شوهد في كتبه وكذلك قال عنه القيصري وبروكلمان - إنه مارس الطب في قرطبة وربما استعمل مكتبة الزهراء الزاخرة - أي عاش بعيداً عن الملوك والامراء الذين انتقلوا وعاشوا بالزهراء بعد بنائها. ولكن هذا لا يمنع من أن شهرته قد تستدعيه للقيام بمعالجة هؤلاء الملوك وخاصة وهي لا تبعد أكثر من ستة أميال عن قرطبة.

٣ - وهناك سبب آخر جوهري يدفعه إلى التخلي عن الالقاب والامتناع عن الوقوف أمام الاضواء وذلك هو إن مهنة الجراحة كانت مهنة محتقرة في العصر الاسلامي الاول ومن دواعي الحطة عند العرب لانه لو أعلن عن مهنته الجراحية لتعرض للمقاطعة ووصف بشتى النعوت الوضيعة التي كانت تلازم هذه المهنة المنحطة آنذاك وقد حدثنا هو نفسه في مقالته الثامنة عشرة حيث يقول إنه لم يكن عالماً بما ذكرنا من التشريح يقع في خطئه بقتل الناس كما قد شاهدت كثير من تغور في هذا العلم وادعائه بغير علم ولا دراية. وكذلك يقول: إن العمل اليدوي في بلدنا معدوم وفي زماننا نجسة وهكذا نرى صعوبة القيام بالعمليات في العصر الذي كانت فيه للأموات حرمات وتشريحها محرم ولكن رغم ذلك كما قال عنه (فرولخ) إنه شرَّح الموتى وربما أيضاً كانت مشاهداته للحروب تعتبر الاساس في تقدمه بالجراحة بعد فهم تشريح الانسان اثناء القيام بالعمليات عليه أثناء المعارك والحروب.

٤ - وربما يكون خائفاً من التقرب للملوك خشية إغاظة الحجّاب الذي يريدون أن يكونوا الكل أمام أمير المؤمنين. وخاصة بعد ما فعله الحاجب محمد بن أبي عامر يوم اتهم عدد من العلماء بالكفر مما أثار ضغينة الحاكم وأوغر صدره فأمر بقتلهم وحرق ما أنتجوه من علوم ومعرفة ومؤلفات فكان ابتعاده عن البلاط في محله إذا ما علمنا أن التهمة قريبة إليه لسبب تشريحه الموتى واشتغاله بالجراحة والدماء وهذا العمل بحد ذاته عمل قذر يبعد المشتغل به عن أداء شعائر الدين بصورة موقوتة. كذلك لم نعثر

على تشريع يحدد أعمال الاطباء في ذلك العصر كما كان الحال في بابل حيث كانت مدرسة الطب في بابل تعمل بحماية الدولة وتدار من قبل رجال الدين والاطباء وقوانين حمورابي تحمي تلك الامور وتراعيها.

٥ - لما تقدم إني أؤيد ما جاء في كتاب (فيلدي) عن الزهراوي حيث قال إنني أخبرت بأن الزهراوي رحمه الله كان متقشفاً للغاية وكانت نصف أشغاله اليومية يقوم بها مجاناً في سبيل الاحسان والصدقات وكان يكتب جميع مقالاته لأولاده خلال الاربعين سنة التي قضاها بالكتابة والتطبيب ونحن متأكدون جداً بأن الاولاد الذين يعنيهم أبو القاسم في كتاباته هو الجيل الذي اتبعه في مهنة الطب والدليل على ذلك انه يبدأ مقالته بصيغة الجمع (يا أولادي) ولكنه بعد استرساله في الحديث نجده فجأة يقول (يا ولدي) بصيغة الفرد وهذا نادراً ما يفعله عالم كبير كالزهراوي لو كان يتوجه في حديثه إلى أولاد من صلبه.

وهكذا نرى أن اندفاع الزهراوي في خدمة العلم وانشغاله في توفير العلاج للفقراء أبعده عن الملوك والأشراف واعتبر معالجتهم فيها مضيعة للوقت ويفوّت عليه الكثير من الفرص التي يرغب أن يقضيها في البحث والتقصي إضافة إلى كونه يعتبر مهنة الجراحة شريفة ويجب الحفاظ عليها كما جاء في الفصل الأول من-بحث الكسور - من الجزء الثلاثين ما نصه. نضطركم أولاً إلى فهمها والوقوف على حقيقتها وأنتم ومن كان حريصاً لتعلم هذه الصناعة الشريفة من غيركم.

خلال البحوث الطويلة عن الزهراوي رحمه الله لمختلف الكتّاب والعلماء لم نتعرف على من يرشدنا إلى الوقوف على حياته الخاصة وطريقة معيشته وهل له زوجات وأولاد إلى غير ذلك.

إن أهم مخلفاته - إن لم يكن الوحيد - هو كتابه (التصريف لمن عجز عن التأليف) والذي يقع في ثلاثين مجلداً. وقد جاء في كتاب قاموس

تراجم الاعلام الجزء الثاني الطبعة الثانية صفحة ٣٥٨ أنه إضافة إلى كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف له كتاب آخر وهو مخطوط باسم (تفسير الأكيال والاوزان) وربما يقصد به المجلد التاسع والعشرين من كتابه التصريف حيث بحث هذا الجزء بالأكيال والأوزان. ويذكر المؤلف في نفس الصفحة أن هناك مقالة أخرى في (عمل اليد) وهي مطبوعة وربما قصد بها الجزء (الثلاثون) من كِتاب التصريف ولم أعثر على كليهما بصورة منفردة ولكني طالعت الجزئين التاسع والعشرين والثلاثين فوجدت أنهما يفيان بما يقصد المؤلف من تلك العناوين. نستطيع أن نقول إن كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) هو كتابه الوحيد والذي تناقلته الأيدي بعد حرق الزهراء واحتلال قرطبة وكان ذلك في نفس العام الذي توفي فيه صاحبنا أبو القاسم.فتم الاستيلاء على كتبه من قبل اليهود الذين عاصروه في قرطبة ودرسوا على يده وقام هؤلاء بنقل أقواله ومعلوماته دون ذكر اسمه.

سمي كتابه بالتصريف - أي التبيان والايضاحات - وصنفه بثلاثين جزء كل جزء على شكل يعين القارىء على معرفة أي فصل من فصول المعرفة فخصَّ فحص الانسان بجزء يبدأ بفحص الرأس ثم الجذع فالأطراف العليا ثم السفلى بهذا السلس كان يوضح معلوماته للقارىء ليسهل فهمها وهكذا يجد القارىء منفذاً لمعرفة ما يريده عن علوم النظريات العامة حول الطب في الجزء الاول من كتابه التصريف ويستطيع أن يعرف الشيء الكثير عن تصنيف الامراض في الجزء الثاني ويعرف ما يريده عن الادوية المركبة في الجزء الثالث وعن الجراحة العامة في الجزء الثاني عشر وعن التغذية في الجزء السادس عشر وعن الزينة والتجميل في الجزء التاسع عشر وعن السعوطات والبخورات في الجزء الثامن عشر وعن اللعوقات في الجزء الثاني والعشرين وعن الكسي في الجزء الثالث والعشرين والسادس والعشرين والسابع والعشرين في الغذاء في الصحة والمرض وجزءه الثامن والعشرين في العقاقير واستعمالها والتاسع والعشرين في الأكيال والأوزان أما

الثلاثين فهو في الجراحة العلمية بعنوان - صناعة اليد - ترجمت كتبه بعد ظهورها ووفاته بقليل إلى اللغة العبرانية على لغة أهل كتالونيا وكانت بصورة مشوهة لأجل إظهار دور الطب الأوربي وقاموا بمسخ اسمه الكامل فكتبوه مرة (بوكاسيس) وأخرى (البوكاسيس) وترجم كتابه تحت عنوان (LI-BER SERVITORIS) ولو تصفحنا الانسكلوبيديا بريتانيكا لعام ١٩١٧ حيث يقول: أنشئت مدرسة طب في مدينة مونبلييه سنة ١٠٢٥ وكان التعليم على نسق عربي يهودي وإن كل كتبهم الطبية كانت إعادة طبع أو ترجمة الكتب العربية.

ترجم كتابه في القرن الثاني عشر إلى اللاتينية من قبل جيرار الصرموني وبقي كتابه قرابة خمسمائة سنة كأساس الجراحة يدرس في أوربا ويعتبر المفضل على سواه من الكتب الكلاسيكية الاغريقية التابعة لجالينوس كما جاء في الجزء الأول صفحة ٣٧ للانسكلوبيديابريتانيكا لسنة ٧٤ طبعة شيكاغو وهو ثالث العلماء المدرسين بولص الاجييني والرازي وبعد ثلاثة قرون ترجم ثانية من العبرية إلى اللاتينية وخاصة بعد طبعه من قبل نيقولا جنسون سنة ١٤٧٢ في فينيسيا وقد حذفت كلمة انشاء الله من جميع أقواله التي كان يرددها ويكتبها خلف كل معالجة أو وصفة وبهذا أطمست معالم كثيرة من وصفاته ودرست الكثير عن الحقائق المعروفة عنه وكان يكتب عنه بالزهراوي فقط أو السهراوي أو الاندلسي أو الأنصاري أو ابن عباس أو ابن عياش ومعظم تراجم أعماله كانت غير دقيقة وقد يعزى ذلك إلى تشابه بعض الحروف مثل - ب - ت - ث - ي - فتنقل بكلمات بعيدة عن المعنى الصحيح وخاصة إذا لم يكن الناقل طبيباً وهو الشائع.

ثم طبع الكتاب باللاتينية في أوغينبورغ ١٥٠٩ كما جاء في كتابه كشف الظنون وعيون الانباء وفي سنة ١٥٢٣ في استراسبورغ ومنذ سنة ١٥٤٢ طبعت كتبه في مدينة باسل حيث كانت تدرس فيها وكذلك في (ساليرنو) بواسطة روجرز ومن تبعه.

كما طبع في فلورنسا من قبل نيقولا وفالسيس وتعتبر أحدث طبعة لكتابه التصريف لمن عجز عن التأليف التي قام بها (يوحنا كاننك JOHANNIE CHANNING)عام ١٧٧٨ معتمداً على استنساخ عربي قامت به مكتبة (بولد هايم) كما جاء في الموسومة العربية سنة ١٩٥٩ صفحة ٩٣٠.

لقد أضاف علمنا إلى الجراحة الكثير من أفكاره وتجاربه النظرية والعلمية إذ إنه يعتبر أول من استعمل وسائل الايضاح الموضحة بالصور فقد حوت كتبه على أكثر من (٢٠٠) صورة تمثل طرق إجراء العملية وصور للادوات التي كان يستعملها في كل عملية وكان متفاني مع طلابه ومرضاه حتى إنه لم يشتغل بمهنة أخرى تبعده عن مواصلة أبحاثه وتتبعه العلمي، هذا ما قيل حتى من قبل خصومه وقد قال عنه (مسيو لاكلارك) في تاريخ الطب عند العرب: رغم تأثر الزهراوي بجالينوس وبولص الاجيني وخاصة الاخير لكن ملاحظاته الشخصية ذات الاثر الكبير في تطوير تلك النظريات ووصفه الدقيق المفصل ويذكر أنه استعملها شخصياً ولم يقم جراح عربي أو أعجمي بمثل ما قام به في تلك العهود وكان عمله هذا ذا أثر كبير على جراحة الغرب المسيحي، فهنا والحق يقال قد وفى مسيو لاكلارك حق هذا الرجل أكثر من أي شخص آخر.

يقول العلم الحديث في تعريفه للجراحة بأنها (علم وفن) أي دراسة نظرية وعمل يدوي لو تصفحنا كتابه في المقالة الثانية من تقاسيم الامراض وعلاماتها والاشارة إلى علاجها لوجدنا فيه فصلاً يقسم الطب إلى قسمين. علم وعمل. ويقسم العلم إلى ثلاثة أقسام، قسم بالامور الطبيعية وقسم يعلم الاسباب والقسم الاخير بالتعليل.

هكذا يقسم كل قسم من هذه الأقسام الى فروع متعددة فمثلا تتفرع من علم الأمور الطبيعية ثمانية أقسام وهكذا تتفرع وتتشعب الأقسام لتحتوي شتى العلوم فلا تفوته صغيرة أو كبيرة من أمور المعرفة ليكون على

بيّنة من أمره قبل استعمال يده في معالجة المريض إذ يقـول في ذلك: والسبب الذي لا يوجد صانع ماهر محسن بيده في زماننا هذا لأن صناعة الطب طويلة وينبغي لصاحبها أن يرتاض قبل ذلك في علم التشريح الذي وضعه جالينوس حتى يقف على منافع الأعضاء وهيئاتها ومزاجها واتصالها وانفصالها ومعرفة العظام والأعصاب والعضلات وعددها ومخارجها والعروق النوابض (الشرايين) والسواكن (الأوردة) ومواضعها ومخارجها هكذا جعل الطب علما قبل تفهم حالة المريض وشكواه.

ويصف الجراحة في قوله كما كملت لكم يا بني هذا الكتاب الذي هو جزء من علم الطب بكماله وبلغت الغاية فيه من وضوحه وبيانه فرأيت أن أكمله لكم بهذه المقالة التي هي جزء العمل باليد لأن العمل باليد مخسة في بلدنا وفي زماننا معدوم البتة حتى كاد أن يندرس علمه وينقطع أثره وإنما بقي منه رسوم يسيرة في الكتب الأوائل قد تصفحته الأيدي.

لقد اهتم الزهراوي رحمه الله بالجراحة كثيرا حيث خصص أبوابا كثيرة في بقية أجزائه إضافة الى جزئه الثلاثين كرسه للأعمال اليدوية أي الجراحة العملية لأنه يرى أن هذا الفرع رغم أهميته غـير متقدم وفيـه صعوبات جمة للوصول الى الغاية المتوخاة لتحقيق نتائج مرضية في معالجة المريض لذلك تجده يردد دائما مقولة (أبقراط) القائلة «إن الأطباء بالاسم كثيرون وبالفعل قليلون ولا سيما صناعة اليد».

إن الجزء الأخير من كتابه كان في غاية الابداع من النواحي العلمية والعملية وقد وفق كل التوفيق في الوصف والشرح وتقديم الايضاحات مما زاده روعة واتقانا حتى بات من السهولة بمكان تفيهم فحواه للدارسـين والمتعلمين وقد قال في الباب الثالث منه في الجبر أي جبر الكسور ما يلي:

(اعلموا يا بني أنه قد يدعي هذا بالباب الجهال من الأطباء والعوام ومن لم يتصفح قط فيه للقدماء كتابا ولا قرأ منه حرفا ولهذه العلة صار هذا

الفن من العلوم في بلدنا معدوم فاني لم ألق فيه قط محسنا البتة) أي أنه يرى العلة في عدم الدراسة والتتبع ومطالعة ما كتب عن ذلك الموضوع قبل البدء بالمعالجة.

بهذه الكفاءة والمقدرة والاطلاع العلمي الواسع استطاع الزهراوي أن يبز أقرانه من الأطباء ويصبح جراحا بارعا جريئا في الذي يعلمه ويزدري الجهال من الجراحين الآخرين وينعتهم بالجبناء حيث يقول بحقهم في الجزء الثالث والأربعين في بحثه في الشق على الحنجرة: إذا كان المعالج جبانا فينبغي أن يمد جلدة الحلق بصنارة ثم يشق الجلد حتى إذا صار الى القصبة جنب أوعية الدم إن رأى في أي منها شيئا لأنه يعلم لا توجد عروق نابضة أو غير نابضة من الجلد حتى القصبة. بينما نجد الزهراوي يعمل عمل الواثق من نفسه عندما يثق الرقبة مباشرة دون اللجوء الى طبقة من طبقات الرقبة وهو يعمل عمل الواثق من نفسه العليم بما يحويه هذا الجزء الحساس من جسم الانسان من أوردة وشرايين وأوتار صوتيه فيتجنب المساس بها ويحمي المريض من مضاعفات هو في غنى عنها. وفي الوقت نفسه نجد جراحنا البارع رغم جراءته وعظيم معرفته بما يعمل نجده حذرا ومحذرا.

كان رحمه الله ضد الاستغلال والارتزاق والشعوذة بعيدا كل البعد عما يعمله (الجهال) من الأطباء في الكسب والارتزاق واستغلال النفوذ بتقربهم لبعض القادة والسير في ركابهم بقصد ترويج صنعتهم ويدعوا مثال هؤلاء (بالمرتزقة) إذ يقول فيهم:

(رأيت طبيبا آخر يرتزق على بعض قواد بلدنا على الطب فحدث لصبي أسود كان عنده كسر في ساقه بقرب العقب من جرح فأسرع الطبيب بجهله فشد الكسر على الجرح بالرقائد والجبائر شدا وثيقا ولم يترك للجرح تنفسا ثم أطلقه على شهواته ثم تركه أياما وأمره أن لا يحل الرباط حتى تورَّم ساقه وقدمه وأشرف على الهلاك فدعيت إليه فأسرعت في حل الرباط

فنال الراحة من أوجاعه إلا أن الفساد كان قد استحكم في العضـو لم أستطع إرداعه فلم يزل الفساد يسعى في العضو حتى هلك.

فالعلة هي في جهل الطبيب وعدم تتبعه ودراسته فاذا استغل الطبيب الجاهل بعضا من علمه أصبح مشعوذا وخاصة إذا كـان ذلك الـطبيب مستندا الى بعض قواد البلد فأمن من العقاب ويستمر في عمله.

وكثيرا ما يصاحب العمليات الجراحية نزف وفقدان الدم وبهذه الحالة تفشل الكثير من العمليات الجراحية وخاصـة إذا كان الجـراح غير ملم بالتشريح وقليل من المعرفة بمواضيع العروق مما يعرضها للنزف أثناء عمله وخاصة في ذلك الزمان الذي لا توجد فيه عمليات نقل الدم لتعويض المريض ما قد يفقده من دم. لذلك نجد جراحنا يقول:

(ينبغي أن يكون التحذير منه أشد لأن العمل في هذا الباب كثيرا ما يقع فيه الاستفراغ من الدم الذي به تقوم الحياة عند فتح عرق أو شق ورم أو بط اخراج أو علاج جراحة أو إخراج سهم أو شق على حصاة ونحو ذلك مما يصحب كلها الضرر والخوف يقع في أكثرها الموت).

ولذلك نراه قد تفنن في طرق إيقاف النزف واتخذ لكل حالة طريقة خاصة كما سيتضح مما يلي من بحثنا هذا.

لقد ألح الزهراوي وحذر كثيرا وأوصى في دقة التشخيص قبل البدء بأي عمل جراحي لأن إخفاق الجراح في تشخيص الحالة التي هو بصدد معالجتها يؤدي الى هلاك المريض دون شك وقد يقع الطبيب بسبب جهله أو بسبب المعلومات الخاطئة التي يعطيها المريض نفسه بعد يأسه من الحياة وتفضيله الموت على ما هو عليه لذلك يوصي بقوله:

وأنا أوصيكم عن الوقوع فيما فيه الشبهة عليكم فانه قد يقع عليكم في هذه الصناعة ضروب من الناس يتضجرون من الاسقام فمنهم من قد ضجر من رمضه وهان عليه الموت وعيده الموت لشدة ما يجد من سقمه.

وفي الحقيقة إن الطبيب الـذي يركن الى شـرح المريض الكـاذب والاتكال في تشخيصه على مثل ذلك الشرح فقط يقع في أخطاء لا تحمد عقباها إذ أنها بقدر ما تسيء الى سمعة الطبيب توقع الضرر الكبير بالمريض نفسه إن لم تؤدي الى هلاكه لذلك نجد الزهراوي يقول:

(ومنهم من يبذل من ماله ويعينك به راجيا الصحة ومرضه قتال فلا ينبغي لكم أن تساعدوا من أتاكم ممن هذه صفته البتة).

ويقول كذلك «وقد نبهت في كل مكان يأتي من هذا الكتاب على العمل الذي فيه الضرر والخوف فينبغي لكم أن تحذروه وترفضوه لئلا يجد الجـاهل السبيـل الى القول والـطعن فخذوا لأنفسكم بـالحزم والحيـاطة ولمرضاكم بالرفق والتثبت واستعملوا الطريق الأفضل المؤدي إلى السلامة والعاقبة المحمودة. وتنكّبوا الأمراض الخطيرة العسيرة البرء ونزّهوا أنفسكم عما تخافون أن يدخل الشبهة في دينكم ودنياكم فهو أبقى لجاهكم وأرفع في الدنيا والآخرة لأقداركم».

وأخيرا وليس آخراً يحذر صاحبنا من التهور والمجازفة فيقول:

«رأيت طبيبا آخر قد تقدم في إخراج حصاة لرجل قد طعن في السن وكانت الحصاة كبيرة فتهور وأخرجها مع قطعة من جزء من المثانة فمات الرجل بعد ثلاثة أيام وكنت قد دعيت الى إخراجها فرأيت من عـظم الحصاة وحالة المريض ما قدرت عليه».

وهكذا نجده حذرا في كل عمل يقوم به رغم براعته وطول باعه في مضمار الطب والجراحة ويعمل على إطالة حياة المريض مهما كانت حالته فيقوم بالعمل الأفضل والمناسب لكل حالة دون اللجوء الى التهور كما كان لا يساعد المريض الميؤوس والذين تدفعهم حالتهم الصحية والنفسية الى أن يفضلوا الموت على الحياة ويمنع الطبيب من الانزلاق في إغـراءات المـال والتوسل بمباهج الدنيا بل النظر دائما أيهما الأفضل لإطالة الحياة وصحة المريض.

* * *

الغدة الدرقية عند الزهراوي

إن أمراض الغدة الدرقية كانت معروفة لدى العرب قبل الزهراوي وخاصة تضخمها وكانت تعتبر من قبل السِّلعة (بكسر السن) وهي أي السلعة كما جاء في كتاب ابن منظور جزء ٣٣ ص١٦٠ دار بيروت بمعنى الضواة أي أنها عبارة عن زيادة تحدث في الجسد مثل الغدة وقال الأزهري هي الجدرة تمور بين الجلد واللحم إذا حركتها وقد تكون لسائر البدن في العنق وغيره وتكون بحجم الحمصة إلى ضخامة البطيخة.

وفي حديث خاتم النبوة (ص) فرأيته مثل السلعة قال هي غدة تظهر بين الجلد واللحم واذا أغمزت باليد تحركت.

وفي معظم الكتب الطبية الصادرة باللغة العربية تنعت تضخم الغدة الدرقية حينا بالجدرة وحينا آخر بالسلعة ولكن الزهراوي رحمه الله ذكر عنها وبمناسبات عديدة شملت كافة تضخمات الغدة الدرقية وخصها بالذات باسم - فيلة الحلقوم - ولكنه خصَّ بعض التضخمات منها وسماها (السلعة) وسمى الحالات المصحوبة بتقرحات قوية عند الرقبة في الرقبة في بحث خاص مزجها مع الخنازير اذ قال ابن المنصور عن هذا النوع من التورم:

«الخنازير عبارة عن تقرح صلبة تحدث في الرقبة» وربما كانت بعضها أشبه بالسرطان المتقدم لهذه الغدة.

(فيلة الحلقوم) فقد ذكرها في الفصل الرابع والأربعين من جزءه الثلاثين من كتابه التصريف حيث قال عنها ما يلي:

(إنها تكثر في النساء ويكون ورما عظيما على لون البدن).

ويعني بهذا إن الأنسجة التي أمامها وحولها غير متغيرة ولونها بلون الجلد الذي يحيط أي منطقة أخرى. ويقسم حالاتها الى قسمين أساسيين من حيث الأعراض التي تصاحب التضخم حيث يقول:

(وهو على نوعين إما أن يكون طبيعيا أو أن يكون عرضيا) وأعتقد إنه يقصد بالنوع الأول منها بالطبيعية بمعنى طباعيا أي ترافق هذا التضخم طباع والطباع هذه خارج منطقة التضخم لأنه يقول عنها على لون البدن أي أنه ليس هناك أعراض موضعية تصاحب التضخم بل طباع أي أعراض أخرى تصاحب هذا التضخم خارج منطقة الرقبة وربما هي الطباع العامة وهي مما لا شك فيه التي نعرفها الآن بـ (تضخم الغدة الدرقية السامة) أي مصحوبة بطباع خاصة بها. وذكر عنها أيضا إن معالجة مثل هذه الحالة تقتصر على معالجة طباع المريض والأعراض التي تصاحبه ولم يتورط يوما بالقيام بأية مداخلة جراحية حيث قال عنها (فلا حيلة لها) هذا ما جاء في جزء الثلاثين لصناعة اليد ولكن معالجة الطباع كتب عنها بوصفات خاصة معظمها من لعوق الخشخاش إذ جاء في المقالة الثالثة والعشرين من الباب الثالث في وصفه لعوق الخشخاش الذي كان بصفة زميله (السبتي) لأمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد والذي سبق أن ذكرنا أنه يحمل ويمضغ وهو لذيذ نافع ومختبر.

ولا يفوتني أن أذكر بهذه المناسبة إن العلامة والمؤرخ الدكتور سامي حمارنة قد أسهب في شرح حالات معالجة مثل هذه الطباع وغيرها التي تصاحب تضخم الغدة الدرقية السابة في كتابه القيم عن أبي القاسم الزهراوي:
(PHARMACEUTICAL VIEW OF ALBUCASIS AL-ZAHRAWI IN MORISH SPAINLEIDEN) (1963 وقد أسهب في شرح كتاب الزهراوي الجزء الثامن والعشرون حيث خصّه للعقاقير.

أما النوع الثاني من (فيلة الحلقوم) والتي نعتها بـ (عرضية) أي أن ظهورها عرضي وغير مصحوب بطباع خارج منطقة الرقبة. وهو يقسم هذا النوع الى نوعين أيضا حيث قال:

(وأما العرضي فيكون على ضربين أحدهما شبيها بالسلع الشحمية) أي أنها مجرد تضخم بسيط حيث يقول عنها (غير مصحوبة بحرارة أو حمى أو أوجاعا وتحوي في كيس صفاقي يغلفها وتكون بحجم الحمصة أو بحجم البطيخة) وتعالج هذه الحالة بإجراء العملية كما ذكرها في الجزء الثلاثين في الفصل الخامس والأربعين في بحث - رفع السلع - يقول:

(والشق عليها طوليا وعندما تكون كبيرة فيكون الشق مصلبا ثم يعلق بالصنابير ويسلخ الجلد من كل جهة برفق ويحفظ الكيس إن استطعت ذلك ويخرج السلعة صحيحا فاذا خرق الكيس عند العمل ولم تستطع إخراجها فكثير ما يعرض ذلك فأخرجها قطعا حتى لا يبقى شيئا قلّ أو كثر وإلا عادت على الأكثر. فإن غلبك وبقي منها اليسير وكانت كبيرة فخيط شفتيها وإن اعترض عرق ضارب - شريان - أو غير ضارب - وريد - فاحشي الجرح بالزاج المسحوق واتركه حتى يتعفن ويسكن).

وهكذا نجد عالمنا الكبير الزهراوي لم يترك شاردة أو واردة من علوم الطب والجراحة الا وأشبعها بحثا وتدقيقا ونصحا وتوجيها وشدد في نصحه وتوجيهه وحذر العالمين في حقول الجراحة ما يتعرض له المريض في حالات النزف ومن الواضح جدا إن من أهم الصعوبات التي يلاقيها الجراح في عصرنا الحاضر عند رفع الغدة الدرقية هي النزف رغم تقدم علوم الطب وتعدد الوسائل التي يستطيع اتباعها في هذا المضمار. وقد وجدنا أن أبا القسم قد اتخذ شتى الوسائل في السيطرة على إيقاف النزف فاستعمل خيوط الحرير والبريسم والأمعاء الدقيقة. ثم ابتكر طريقة جديدة لايقاف النزف فكان أول من استعمل - الكي - بواسطة كاويات مصنوعة من الذهب الخالص وبأنواع وأحجام مختلفة فقد قال عنها (إنها أفضل من الكاويات المصنوعة من الحديد لأن الذهب يحافظ على الحرارة لمدة أطول من الحديد فضلا عن نقاوتها). أي لا توجد فيها بعض الأملاح المختلطة قد تكون سامة الى المريض. ولكي يكون استعمال الكاويات بالشكل الأمثل فقد

حذر من استعمال الكاويات قرب عرق كبير خوفا من حرق ذلك العرق مما يسبب نزفا شديدا فقال في فصل السادس والخمسين في كي النزف المتأتي عن قطع شريان:

كثيرا ما يحدث نزف الدم من شريان قد انقطع عند جرح يعرض من خارج أو عند شق ورم أو كي ونحو ذلك فاذا حدث ذلك فاسرع بيدك الى فم الشريان وضع عليه إصبعك ولا يخرج فيه شيء ثم ضع في النار مكاويا زيتونية صغارا وكبارا عدة عليها حتى تصير حامية جدا ثم تأخذ منها واحدة إما صغيرة وإما كبيرة على حسب الجرح والموضع الذي فيه انفتق الشريان حتى ينقطع الدم فإن اندفع عند رفعك الاصبع من فم الشريان وطفى المكوات فخذ مكواة أخرى بالعجلة من المكاوي التي في النار المعدة ولا تزال تفعل ذلك واحدة بعد الأخرى حتى ينقطع الدم وتحفظ أن لا تحرق عصبا يكون هناك فتحدث على العليل بلية أخرى.

ولا زال الطب الحديث مدينا لأبي القاسم الزهراوي بالشيء الكثير إذ تعتبر طريقة إيقاف النزف بواسطة الكي من أحدث الطرق المتبعة عندنا حاليا في كل عملية مع الأخذ بنظر الاعتبار تحاشي استعمال هذه الطريقة ومراعاة الدقة التامة عند التقرب من عصب وخاصة العصب الراجع حيث يؤدي المساس بهذا العصب الى إصابة المريض (بالبحة) إثر تمزق إحدى هاتين الحبال. كذلك الحال الامتناع من كي شريان أو وريد كبير أو الكي قرب أحدهما خوفا من حرقه وحدوث نزف شديد. وكان رحمة الله عليه يستعمل الاسفنج في تنظيف الجروح من الدماء أثناء العملية. كذلك استعمل طريقة فيزيزلوجية واقعية في إيقاف النزف - رغم أننا لا نستعملها الآن - لكنها من مشاهداته الحقيقية وقد قال في ذلك ما يلي:

(وإما ببتره - ويقصد الشريان - إذا لم يكن قد أبتر فإنه اذا أبتر تقلصت طرفاه وانقطع الدم) وهذه حقيقة علمية تتلخص في أنه إذا كان شق الشريان غير كامل تكون حافاته قد تقلصت وتصبح الفتحة واسعة مما

يساعد على النزف الشديد ويعكس ذلك عندما يكون القطع كليا تكون حافات الشريان قد تقلصت بشكل دائري على نفسها فتصبح فوهة الشريان صغيرة مما يساعد على إيقاف النزف وخاصة إذا كان الشريان صغيرا لأنه يقول (واعلم أن الشريان اذا نزف منه الدم فانه لا يستطاع قطعه ولا سيما اذا كان الشريان عظيما) وهي حقيقة تشريحية فيزيولوجية واضحة لأنها تؤدي الى تموت العضو المغذى بذلك الشريان العظيم أي لم يكن قد هلك من النزف وثمة طريقة أخرى استعملها الزهراوي في إيقاف النزف وهي بواسطة التجميد قال في ذلك:

(فان عرض لأحد نزف ولم يحضر طبيب ولا دواء فليبادره بوضع الاصبع السبابة على فم الجرح نفسه كما وصفناه ويشده جدا حتى ينحصر الدم ويسكب من فوق الجرح على الشريان والاصبع لا يزال عليه بالماء البارد البرودة دائما حتى يجمد الدم ويغلظ وينقطع وفي خلال ذلك ينظر فيما إليه من كي أو دواء انشاء الله تعالى وتقدس).

هنا نراه يقول (ويغلظ من جراء البرودة) والعلم الحديث يقول اذا انخفضت درجة حرارة الدم الى (١٠) درجات مئوية عن حرارته الاعتيادية فان لزوجة الدم تزداد (٥٠٪) أكثر من اللزوجة السابقة وهذا ما يقصده الزهراوي بكلمة (يغلظ) وهكذا يكون معرضا للتخثر أسرع من السابق وهو يقول (حتى يجمد) أي بمعنى ويسترسل فيقول (وينقطع) أي عندما تزداد لزوجة الدم ويتخثر في الشريان ينقطع النزف ونحن نستعمل في الوقت الحاضر طريقة التجميد في إجراء عملية الكلى وكذلك الحال بالنسبة لعملية الأعضاء الأخرى إذ إن هذه الطريقة تمكن الجراح من القيام بعمله دون أن يتعرض المريض الى نزف شديد ويستطيع الجراح أن يبصر في آفة تلك العضو بوضوح أكثر لخلو المنطقة من الدم التي تؤثر على التبصر في الآفة وهكذا نجده يقول (ومن خلال ذلك ينظر فيما إليه من كي أو دواء) أي إن توقف الدم قد يكون وقتيا أثناء التجميد وربما يعود النزف فيتوجب

على المعالج أن يبادر الى معالجة النـزف معالجـة جذريـة حسب ظروف العملية.

وطريقة أخرى كان يستعمل المواد المحرقة في إيقاف النزف فقال في ذلك (فإن غلبك الدم حين عملك فضع عليه زاجا مسحوقا حتى ينقطع ثم عد الى عملك) وكذلك نستعمل الآن بعض المواد المحرقة كنترات الفضة (حجر جهنم) وما شابه في إيقاف بعض الأنزفة السطحية. وختام قوله ثم عد الى عملك أي إنه يرى أن النزف حدث طارىء لابد منه في كل العمليات اتخذ له العدة قبل البدء بالعملية المطلوبة فلم يرهبه وتراه يعود الى عمله بعد التغلب على هذا الطارىء الذي يكون في بعض الحالات أشد خطورة على المريض من العلة الأصيلة التي هو في صدد إجراء العملية الجراحية لها هكذا كان الزهراوي يرفع الغدة اذا كانت بسيطة والتي يشبهها بـ (السلع) يعد ان يتجنب المساس بالعروق النابضة والعروق الساكنـة والأعصاب أثناء العملية أما الضرب الثاني من النوع العرضي يقول:

(شبيها بالورم الذي يكون تعقد الشرايين وفيه خطر ولا ينبغي أن تعرض له بالحديد بالبتة) وأعتقد أنه كان يقصد بذلـك الأورام الخبيثة والغريب إنه لا يستعمل الكي في مثل هذه الحالات بصورة مطلقة حينما نجده يقول في الفصل الخمسين في باب الكي للسرطانات - (إذا كان السرطان مبتدىء وأردت أن توقفه فاكوه بمكواة الدائرة الحولية كما تدور وقد ذكر بعض الحكماء أن يكون كية بليغة في وسطه ولست أرى أنا ذلك لأنني أتوقع أن يتقرح وقد شاهدت ذلك مرات فالصواب أن يكون حواليه بدائرة كما قلنا وبكميات كثيرة) هكذا كان يعالج السـرطان ولكنـه يوقف عن استعمال هذه الطريقة في الغدة الدرقية لعلمه الواسع على غزارة الأوردة والشرايين الكبيرة والصغيرة في هذه المنطقة خوفاً حيث قال (خوفاً من تفجير تلك العروق).

وقد قسم هذه الأورام التي قال عنها على شكل تعقد الشرايين إلى ثلاثة أنواع:

١ - منها ما كان صغيراً فعالجها بالعملية كالسلعة وقال عنها (فتشها بالمدس فإن لقيتها تشبه السلعة الشحمية ولم تكن متعلقة بشيء من العروق فشقها كما تشق على السلع وتخرجها بما في حوزتها اذا كانت في كيس) وهذا خير وصف لمعالجة سرطان الغدة الدرقية البدائي الذي لا يزال داخل الضفاف بفصله عن بقية الغدة الدرقية بعضا يكون الشفاء الكافي.

٢ - والنوع الثاني هو ذلك الورم الذي لا يحتوي على غشاء صفاقي كامل في جميع أطرافه ولكنه منتشرا مع الغدة فيجب ملاحظته جيدا أثناء العملية والتأكد من عدم ترك أي جزء من الورم.

وقال فيها (وإذا كانت منتشرة خارج الكيس فاستقصي جميعها ثم عالج الموضوع كما ينبغي) أي إبحث عن مدى انتشاره بالغدة ومقدار رفع الغدة مع ذلك الورم حسب الحالة التي هي عليها حيث يترك لخبرة الطبيب ومدى تقدم المرض.

٣ - ويقول عن النوع الثالث من تلك الأورام إذا كانت منتشرة خارج حدود الغدة أي أنها متعلقة بأشياء قريبة لتلك المنطقة فاتركها دون عملية لأنه يرى الخطورة في العملية مما يؤدي إلى قطع بعض العروق القريبة المتعلقة بها التي تؤدي إلى هلاك المريض فينصح بتركها. وقد تطرق الزهراوي في فصل الخنازير إلى بعض أنواع السرطانات للغدة وانتشارها إلى الغدد اللمفاوية وتقرحاتها إلى الخارج فلم يستعمل الكي في مثل هذه الحالات خوفاً من النزف لذلك نجده يستعمل الشق الطولي لاستخراج الغدة متجنباً بذلك التعرض للعروق فيقول في الفصل الثاني والأربعين في الشق على الخنازير العنقية بما يلي:

(وكل خنزيرة منها تكون داخل صفاق خاص لها كما يكون في السلع

وأورام الرأس كما وصفنا وأنواع هذه الخنازير كثيرة منها متحجرة ومنها ما تحوي على الرطوبات ومنها خبيثة لا تجيب إلى العلاج كما رأيت منها خشنة الحال في اللمس وكان ظاهرها قريباً من لون الجلد تتحرك إلى كل جهة ولم تكن ملتزمة بعصب العنق ولا بوداج ولا شريان ولا كانت غائرة فينبغي أن تشقها شقاً بسيطاً من فوق إلى أسفل البدن على هذا الشكل من خط ج إلى خط ب وتسلخها من كل جهة وتمد شفتي الجلد بصنارة أو بصنارتين أو بصنانير كثيرة إن احتجت إلى ذلك كما قلنا في أورام الرأس وتخرجها قليلاً قليلاً على أن لا تقطع عرقاً أو عصباً وليكن المضغ ليس بحاد جداً لئلا تزل يدك بالقطع أو يقلق العليل فتقطع ما لا تحتاج).

وأخيراً استعمل طرق إطالة الحياة في الحالات المتقدمة من المرض كشق الحنجرة. وقد قال في الفصل الثالث والأربعين عن شق الحنجرة:

(ينبغي أن يجتنبوا شق الحنجرة إذ لا ينتفعون بذلك من أجل إن جميع الأوردة والرئة تكون سقيمة) بما تقدم نجد الزهراوي رحمه الله ميالاً إلى شق القصبة الهوائية التي تستعمل عادة في معالجة الأورام خاصة الضاغطة على القصبة الهوائية لأن العمل آنذاك في شق القصبة هو وجوب فتح القصبة عرضياً بين الحلقات لعلمه إنه لو شقت القصبة الهوائية طولياً لتعذر التآم الجرح بسبب تعرض الغضروف للشق مما يعيق التآم الجرح لأنهم يعتقدون أن الغضروف لا يلتئم بالاضافة إلى أنه لو استعمل الشق العرضي وقد يحتاج إلى شيء من السعة حيث تتعرض الأعصاب الصوتية التي تقع على جانبي القصبة إلى القطع وفي حالة رفع الانبوب قد يؤدي بوفاة المريض خاصة إذا قطع العصبين الصوتيين وإلى البحة في حالة قطع عصب واحد حيث يقول في الفصل الثالث والأربعين من جزء الثلاثين في الشق على الحنجرة:

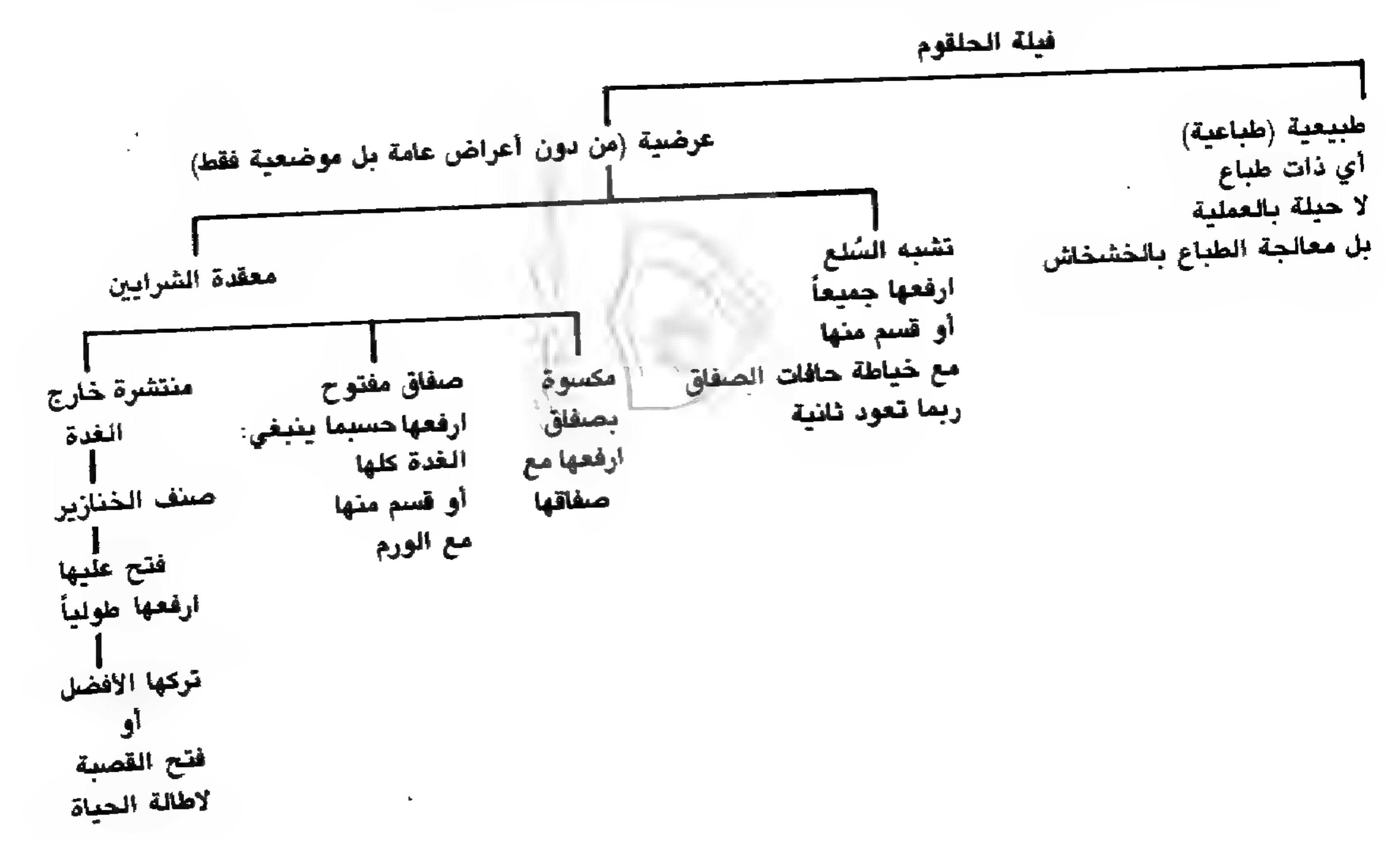
(فينبغي إذا أردنا ذلك أن تشق الحنجرة تحت ثلاث دوائر من دوائر القصبة أو أربعاً شقاً صغيراً بالعرض فيما بين الدائرتين بقدر ما يكون الشق في

الصفاق لا في الغضروف إذ أن هذا الموضع موافق للشق بسبب خلوه من اللحم وبعده عن أوعية الدم).

إن تخوف أبا القاسم من شق الغضروف لعدم التآمه هو حقيقة فيزيولوجية هو عدم التآم الغضروف عند قطعه ولكن لا يمنع من الشق فيه لأنه يلتئم حينئذ بالتليف فقط. وإيصائه بأن يكون الشق صغيراً جهد الامكان بسبب قرب الأعصاب الراجعة في تلك المنطقة على جانبي القصبة فيتحاشى قطعها مما دعاه على تحاشي استعمال هذه العملية ونراه يقول (الذي شاهدته بنفسي أن خادماً أخذت سكيناً فأرسلته على حلقها فقطعت به بعض قصبة الرئة فدعيت إلى علاجها فوجدتها تخور كما تخور المذبوح فكشفت عن الجرح فوجدت الدم الذي خرج من الجرح يسيراً فأيقنت أنها لم تقطع عرقاً ولا وداجاً والريح تخرج من الجرح فبادرت فخيطت الجرح وعالجته حتى يبرأ ولم يعرض للخادم شيء إلا بح في الصوت) ربما قطع إحدى الحبال الصوتية ويختم الزهراوي كلامه في هذا الفصل:

(إذا رأوا العليل قد سدَّ حلقه أحد هذه الأورام وأشرف العليل على الموت وهم نفسه أن يتقطع ذهبوا إلى شق الحنجرة ليتنفس العليل من موضع الجرح بعض التنفس ويسلم من الموت).

وهذا شكل يمثل كيف كان يقسم أمراض هذه الغدة من ناحية تضخمها ومعالجتها:



بهذه الفكرة الوجيزة في الطرق الجراحية لمعالجة الغدة الدرقية نراه رحمه الله قد أحاطها بكافة آفاتها واستعمل كل السبل الجراحية الممكنة لمعالجة كل حالة من حالاتها بإسهاب وهكذا كان يقوم بعملياته لكافة الأعضاء بتلك المعلومات الواسعة حيث جعلت منه جراح وطبيب وأستاذ عصره بحق ولقرون عديدة ولا تزال أعماله نسير عليها ولكن بتكنولوجيتنا الحديثة.

* * *

وهذه الصفحات من الجزء الثلاثين في «التصريف لمن عجز عن التأليف» يريك كيفية إجراء العمليات وبعض الأدوات التي كان يستعملها:

ABU-EL-KASIM EL ZAHRAWY

ALBUCASIS

DE

CHIRURGIA.

ARABICE ET LATINE.



TOMUS PRIMUS.

CURA

JOHANNIS CHANNING,

NATU ET CIVITATE LONDINENSIS.

OXONII:

E TYPOGRAPHEO CLARENDONIANO.

M DCC LXX VIII.

صورة مدس كبير

صورة مدس وسط

صورة مدس صغير

يصنع من الحديد الفولاذ مربعة الأطراف محكمة

لتسرع الدخول في الأقدام • وهذه صورة المسامير ويسمى

البرذ واحدها بريد وهي ثلاثة أنواع أيضاً منها كبار

وأوساط وصغار • صورة مسمار كبير هذا

صورة مسمار وسط

صورة صنارة عمبة كبيرة



صورة صنارة عمبة وسط

صورة صنارة عمبة صغيرة

صورة صنارة كبيرة ذات الخطفين

صورة صنارة وسط ذات الخطفين

صورة صنارة صغيرة ذات الخطفين

بالمدس فالفيتها تشبه السلعة الشحمية ولم تكن متعلقة بشيء
من العروق فتشقها كما تشق على السلع وتخرجها بما يحويها من الكيس
ان كانت في كيس والا فاستقصي جميعها ثم عالج الموضع بما ينبغي
من علاج

الفصل الخامس والاربعون في الشق

على انواع السلع . انواع السلع كثيرة وقد ذكرت جميع انواعها
في التقسيم وينبغي ان نخبر هنا بالفرق بين السلعة والخراج اذ هو لا
فاقول ان الخراج يكون معه حرارة وحمى واعراض مخصوصة حتى تهراه
غليان الفضلة ويسكن العفن فتسكن الحمى والحرارة والسلعة لا يكون
معها حرارة ولا حمى ولا اوجاع وتحويها كيس صفاقي هو لها ظرف
خاص ويكون على لون البدن ويكون ابتداؤه كالحمصة ويصير
كالبطيخة واكبر واصغر وهي على نوعين اما شحمية واما انها
تحوي رطوبة والوان الرطوبة تكون كثيرة على ما ذكرت
في التقسيم فينبغي اذا صرت الى علاج السلعة ان تمتحنها

والسبب الذي لا يوجد صانع محسن

بيده في زماننا هذا لان صناعه الطب

طويلة وينبغي لصاحبها ان تتوناض

قبل ذلك في علم التشريح الذي وصفه.

جالينوس حتي يقف علي منافع (٢)

الاعضاء وهياتها ومزاجتها واتصالها

وانفصالها ومعرفه العظام والاعصاب

والعضلات وعددها ومخارجها والعروق

النوابض والسواكن ومواضع مخارجها.

ولذلك قال ابقراط ان الاطبا بالاسم

كثيرة وبالفعل قليله ولاسيما صناعة.

اليد

وتفتشها اولاً بالآلة التي تسمى المدس على ما يأتي صورتها في باب

الذي بعد هذا وصفة تفتيش الأورام والسلع كلها ان تأخذ

هذه الآلة وتدسها في أنطب مكان تجد في الورم وانت تدير

اصبعك بها قليلاً قليلاً حتى تعلم ان الآلة قد انفذت الجلد

ثم أمعن يدك على قدر عظم الورم ثم أخرج المدس وانظر

الى ما يخرج في اثره فان خرج رطوبة سيالة اي لون كان

فتشقها شقاً بسيطاً على ما ذكرت في سائر الاورام وان

لم يخرج في اثر المدس ..... رطوبة

فاعلم انها لحمية فتشق ..... عليها شقاً

صليباً على هذه الصورة كما اعلمتك وعلقها بالصنانير

واسلخ الجلد من كل جهة برفق وتحفظ بالكيس

ان استطعت على ذلك ان تخرجه صحيحاً مع السلعة

فان انخرق الكيس عند العمل ولم تستطع اخراجه صحيحاً

الرسول صلى الله عليه وسلّم ومَوقفه من العلم

بقلم
الشيخ/حسين جوزو
(يوغوسلافيا)

حضرة الرئيس:
إخواني وأصدقائي الاعزاء:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد،

فإنه ليسرني أن أقدم أخلص شكري للقائمين بتنظيم هذا المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، لما فيه من عمل جليل وخدمة بالغة لخير الإسلام والمسلمين وليس هذا بمستبعدٍ من إخواننا المسؤولين في دولة قطر مثل أخينا العزيز الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري.

كما أتشرف بتقديم شكري الخاص لرئيس اللجنة التحضيرية للمؤتمر فضيلة الشيخ عبد الله بن ابراهيم الأنصاري على أن يشرفني بتوجيه الدعوة حيث مكنني من الحضور والمشاركة في هذا المؤتمر الذي له أهمية تاريخية بل في منتهى الأهمية. ويكفي في بيان مدى أهميته التاريخية أنه ينعقد في مستهل السنة التي ينتهي بها القرن الرابع عشر الهجري، وتدخل الهجرة بها في القرن الخامس عشر. وفي هذه المدة الطويلة من التاريخ مرّ الإسلام والمسلمون بمراحل وأطوار مختلفة تداول وتبادل وتناوب فيها المدّ والجزر،

والتقدم والتأخر، والانتصار والتقهقر، وكانت هناك محن متعددة ونكسات وكوارث ذات عبر وآيات ونذر. وعلى الرغم من كل ما مرَّ به من المحن والابتلاء والفتن ذات الأنواع والألوان المختلفة، فإن الإسلام حينما يدخل في القرن الخامس عشر الهجري يدخله وهو حيّ وقائم وثابت وصامد كل الصمود أمام جميع المحاولات العدوانية والهجمات، وأمام جميع الأفكار والنظم والفلسفات والتيارات الهدامة التي استهدفت ولا تزال تستهدف القضاء عليه.

ولا يفوتني أن أحيي بهذه المناسبة أصحاب المعالي والفضيلة والسادة المشاركين في هذا المؤتمر وأحمل إليكم تحيات إخوانكم مسلمي يوغسلافيا الذين كان لهم، بدون شك، نصيب لا يستهان به في القيام بالدعوة الإسلامية وأداء رسالة الإسلام ونشره في جزء مهم من البلاد الأوروبية، ولا يزالون يقومون بهذه الرسالة غير مبالين بما يواجهونه من ظروف وصعوبات وتضحيات وما يلاقيه المسلم في البلاد الأوروبية من الغزو الفكري الذي قد لا يمكن أن تتصوروا شدة ضغطه وزحفه على النشىء الجديد، لأن بلاد أوروبا، كما هو معلوم، غنية جداً بأفكار متنافرة ونظم مختلفة ومذاهب عقائدية متضاربة... وفلسفات وآراء وإن تعدوها لا تحصوها لكثرتها واختلاف أنواعها. فالقيام بمهمة الدعوة الاسلامية في مثل هذه البلاد ليس بأمر سهل.

وبعد كلمة التحية هذه بودي أن أتكلم باختصار بكلمة قصيرة في موضوع: (الرسول وموقفه من العلم) ولكن بأسلوب يختلف عن الاسلوب التقليدي الكلاسيكي الذي اعتاد الباحثون في الموضوع اتخاذه واستعماله، وكان منهجهم ينحصر دائمًا في ذكر الآيات والأحاديث التي تحثّ على طلب العلم وتدل على فضله وفضل أهله.

إن أسلوب ومنهج بحثي لا يقوم على سرد وترديد تلك الآيات

والأحاديث التي سمعناها مئات المرات فحسب كيف وهو لا يبلى على كثرة الترداد؟.

ومن زمن بعيد وأنا أفكر في موضوع الإسلام وموقفه من العلم بدأ لي أن هناك ناحية مهمة جداً في الموضوع لم يتصد لها الباحثون ولم يوجهوا إليها عنايتهم واهتمامهم العلمي. وإنما أهملوها إهمالاً باتا وتغافلوا عنها وهذه الناحية تتلخص فيما يلي:

من المعلوم بالضرورة أن رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أختتمت بها سلسلة النبوات ولذلك كان رسولنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين والمرسلين ولا نبي بعده.

والثابت أن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وبعبارة أخرى بالقرآن بوصفه الكلمة الأخيرة للوحي انتهت فترة الخوارق التي كان أصحاب الرسالات في الأزمان السابقة من الأنبياء يثبتون بها صدق وصحة رسالتهم وبعثتهم.

ولا حاجة بنا أن نستعرض هنا ما قصّ علينا القرآن من أنباء تلك الخوارق التي أيّد بها سبحانه وتعالى رسله بالآيات المعجزات لأن ذلك معلوم لكل من له أدنى إلمام بالدين وقد ذكر وسجل القرآن كثيراً من تلك الخوارق المتعلقة بالتحدي للكفار وبإثبات صدق دعوة الأنبياء وبعثتهم.

وقد انقضى عهد الخوارق - كما قلنا ببعثة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم واستثناه سبحانه وتعالى عن غيره من الأنبياء السابقين، فلم يؤيد بعثته بالخوارق والآيات الميتافيزقية فقط، وإنما أيدها بالقرآن وآيات الكون. وقال الله تعالى مخاطباً لخاتم أنبيائه ورسله ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير، وما مسني السوء إن أنا إلاّ نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ (الاعراف ١٨٨). وقال: ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض

أو سلمًا في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين. إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثمّ إليه يرجعون﴾ (الأنعام ٣٥).

وقد ثبت أن القرآن أنهى عهد الخوارق وفتح عهد العقل والتفكر والتدبير والنظر إلى آيات الكون وإلى ما تحتوي عليه الطبيعة من الأسرار والعجائب كما أطلق للانسان حريته الكاملة بجميع أنواعها بما فيها حرية الضمير والعقيدة والرأي فحريته غير مقيدة، إنه حر في إرادته واختيار ما يقدم عليه مما يباشر من أعماله وأفكاره وآرائه واعتقاده. يقول الله تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه. بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ (الكهف ٢٩-٣٠). وجاء في القرآن الكريم: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعها أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين. وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون. قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ (يونس ٩٩-١٠٠).

ومن المؤكد إن ما يمتاز به عهد رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن أخص خصائصه هو سيادة الوحي والعلم والاعتماد عليهما بدل الخوارق والكهنة والعرافة والتنجيم طبعاً في حدود إمكانيتهما كما سنبين ذلك في مكان آخر من هذا البحث.

دعا القرآن إلى السير في الأرض والنظر إلى الكون، والتأمل فيها وإلى ما جرى في التاريخ من حوادث وإلى أخذ العبر لأمم وأقوام ودول يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أكثر منهم﴾ (غافر ٨٢).

﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض﴾ (آل عمران ١٣٧).

﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ (النمل ٦٩).

﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ (العنكبوت ٢٠).

إن التفكر والتفكير في نظر الإسلام من أفضل العبادات ومن المأثور أن فكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة وأقرب الناس إلى درجة النبوة أهل العلم والجهاد (وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب)[1].

ويكفينا في معرفة منزلة العلم ومكانته في الإسلام أن نلاحظ أن الله تعالى اختار الإنسان أن يكون خليفته في الأرض، وسخر له كل ما في السماوات وما في الأرض، وشرفه بهذه المهمة العظيمة، وفضله على سائر المخلوقات على الرغم مما أبداه الملائكة وأشاروا إلى بعض خصائص الإنسان السلبية من إفساد وسفك الدم، وذلك لأن الإنسان يحمل في طبيعته وجوهر كيانه القدرة على العلم والمعرفة. وقد ميَّزه الله تعالى وفضله على سائر المخلوقات بالعقل الذي يمكنّه من إدراك حقائق الأشياء وكشف نعم الله في الكون. ﴿وعلَّم آدم الأسماء كلها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال: انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنك انت العليم الحكيم﴾ (البقرة ٣١-٣٢).

هذا، ولكن يجب أن نعرف أن عقل الإنسان وعلمه يجري في حدود متناهية ونطاق معين ودائرة محدودة. إن العقل وما ينتج منه من علوم وفنون واكتشافات تكنولوجية غير كاف وغير واف لإسعاد البشر وتحقيق رفاهيته ورخائه. وغير قادر. . لادراك كنه الحقيقة المطلقة، وإنما يدرك مظاهرها وتجليات صفاتها، لأن الحقيقة. المطلقة وراء الكون والكون ليس إلاّ آية من آيات هذه الحقيقة.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حيان في صحيحه والبهيقي وقال: الترمذي: لا يعرف إلا من حديث عاصم بن رجاء من حيوة وليس إسناده عندي بمتصل.

ومن الخطأ الفاضح والانخداع الخطير، الاعتماد المطلق على العلم فقط، والثقة التامة به ظناً أن الإنسان يكتفي به في حياته، ولا يحتاج إلى غيره. وهذا ما وقعت فيه الحضارة الحديثة واتسمت به. وقد آمنت بالعقل والعلم إيماناً مطلقاً، واعتمدت عليهما اعتماداً كاملاً، وتجاهلت وتناكرت لسواهما، فحدث لها ما حدث من إنحراف وانحلال وإنكار للفضيلة والقيم الروحية، ومن عدم الطمأنينة والاستقرار في الحياة وفي نفوس الناس. إن الإنسان يعيش في قلق مستمر واضطراب متواصل وخوف دائم. وعلى الرغم من التقدم الباهر والمنتجات والمنجزات الضخمة في جميع حقول الحياة فإن العالم المعاصر في مأزق لعل الله يجعل منه مخرجاً وقد طغت فيه الماديات طغياناً لا مثيل له في التاريخ، وأصبحت القوة تسيطر بجبروتها وتتحكم في جميع الأمور وصار الإنسان عبداً للآلة وانحطت قيمته وحلت محله وقامت مقامه العقول الالكترونية - كومبيوتر، وبهذا أصبح الإنسان بمثابة دودة زائدة بدون وظيفة وكأنه لا حاجة إليه، قد يستغنى عنه.

ومن هنا تبينّ لنا وثبت ثبوتاً لا يتطرق إليه أي شك أن الإنسان لفي خسر وإنه لفي خسر مهما تقدم في العلوم، ومهما أنتج من مختلف المنتجات ومهما وصل إليه من حضارات وإنجازات مادية والواقع إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر فهؤلاء لفي سعادة ويمن وبركة.

ومعنى ذلك أن العلم بدون الإيمان بالله لا يضمن السعادة وفي الغالب يساء استعماله، كما حصل ذلك في الواقع في عهدنا، فإنه قد أسيء استعماله وأصبحت اكتشافاته تهدد البشرية بإبادتها مباشرة أو غير مباشرة، أعني بالأسلحة النووية أو بتلوث النفوس والهواء والماء وكل هذا قائم يعمل عمله وينذر بالويلات والنتائج الوخيمة المؤلمة.

العلم بدون الإيمان غير مفيد، لذلك قال الله تعالى في أول آية نزلت

على الرسول (إقرأ باسم ربك)، فالعلم باسم رب العالمين معناه استعماله في خير الإنسان والمجتمع الإنساني ويتعذر إساءة استعماله، وكما يتعذر استخدامه في القتل والتخريب والتدمير وهذا ما حدث. مع الأسف الشديد في عهدنا.

ومع ذلك فإن الإنسان لا يستغني كذلك عن العقل، ولكنه لا يستغني كذلك عن أنه بحاجة إلى العلم، ولكن حاجته إلى القلب أشد، لأن إنسانيته تعتمد وتتوقف على القلب والهدى أكثر من توقفها على العقل والعلم. الإنسان يدرك بالعقل ويكتفي بالعلم، ولكنه يقبل الهدى، ويقبل عمل الصالحات بالقلب فالقلب يمثل ناحية مهمة من الإنسان، وهو مصدر الفضيلة والهدى والإلهام والإيمان، ومن ثم يجب الاهتمام بهذه الناحية.

وبهذه المناسبة يحسن بنا أن نذكر هنا أن الحضارة المعاصرة التي نسميها بالحضارة الأوروبية قد ارتكبت خطأ آخر، وهو عنايتها البالغة بالتعليم واهمالها التام بالتربية. أعني عنايتها بالعقل وإهمالها عنايتها بالقلب فتجد العالم المعاصر خالياً من القيم الروحية، وغنياً حقاً بالقيم المادية والمذاهب العقائدية والنظم الفلسفية والسياسية والاقتصادية، التي تنحصر برامجها في تحقيق وإنتاج ما يحتاج إليه الكيان الجسمي المادي للإنسان. وفي ذلك يكفي أن نذكر لك نظرية داروين وفرويد وماركس. وهذه النظريات كلها على اختلاف نزعتها الفلسفية والعقائدية اجتمعت على إنزال الإنسان ووضعه في درجة الحيوان من حيث نشأته ودوافعه النفسية وعلاقته بالكون فالإنسان في رأي أصحاب هذه النظريات كائن له هدف ولا غاية من وجوده ولا رسالة له سوى إرضاء شهواته من الجنس والأكل وقد اتجه الفكر الأوروبي وعلمه وفنه هذا الاتجاه المادي العلماني، فكان ما نشاهده اليوم من إنكار وجود الله وفقدان التوازن بين القيم الروحية والقيم المادية، وبين حاجات الجسم والروح.

إن مهمة العلم في نظر الإسلام هي كشف نعم الله وجعلها في خدمة

المصلحة العامة، أعني في خدمة الإنسان والمجتمع، وهو وسيلة خير إذا أحسنّا استعماله ووسيلة شرّ إذا أسأنا استعماله. وإن استعماله إذن يتوقف على الإنسان. فإذا كان العلم في يد رجل صالح يصبح أداة خير وبناء وإصلاح أمّا إذا كان في يد رجل شرير وذي فساد يصبح أداة تخريب وتدمير وقتل لذلك كان الرسول عليه صلوات الله وسلامه يستعيذ بالله من علم لا ينفع.

معناه أن الانسان مع حاجته إلى العقل والعلم فإنه في أشد الحاجة كذلك إلى هدى من الله وتقواه وهدى الله هبة وإلهام منه يعطيه لمن يشاء ويهدي إليه من يشاء. وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نطلب منه الهداية: إياك نعبد وإيّاك نستعين، إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. وهدايته تعالى مربوطة ومشروطة بتقواه ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، ولم يقل هدى للعالمين والعارفين. لأن الهداية في القلب لا في العقل. والدليل القاطع على ذلك هو عالمنا المعاصر الذي يسود فيه العقل والعلم سيادة كاملة، ولكنه خال من الهداية والإيمان والفضيلة، إذ يموت فيه كل سنة جوعاً أكثر من عشرين مليون نسمة وفي نفس الوقت تصرف وتنفق الدولة الغنية الراقية في التخريب والتدمير والقتل مئات المليارات... من الدولار. فيا للإنسان انه لفي خسر، ﴿إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾.

وعندما نبحث عن موقف الرسول من العلم كان أجدر بنا أن نتعرض لواقع المسلمين وموقفهم من العلم. إن موقف الرسول من العلم هو بعينه موقف القرآن منه، وموقف القرآن من العلم معلوم، ولكن ما الفائدة من التغني والترنم بهذا الموقف وحالة المسلمين وواقعهم من التخلف والضعف ونسبة الامية بينهم مما يؤلم ويؤسف له.

ولنا أن نتأمل لماذا هذا الواقع؟ ولماذا هذه الامية بين المسلمين

لا تزال منتشرة ونسبتها مرتفعة جداً تصل في كثير من البلاد الإسلامية مثل بنجلاديش وباكستان وأندونسيا وماليزيا وفي البلاد العربية وغيرها من البلاد الافريقية إلى ٨٥٪ حتى في الأقليات الإسلامية التي تعيش في أوروبا وغيرها من البلاد تجد نسبة الامية بين أفرادها تزيد على نسبة غيرهم، وإن كانوا يعيشون في نفس الظروف.

يجب أن ندرس هذا الواقع وأن نجيب على هذه التساؤلات وأن نجد المخرج والخلاص منه. أقول مقدماً بأني أعارض كل المعارضة، وأرفض كل الرفض محاولة تبرئة أنفسنا وإدانة غيرنا وإلقاء المسؤولية عليه لما أصابنا من الضعف والتأخر وأعتقد أن الرأي القائل بأن الاستعمار وحده سبب ضعف المسلمين غير صحيح بإطلاق والواقع أن الاستعمار وحده ليس سبباً لهذا الضعف وإنما جاء نتيجة له.

ورأيي أنه يتحتم علينا أن نعود إلى أنفسنا ونبحث عمّا فينا من أسباب ضعفنا وما أصابنا من كوارث ونكسات ومصائب. فما أصابكم من مصيبة فمن أنفسكم، وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

هذه قاعدة القرآن تجري عليها الحياة منذ وجدت، فهل لنا أن نعتبر؟.

محاولة لوضع أطلس للسيرة النبوية الشريفة والعصر النبوي

بقلم
الدكتور/ حسين مؤنس
رئيس تحرير مجلة «الهلال»
(قطر)

كتب المسلمون في السيرة النبوية الشريفة كما لم يكتبوا في أي موضوع آخر، ومن بين كتاباتهم مطولات تقع كل منها في مجلدات كثيرة مثل مغازي الواقدي التي تعتبر مرجعنا الأوفى عن مغازي الرسول صلوات الله عليه وسراياه وبعوثه بتفصيل واف ودقة تدعو إلى الاعجاب، وهو يتكلم عن علم دقيق بالجزيرة وأهلها وطرقها ومسالكها في العصر النبوي، ونحن ندرس المغازي عنده فنحس أننا مع دليل أمين يقص التاريخ على طريقة المحدثين من التثبت وتحري الحقيقة في كل واقعة يذكرها، ويحسب الانسان حين يفرغ من قراءة مغازيه أنه لم يدع كلمة تقال في المغازي إلا قالها. ومع هذه الفضائل كلها، ومع ثقتنا في أنه تحرى الحقيقة في كل كلمة كتبها إلا أننا نشعر عندما نفرغ من قراءته أننا عرفنا المغازي ولكننا لم نفهمها، لأننا في دراستنا للتاريخ اليوم لانكتفي بأن نعرف، بل لا بد أن نفهم، فنحن نقرأ عند الواقدي وغيره من ثقات كتاب السيرة أن أول سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم -بعد هجرته إلى المدينة- كانت سرية سيف البحر التي قادها حمزة بن عبد المطلب على رأس ثلاثين رجلاً في رمضان من السنة الأولى للهجرة (فبرا ير ٦٢٣م) وأن هذه السرية وصلت إلى ساحل البحر

الأحمر في موضع غير محدد، وأن هذا البعث كان يريد التعرض لعير قريش على رأسها أبو جهل عمرو بن هشام، وأن هذا البعث كاد يشتبك مع القرشيين لولا أن توسط بين الفريقين رئيس قبلي يسمى مجدي بن عمرو يقال إنه كان حليفاً للفريقين، فما زال يسعى بين الفريقين حتى حجز بينهما، وعاد حمزة إلى المدينة ومضى أبو جهل إلى مكة، ومن الواضح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بدأ بهذه السرية سلسلة من السرايا والغزوات هدفها استطلاع الموقف والأوضاع في المنطقة التي يسير فيها طريق التجارة المكية إلى الشام ثم السيطرة عليه كوسيلة للضغط على مكة وإشعار أهلها بقوة الاسلام وتجريداً لها من حلفائها تمهيداً لفتحها وإدخالها في أمة الإسلام، وهذا واضح من دراسة الأعمال التي قامت بها سريتا رابغ والخرار ثم غزوات الأبواء وبواط وبدر الأولى وذات العشيرة ثم سرية نخلة وهي التي أثارت موقعة بدر، فكل هذه الحركات العسكرية إنما أراد رسول صلى الله عليه وسلم من ورائها تأمين منطقة المدينة، وهي مهد جماعته؛ وإدخال القبائل النازلة على الطرق المؤدية إلى مكة وعلى طول الطريق التجاري بين مدينتي الحجاز الكبيرتين ووضع هذا الطريق تحت سيطرة المدينة.

ولكن هذه الحقائق لا تتبين على وجهها إلا إذا صنعنا مصوراً جغرافياً للحجاز وعيَّنا عليه مواضع الجهات التي قصدت إليها هذه الغزوات والسرايا. هنا فقط نرى بوضوح الأهداف البعيدة التي كان الرسول ينظر إليها وهو يرسم خطة النشاط العسكري للجماعة الاسلامية الناشئة إذ ذاك في المدينة.

وقد أتانا الواقدي -في الأغلب دون قصد- بإشارات تعيننا على تصور رسم للخطة العسكرية، فهو يحرص في معظم الحالات على أن يحدد جغرافياً موضع البلد الذي اتجهت إليه السرية، فهو يقول في كلامه على سرية رابغ «ورابغ على عشرة أميال من الجحفة وأنت تريد قديداً» فنفهم

أن المراد هنا رابغ الرمل لا رابغ البحر، وأن سرية حمزة وصلت إلى سيف البحر لتضع الطريق حتى ساحل البحر الأحمر تحت سلطان المدينة في حين أن سرية رابغ كانت ترمي إلى إشعار القبائل النازلة على طريق التجارة بأن منازلها في متناول المدينة وأنها لا ينبغي أن تكون في حلف مكة، ونفهم هذا من قول الواقدي في كلامه على غزوة الأبواء: «وفي هذه الغزاة وادع بني صخرة من كنانة على ألا يكثروا عليه ولا يعينوا عليه أحداً».

من هنا تنبهت إلى أهمية التصوير الجغرافي لمراحل السيرة النبوية خلا الفترة المدنية خاصة، لأن الذي وقع من حوادث السيرة خلال الفترة المكية ليس فيه ما يصور أو يفهم على ضوء الرسم الجغرافي إلا -ربما- رسم طبوغرافي دقيق لمكة على أيام الرسول ومنازل بطون قريش ودور الشخصيات الكبيرة التي نقابلها خلال الفترة المكية وهذا مطلب يكاد يكون مستحيلاً لأن أي محاولة لمثل هذا الرسم لا يمكن أن ترتكز على سند دقيق، ولقد قرأت الأزرقي مرة بعد مرة لكي أستطيع تحديد شعب أبي طالب فلم أستطع الخروج بشيء يعتمد عليه، بل إن أي محاولة لتحقيق موقع الدار التي ولد الرسول فيها أو داره التي سكن فيها مع السيدة خديجة رضي الله عنها لا يمكن أن تسفر عن نتيجة يمكن التعويل عليها، وربما استطعنا تحديد موقع دار الأرقم بن أبي الأرقم على وجه التقريب مستعينين في ذلك بما يحكيه ابن إسحاق عن إسلام حمزة وما كان من لقاء أبي جهل لرسول الله صلى الله عليه وسلم على طريق الصفا والرسول متجه إلى دار الأرقم.

ومن حسن الحظ أن نفراً من علماء العرب من أهل القرنين الثاني والثالث للهجرة عنوا بجغرافية الجزيرة العربية ووصف نواحيها وذكر قراها ومدنها وطرقها، واهتم نفر آخر منهم بالمواضع التي ورد ذكرها في السيرة النبوية والعصر النبوي وصدر الاسلام، وحرص بعضهم على ذكر الطرق التي سلكها رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته وتنقله في الحجاز،

ومن هؤلاء أبو عبيدة معمر بن المثنى وعبد الله بن قريب الأصمعي وأبو يوسف يعقوب بن شبية الخراساني وأبو إسحاق الحربي وجعفر بن محمد بن عياد المخزومي والوليد بن الحصين بن جمال بن حبيب الشرقي بن القطامي وعبد الله بن عمرو بن بشر الشكوني وأبو إسحق إبراهيم بن إسحاق الحربي وأبو علي هارون بن زكريا الهجري فقدموا لنا بذلك مادة عظيمة القيمة عن تلك المواضع والطرق كما كانت في العصر النبوي وصدر الاسلام قبل أن تتغير أسماء بعض المواقع أو تختفي، وقبل أن تتلاشى الطرق التي كانت معروفة في الجاهلية وصدر الاسلام، ومع أن ما كتبه رجال هذا الرعيل الأول من المؤلفين العرب قد ضاع أو لم يعثر عليه بعد، إلا أن علماء أجلاء من أهل القرن الثالث فصاعداً احتفظوا لنا بمعظم مادة هذه المؤلفات الأولى ونسقوها ورتبوها إما في موضوعات أو في معاجم، ونخص بالذكر هنا سلسلة الجغرافيين المسالكيين العرب الكبار:

ابن رسته والبلخي والأصطخري وأحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي والمقدسي وابن حوقل وأبو بكر أحمد بن محمد بن الفقيه الهمداني وعرام بن الأصبغ السلمي وأبو عبيد عبد العزيز البكري والحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ثم ياقوت الحموي. وعنده تجتمع كل تلك الأصول. ويهمنا من هؤلاء الأخيرين البكري والهمداني، فأما البكري فقد اعتمد فيما كتب عن جزيرة العرب وبلاد الحجاز خاصة على ابراهيم الحربي صاحب «كتاب المناسك» وأبي علي هارون بن زكريا الهجري صاحب «كتاب التعليقات والنوادر» وأبي عبد الله بن بشر الشكوني وعرام بن الأصبغ السلمي وهم أوثق من كتب عن جغرافية الحجاز، إذ أن ما يذكرونه في كتاباتهم التي ضاع معظمها إما يرد عن طريق المشاهدة المباشرة أو عن طريق النقل عن أصحاب المشاهدة المباشرة، فالحربي مثلاً يصف عقيق المدينة والطريق من مكة إلى المدينة عليه نقلاً عن عبد الله بن عمرو بن جميع «وكان أعلم الناس بالطريق من مكة إلى المدينة لكثرة سلوكه

إياه»[1]، وبالفعل نجد أن كلام البكري عن الحجاز وطرقه من أوثق ما لدينا، وقد قارناه بكل ما لدينا من معلومات وطبقناها على فقرات من نصوص التاريخ فتأكد لدينا ذلك، وكـان أكثر مـا انتفعنا به في ذلك الاشارات الجغرافية التي أوردها الواقدي في مغازيه من مثل قوله في كلامه على غزوة بواط «وبواط جبل من جبال جهينة من ناحية ذي خشب، بين بواط والمدينة ثلاثة برد» (١٢/١) وقوله في كلامه على سريـة عبيدة بن الحارث إلى رابغ: «ورابغ على عشرة أميال من الجحفة وأنت تريد قديداً» (١٠/١) وقوله في كلامه عن سرية سعد بن أبي وقاص إلى الخرار «والخرار من الجحفة قريب من خم» (١١/١) وما إلى ذلك من المعلومات الدقيقة النافعة التي يزداد نفعها إذا ذكرنا أنها ترد في ثنايا الكلام على المغازي، أي أنها تجيء في موضعها ونحن نقرأ النص التاريخي ونحاول أن نتتبع ما نقرأ على الخريطة، وهنا تكمن الأهمية التاريخية لهذه الملاحظات الجغرافية التي يأتينا بها الواقدي، فهي تعين معاونة حقيقية على تصور النشاط السياسي والعسكري الذي قامت به جماعة المدينة خلال سنوات الفترة المدنية من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن أمثلة ذلك أن الواقدي يقول أن «القاحة» التي تسمى أحياناً بوادي العبابيد على يومين من المدينة في حين أن البكري يقول إنها على ثلاثة أميال فحسب. والقاحة تقع جنوبي العرج، والعرج إقليم خصب واسع يضم قرى ومنازل، وهو من بلاد قبيلة (أسلم) القضاعية التي كان لها دور كبير جداً في تطور أحداث الفترة المدنية، وبين العرج والمدينة بالفعل يومان، وإذا كان البكري ومن نقل عنه قد أخطأوا في التقدير فذلك يرجع إلى أنهم كانوا يكتبون دون أن يكون للمسافات أو للزمن عندهم تقدير كبير، أما الواقدي فيؤرخ لأحداث، ولا بد أن يكون عنصر الزمن حاضراً في ذهنه، ولهذا فإننا نفضل ملاحظاته الجغرافية على غيرها.

---

(١) الحربي، المناسك، ٤٤٠-٤٤١.

وهذا الاهتمام بتقديرات الواقدي للمسافات وتحديداته للأوقات التي استلزمتها الأحداث لا يرجع فحسب إلى أنها تعين معاونة صحيحة على رسم خرائط السيرة، بل إنها تعين معاونة فعالة على تفسير أحداث السيرة نفسها وفهمها، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرسم خططه دون أن يعلن عنها أو عن غاياته من ورائها للناس، وإنما هو يمضي في تنفيذها خطوة خطوة، ثم نفاجأ في نهاية الأمر بالنتيجة التي ترسمها الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يبدأ العمل.

وأفسر ذلك فأقول أن غزوات الرسول وسراياه جميعاً تكون في الحقيقة خطة واحدة مترابطة المراحل، وكلها تهدف إلى نهاية واحدة محددة تتلخص في إدخال مكة وقريش في الاسلام من ناحية ثم في إقناع العرب بأن رسالة الاسلام رسالة سماوية ترمي إلى إدخال البشر جميعاً في دين الله، ونقطة البداية لذلك هي توحيد العرب جميعاً ليكونوا أداة نشر رسالة الاسلام في العالم كله. هذه النهاية المحددة كانت قائمة في تفكيره صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث سريته الأولى التي قادها حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر وهي قائمة وراء كل غازية أو سرية إسلامية بعد ذلك، فإذا نحن قرأنا المغازي عند موسى بن عقبة أو الواقدي أو ابن إسحاق لم نتبين الخيط الدقيق الذي يربط بين بعضها وبعض، ولكننا إذا رسمناها على مصور جغرافي تبين لنا هذا الخيط، لأننا سنرى أن كل واحدة من هذه الغزوات والسرايا كانت لها وجهتها الجغرافية والسياسية، فهناك غزوات وسرايا وجهتها غربي المدينة للسيطرة على طريق التجارة، وأخرى وجهتها الجنوب للاقتراب من مكة والتضييق عليها وحرمانها من حلفائها، وثالثة وجهتها شرقي المدينة وغايتها إدخال القبائل بين الحجاز ونجد في طاعة المدينة أو في حلفها على الأقل ويدخل ضمن هذه الغاية السيطرة على النجدية وهي طريق التجارة الرئيسي إلى العراق، ورابعة وجهتها الشمال وغايتها السيطرة على بقية طريق التجارة إلى الشام ثم إدخال القبائل والوحدات السياسية

شمال شبه الجزيرة في المجموعة العربية وإخراجها من المجال السياسي لدولة الروم والقضاء على ظاهرة العرب المتنصرة أو عرب الضاحية، وهذا ظاهر جداً في غزوات وسرايا مثل حسمي التي قادها زيد بن حارثة سنة ست للهجرة.

(أ) يستوقف النظر أن سرية حسمي تعين بداية النشاط السايسي والعسكري للمدينة في اتجاه الشمال، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن اطمأن على المدينة بعد فشل غزوة الأحزاب، وعرف أن كل خطر من ناحية قريش وقبائل الحجاز قد انتهى وجه اهتماماً خاصاً إلى الشمال، فبدأ بحسمي، وهي وراء أم القرى، ثم تلاها بسرية دومة الجندل وأميرها عبد الرحمن بن عوف، ثم غزوة زيد بن حارثة إلى أم قرفة وهي في نواحي وادي القرى، وبعد عمرة الحديبية في شوال سنة ست للهجرة تكون غزوة خيبر في جمادي الأولى سنة سبع، وهي ضربة حاسمة إلى الشمال، وسنفصل أمرها فيما بعد، وقبيل فتح مكة تكون غزوة كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح في ربيع الأول سنة ثمان، وأطلاح من ناحية الشام وهي من البلقاء على ليلة، وبعدها مباشرة تكون غزوة مؤتة المشهورة يقودها زيد بن حارثة ثم عبد الله بن رواحة ثم جعفر بن أبي طالب، وهي سرية يتضح فيها تماماً الاتجاه إلى الشمال.

هذه الحقائق كلها عن السياسة العامة للغزوات والسرايا لا تتضح إلا إذا رسمناها على الخريطة لنراها رأي العين، وهنا تتضح لنا أهمية أطلس السيرة بل يتضح لنا أننا لا نستطيع أن نفهم السيرة حق الفهم بدونه.

وأضرب لذلك مثالاً يغني عن كثير نحن نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا خيبر واستولى عليها في جمادي الأولى سنة سبع للهجرة ولا نعرف من أهمية هذه الغزوة إلا أنها قضت على آخر معقل من معاقل المقاومة اليهودية في شبه الجزيرة، ولكننا إذا درسنا هذه الغزوة ونحن ننظر

إلى مصور جغرافي لشمال شبه الجزيرة في العصر النبوي تبينا أن الأمر هنا لا يقتصر على القضاء على مركز المقاومة اليهودي، بل يتخطى ذلك إلى ما لا يقل أهمية عن ذلك وهو القضاء على مقاومة أكبر القبائل العربية الضاربة فيما بين الحجاز ونجد في شمال وسط الجزيرة وهي غطفان، ولم يكن من ذلك مفر قبل أن يتجه النبي صلى الله عليه وسلم بقواته كلها نحو مكة للفراغ من أمرها.

ولم يكن الرسول يخشى شيئاً من ناحية خيبر لأن يهودها وإن كانوا أعداء ألداء لم يكونوا بذوي بأس يحسب لهم حساب، خاصة وقد كان الرسول قد والى الغزوات والسرايا على الشمال وطاعت لأمة الاسلام فدك وادي القرى، ولكن مصدر المتاعب التي كان يخشى بأسها هي قبيلة غطفان، وغطفان كانت مجموعاً قبلياً متخمًا مسرفاً في البداوة ينزل شرقي جبل السراة جنوبي خيبر وتمتد منازله حتى هضبة نجد، وكانت النجدية، وهي طريق التجارة الرئيسية إلى العراق تمر في بلاد الغطفانيين، وكان هؤلاء يهددون هذه الطريق ويجبون من قوافلها إتاوات كبيرة، ولكن مصدر الكسب الرئيسي لغطفان كانت خيبر.

ومن المعروف عن حياة البدو في الصحراء أن أمورهم لا تستقيم إلا إذا كان لهم مركز مدني من مدينة أو قرية، وهذا المركز المدني يؤدي لهم خدمات لا يستغنون عنها في حياتهم، فمن هذا المركز المدني يحصلون على السلاح وماعون البيت وعدة الخيل، وكلها أشياء حيوية لهم لا تستقيم حياتهم بدونها، ثم إن هذا المركز يصرف لهم الفائض من منتجاتهم من الصوف والغزل والزائد عن حاجتهم من الجمال والماشية والخيل وما يمكن أن يكون في ديارهم من مصادر الخيرات كالملح وبعض المعادن والأعشاب، وبدون هذا المركز المدني تنفصل القبيلة عن تيار الحياة وتعدم ضرورات الحياة في الصحراء وتتوحش وتتدهور ثم ينفرط عقدها وتتلاشى. هذه قاعدة عامة تصدق على حياة البدو في كل زمان ومكان.

وكان الرسول صلوات الله عليه يعرف ذلك، وكان يريد أن يكسر شوكة غطفان ورئيسها عيينة بن حصن، وكان شيخاً بدوياً كثير التقلب لا تؤمن غدراته، وكان قد دخل الاسلام دون أن يمس الايمان قلبه ولهذا كان الرسول شديد الحذر من ناحيته، خاصة وقد كان قومه يطيعونه طاعة عمياء حقاً، ويقولون إنه إذا غضب غضب له عشرة آلاف سيف، وكان يلقب بالأحمق المطاع...

وكان الرسول يعرف أن حرب البدو حرب طويلة مكلفة، فإذا هو أراد أن يكسر غطفان في الميدان طال الأمر وعظمت النفقة، لأن البدو إذا أحسوا بالهزيمة فروا إلى الرمال واختفوا وراء كثبانها ولا جدوى من وراء مطاردتهم فيها.

لهذا قرر الرسول أن يغزو خيبر ويستولي عليها، فيطمئن من غدر اليهود من ناحية ويكسر شوكة غطفان من ناحية أخرى، ومن المعروف أن غطفان كانت من الأحزاب التي سارت لغزو المدينة في غزوة الخندق، ولم يشأ الرسول لهذا أن يتجه إلى مكة وغطفان وراءه، ولما عاد الرسول من الحديبية كان يعرف أن قريشاً لن ترتبط بعهدها، وأنها لا تلبث أن تنكث به أو تحرض بعض حلفائها على أمة المدينة أو على حلفائها من خزاعة وأسلم.

لهذا كله غزا الرسول صلوات الله عليه خيبر في جمادي الأولى سنة سبع، وكان يهود خيبر يعلّقون آمالاً على عيينة بن حصن، ويحسبون إنه يحميهم من المسلمين، لأنه كان يتقاضى منهم إتاوة تصل إلى نصف غلة أرضهم في سبيل تأمينهم وحمايتهم.

ولكن عيينة بن حصن لم يتحرك لعون حلفائه، فما هو إلا أن سار الرسول صلى الله عليه وسلّم إلى خيبر حتى سكن ذلك الرجل مكانه ولم يتحرك قبيله، لأنه أدرك أنه لا قبل له بمحمد صلى الله عليه وسلّم

«والخميس» أي الجيش الكبير، وهكذا كان يهود خيبر يسمون جيش المسلمين. وانتهى الرسول من أمر خيبر وكسر أهلها وغنم أراضيها وأصبحت من أملاك المدينة، وهجرها من أراد الهجرة من أهلها من يهود إلى الشام، وانتهى الأمر بأن صالح الرسول أهل خيبر على نصف غلة أرضهم.

بهذا لم يعد لعيينة بن حصن أي سلطان علي خيبر وحرمت غطفان من قاعدتها المدنية فضعفت وذلت، واضطر عيينة بن حصن إلى الدخول في طاعة أمة المدينة ولم يفارقها بعد ذلك، وبعد أن كان يلقب بالأحمق المطاع أصبح يلقب بالأحمق فحسب.

هذه الحقائق عن أهداف الرسول صلى الله عليه وسلّم من غزو خيبر بعد الحديبية وقبل فتح مكة لا تتبين لنا على وجهها إلا إذا كان المصور الجغرافي بين أيدينا. فيرى أين كانت خيبر وأين كانت غطفان، لماذا كان لا بد من أن تؤمن المدينة من ناحية الاثنتين قبل أن تفتح مكة.

ومثال آخر يوضح لنا أهمية التصوير الجغرافي للمغازي نجده في غزوة المريسيع أو بني المصطلق في شعبان ورمضان سنة خمس للهجرة.

ذلك أن بني المصطلق كانوا فرعاً من خزاعة، وخزاعة كانت حلفاً للرسول صلى الله عليه وسلّم، وكان الخزاعيون قد أسلموا، وكانوا ينزلون إقليم الفرع الخصيب وما بينه وبين المدينة، والفرع كان مادة للمدينة يقدم لها الزروع والطعام، وكان الرسول حريصاً على أن تكون هذه الناحية بالذات في حلف المدينة وداخل منطقة نفوذها، لأنها قريبة من المحجة، وهي الطريق الرئيسي للتجارة المكية، ثم لأن طريقاً فرعياً من مكة إلى المدينة كان يمرّ بها، وهو طريق الاثاية والسقيا والعرج ثم الابواء والفرع والقاحة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلّم يحب هذا الطريق ويسلكه كثيراً لأنه يمر بالابواء، وفي الأبواء قبر أمه آمنة بنت وهب رضي الله عنها.

وكان سيد بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار، وكان فيه كبرياء وجهالة، وكان يرى منازل قبيلته غنية وافرة الخيرات، وكان يرى لقومه بضعف آلاف من الابل وماشية لا تحصى فكبر عليه أن يدخل في طاعة المدينة وعزّته نفسه، فرفض حلف المدينة، بل حدثته نفسه بالمسير إليها بقومه، وبلغ ذلك كله رسول الله صلى الله عليه وسلّم فعجل بالمسير إلى المريسيع، واهتم بهذه الغزوة اهتماماً كبيراً وأخذ معه كبار المهاجرين والانصار، وهو أمر لم يفعله قبل ذلك إلا في بدر وأُحد، وهذا يدل على اهتمامه للأمر وتقديره للنتائج التي يمكن أن تترتب على عصيان بني المصطلق، فلو أن الرسول تركهم لتبعهم غيرهم من خزاعة، وخزاعة كما قلنا كانت غطاء للمدينة من الجنوب وحماية من المكيين، وحتى لو لم يسر الحارث بن أبي ضرار إلى المدينة كما تذهب بعض الروايات، فإن الرسول كان لا بد له من معاجلة بني المصطلق نظراً لأهمية موقع منازلهم الجغرافي والقبلي.

وهذه حقائق لا تتبين لنا إلا إذا نحن رأينا ذلك كله على مصور جغرافي يعرّفنا بالمواضع والمواقع، فنعرف سبب اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلّم ببني المصطلق ولماذا عنف عليهم في العقوبة، لأنه أراد أن يكونوا مثلة لغيرهم، ولم يكن الموقف يحتمل أي قلق أو اضطراب من هذه الناحية. وتتجلى لنا أهمية تلك الضربة التي وجهها الرسول صلى الله عليه وسلّم إلى بني المصطلق إذا ذكرنا أنها كانت قبل الخندق بثلاثة شهور فقط، فقد كانت غزوة المريسيع في شعبان سنة خمس وكانت الخندق في ذي القعدة من نفس السنة، ولو لم يفعل الرسول ذلك لكانت الخندق أقسى مما كانت.

وأضرب مثلاً ثالثاً لأهمية التصوير الجغرافي بغزوة حنين التي كانت في شوال سنة ثمان أي بعد شهر واحد من فتح مكة.

ذلك أن أوطاس موضع صغير على هضبة قريبة من مكة على الطريق

بينها وبين البصرة، وهذه الطريق تمر بديار قبيلة هوزان، وهوزان قبيل ضخم من مضر موغل في البداوة، شأنه في ذلك شأن غطفان، وهوازن كانت تعيش في مساحة واسعة شرقي جبال السراة وجنوبي منازل غطفان، وتتصل ديارها بمداخل نجد من ناحية الغرب، وكانت القبيلة حليفة لمكة، وكانت مكة هي القاعدة المدنية لهوازن كما كانت خيبر هي القاعدة المدنية لغطفان، فلما فتحت مكة ودخل أهلها في الاسلام أدرك رؤساء هوازن أن مصيرهم أصبح في خطر، فقد أصبحت قاعدتهم المدنية وسوقهم التجاري في حوزة جماعة المدينة ولم يعد لهم مفرّ من أن يدخلوا في الاسلام بدورهم أو يدخلوا في حرب مع المدينة لانتزاع مكة من يدها، وكان آل هوازن بدوا طاعنين في البداوة بعيدين البعد كله عن إدراك حقائق الصراع الذي كان يجري في الحجاز، وكانوا مثل غيرهم من هذا الطراز من البدو معتزين بأنفسهم تغرهم جموعهم الكثيرة ويحسبون أنهم أقوى أهل الجزيرة كلها، مثلهم في ذلك مثل تميم التي سيجيء دورها بعد قليل، وكان بنو تميم ينزلون مساحات شاسعة شرقي هوازن وبينهم بنو عبد القيس إلى البحرين وكان لا بد من إدخال هوازن في الاسلام حتى ينفتح الطريق إلى قلب الجزيرة.

وكان لا بد أن يحدث أمر من اثنين: إما أن يقوم الرسول صلى الله عليه وسلّم بعمل لادخال هوازن في الاسلام أو تسير هوازن لحرب المسلمين لاسترجاع مكة، وكانت هوازن هي البادئة بالعمل خوفاً من رؤسائها على مصير قبيلتهم، فساروا لحرب المسلمين وأسرع الرسول على عادته باتخاذ الأهبة وسارت قوات المسلمين وقد انضم إليها المكّيون بعد الفتح، وعسكرت هوازن في أوطاس لتأخذ الطريق على المسلمين، وحصنوا مواقعهم على الهضبة، وكان لا بد للمسلمين من أن يزحزحوهم من هذا الموقع وينزلوهم إلى سهل حنين المجاور وكان سهلاً كثير الأحجار لا تتحرك فيه الخيل بسهولة، وكان هذا هاماً جداً للمسلمين، لأن خيل هوازن كانت

كثيرة جداً، ولم يكن من الممكن للمسلمين أن يكسروها إلا إذا أنزلوها في السهل، وهذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلّم في نهاية الدور الثاني من معركة أوطاس التي انتقلت إلى حنين، وبهذا الاسم عرفت بعد ذلك، وفي سهل حنين لم تستطع خيل هوازن التحرك بالسرعة المطلوبة، فتعثرت بالصخور وتساقط الفرسان من على صهواتها وكانت الهزيمة.

وهنا أيضاً نجد أننا لا نفهم الحوادث الفهم الصحيح إلا إذا رأينا المواقع على الخريطة، هنا فقط نفهم لماذا كان لا بد من أن يقع التصادم بين أمة الاسلام وهوازن ولماذا كان لا بد أن يقع في أوطاس - حنين أو في أي موضع آخر على الطريق بين مكة والبصرة قبل أن تدخل الطريق ديار هوازن.

وأختم هذا الكلام عن أهمية التصوير الجغرافي لفهم السيرة النبوية الشريفة بسؤال هو: إننا نتتبع الغزوات والسرايا واحدة واحدة، ونصل إلى فتح مكة ومعركة حنين، وفي رجب سنة تسع نقرأ خبر غزوة تبوك، وبعد ذلك مباشرة نجد أن وفود قبائل الجزيرة العربية ونواحيها تفد على المدينة من أقصى نواحي الجزيرة لتعلن إسلامها وانضمامها إلى أمة الاسلام بل ان الوفود تبدأ في القدوم بعد سرية عيينة بن حصن إلى تميم ووفود وفد تميم إلى المدينة ودخول هذا القبيل الضخم في الاسلام. كيف حدث هذا الأمر الذي لا يصدق مع أن قوات الاسلام لم تكن قد وصلت بعد إلى البحرين أو إلى عمان أو حضرموت، بل لم يكن عليّ بن أبي طالب قد قام بسريته على اليمن. إننا نعرف العرب الجاهليين وحرصهم على الاستقلال بأنفسهم وكراهتهم الدخول في أي طاعة إلا إذا لم يجدوا من ذلك محيصاً، بمعنى أنّه لا بد أن هذه القبائل شعرت انه لا مفرّ لها من الدخول في أمة المدينة لتسلم أولاً ثم لكي تأمن على أرضها ومنازلها وتأخذ من رئيس أمة المدينة - رسول الله صلى الله عليه وسلّم - كتاباً رسمياً يؤكد لها حقوقها في أرضها، أي أن المدينة أصبحت السلطة السياسية العليا في الجزيرة: هي

التي تعطي وتمنع، وهي التي تقر وتثبت، فما الذي دفع القبائل إلى هذه الحركة العامة الفريدة من نوعها في التاريخ؟ وكيف تمت هذه المعجزة التي أكدتها سورة النصر من سورة القرآن الكريم: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فسبّح بحمد ربك واستغفره، إنه كان توابا﴾ فهنا - تنص الآية الكريمة على نصر وفتح، والفتح هو الذي نراه في إقبال الوفود للدخول في الاسلام، فقد فتح الله سبحانه قلوب أولئك الناس للاسلام، وأما النصر فهو حصيلة الغزوات والسرايا، فهو نتيجة سياسية عسكرية لا تتأتى إلا عن عمل عسكري سياسي، هذا العمل هو المغازي وقد سبق أن قلنا إنها كانت في مجموعها عملية واحدة، وضعت مرة واحدة ثم نفذت على مراحل، وقد نفذت على طريقة تؤدي إلى تلك النتيجة التي ذكرناها وهي إدخال الجزيرة العربية كلها في الاسلام، وليس من قبيل المصادفة ان العملية تمت على الوجه الأكمل في مطلع العام التاسع للهجرة، وليس ذلك مصادفة، ففي عمل تاريخي حاسم مثل البعثة المحمدية وتبليغها لا مكان للصدفة إنما هو عمل واسع المدى رسم بإحكام وتم بإتقان ودقة، وآتى ثمرته في الموعد المقرر، وإذا سألنا كيف تم ذلك فإن المصور الجغرافي للمغازي يجيب عن ذلك السؤال أدق إجابة.

فإذا نحن رسمنا خريطة للجزيرة العربية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ورسمنا عليها اتجاهات المغازي والسرايا وهدف كل منها تبيّناً تماماً أن غزوة حنين أتمت قبضة المدينة على كل أعصاب الحياة والنشاط في شبه الجزيرة.

فعدد الغزوات والسرايا بحسب تقدير الواقدي إحدى وثمانين غازية وسرية، وهذا نشاط عسكري يبهر الانسان بعدده وتخطيطه وإحكامه ثم بالنتائج الفردية لكل عملية من عملياته ثم بالنتيجة العامة التي انتهى إليها. وإذا كنا نبحث عن معجزة باهرة للرسول صلى الله عليه وسلم بعد القرآن الكريم فتلك هي، وإذا كانت معجزات الرسل الآخرين هي

الاتيان بخوارق الأعمال التي لا تتأتى لغيرهم من البشر، كانت معجزة رسولنا الكبرى بعد القرآن هي ذلك العمل الباهر الذي حققه بالعقل والتدبير وحسن التقدير وإحكام التنفيذ إلى جانب تبليغ الرسالة الدينية كاملة وإكمال الدين للناس وإتمام نعمة الله عليهم قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

وإذا نحن نظرنا إلى المصوّر الجغرافي للجزيرة بعد أن نرسم عليه اتجاهات المغازي والسرايا ووجهة كل منها تبينت لنا بذلك النتائج السياسية التي ترتبت على كل منها.

فالغزوات والسرايا السبع الأولى حتى ذات العشيرة في جمادي الأولى من السنة الثانية للهجرة كانت ترمي إلى تأمين أمة المدينة وما حولها من كل خطر من ناحية القبائل المحيطة بها، فأدخلت كلها في حلف المدينة وتّمت السيطرة على طريق التجارة المكية إلى الشام، ولم يكن هناك طريق واحد بل طريقان، واحد هو الجادة أو المحجة والثاني طريق فرعي يمر باقليمي العرج والفرع، وهو ينفصل من الجادة عند الرويثة ثم ينحرف غرباً ويعود فيلتقي بالجادة عند الجحفة، وقد تمت السيطرة على الطريق الرئيسي إلى الجادة بسرية سعد بن أبي وقّاص إلى الخرار وهو واد يسير من شرق لغرب قرب الجحفة وتقع فيه آبار وغدران منها غدير خم المشهور، وإلى هنا كانت تنتهي منازل خزاعة وأسلم، فدخلت هذه كلها في حلف المدينة وانتشر الاسلام بين أهلها وامتنعت من التعامل مع قريش وحراسة قوافلها، والغزوة التالية وهي الابواء، وقد قادها رسول الله صلى الله عليه وسلّم بنفسه أتمت السيطرة على الطريق الفرعي وأدخلت قبيلة صخرة وهي فرع من كنانة في حلف المدينة، يقول الواقدي: وفي هذه الغزاة وادع بني صخرة من كنانة على ألّا يكثروا عليه، ولا يعينوا عليه أحداً، ثم كتب بينهم كتاباً ثم رجع، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة (١/١٢).

ثم كانت غزوة نخلة في رجب سنة اثنتين للهجرة وعلى رأسها عبد

الله بن جحش، ونخلة إلى شمال شرقي مكة بأميال قليلة وهي حد حوز مكة وهي بداية الطريق النجدية الشارعة إلى نجد والعراق، ووصول المسلمين إليها كان معناه أنهم بدأوا في السيطرة على النجدية أيضاً، أي أن الحلقة كانت تضيق حول قريش شيئاً فشيئاً. فإذا ذكرنا أن نخلة وقع فيها قتال، وقتل فيها حليف من حلفاء قريش هو عمرو بن الحضرمي وأسر فيها رجلان فهمنا لماذا كانت نخلة هي الشرارة التي أشعلت نيران الحرب الفعلية بين جماعة المدينة ومكة والنذير الأول بموقعة بدر التي وقعت بعد ذلك بقريب من شهرين.

ولا نأتي بجديد إذا قلنا أن موقعة بدر كانت حاسمة، لا لأنها كسرت القوة العسكرية لقريش فحسب، بل لأنها أثبتت دون أي شك أن أمة الاسلام في المدينة أكبر قوة عسكرية في الحجاز والجزيرة العربية كلها، ويخطىء من يقول أن قريشاً لم تكن إلى ذلك الحين أكبر قوة عسكرية في الجزيرة، فقد انتصرت قبيل البعثة المحمدية على حلف قيس عيلان أي على مضر كلها في حروب الفجار، وهي لم تنتصر في حروب الفجار لأنها كانت أكثر عدداً وأعز نفراً بل لأنها كانت أكثر نظاماً وأحسن عدة وأكثر مالاً وحرب الفجار هي التي رفعت بني عبد شمس إلى قيادة مكة، والحروب تكسب بالنظام وحسن القيادة ونوع العدة الحربية إلى جانب الشجاعة وإحكام التدبير وقد تمتعت قريش بهذه الميزات إلى ذلك الحين، حتى كانت موقعة بدر فظهر تفوق أمة الاسلام في المدينة عليها. ومن هنا كانت بدر حاسمة بل قاضية، فقد عرف أهل الجزيرة جميعاً أن أمة الاسلام في المدينة أقوى قوة فيها، وبدأوا يتحولون عن مكة إلى المدينة، ومن ناحية أخرى فقد توقفت تجارة مكة مع الشام والعراق تماماً، وتوقفت مع اليمن بالتالي، ونتيجة لذلك تزعزع مكانها في الجزيرة بصورة خطيرة، وهذا هو الذي دفعها دفعاً إلى أن تقوم بغزوة أحد. ولم تكن أحد بحاسمة ولا ببعيدة الأثر، ولا هي رفعت مكة من الوهدة التي سقطت فيها، ولهذا كان لا بد

لها أن تجمع أحلافها وكل الخائفين من المدينة والحاسدين لها والطامعين في خيراتها على التجمع للقيام بحملة الخندق في ذي القعدة سنة خمس. وفشل الأحزاب في معركة الخندق هو الذي حسم موضوع قريش وأحلافها، فاتجه الرسول صلى الله عليه وسلّم بعدها إلى توجيه الضربة الثالثة إلى الخطر اليهودي في المدينة بالقضاء على بني قريظة، ثم الاتجاه بجل اهتمامه إلى شمال الحجاز حتى تبوك.

كل ذلك يفسر لنا النتيجة الباهرة التي حققها الرسول صلى الله عليه وسلم حتى مستهل سنة تسع للهجرة، ولا يتبين لنا ذلك على وجهه إلا إذا درسناه على الخريطة ملياً لنتبين الاتجاهات والغايات، فما تحرك الرسول صلى الله عليه وسلّم حركة إلا بحساب، ولا هو أرسل سرية أو خرج على رأس غازية إلا والغاية النهائية نصب عينيه، وإذا كنا نحن نحاول أن نترسم المغازي على الخريطة فقد كان ذلك الرسم واضحاً في ذهنه صلى الله عليه وسلّم تماماً، ولم يكن في الجزيرة من يعرف نواحيها وطرقها وقبائلها وسادة هذه القبائل ومقدار قوة كل قبيلة كما عرف ذلك كله محمد صلى الله عليه وسلّم، وليس في العمل الذي قام به أو النتيجة التي وصل إليها خلال ثمانية أعوام هجرية قصار أثر للمصادفة.

* * *

كل ذلك يبين لنا الأهمية الكبرى لوضع أطلس السيرة، وتحديد مواقع البلاد والنواحي التي اتجهت إليها الغزوات والسرايا. ولكن كيف نستطيع وضع هذا الأطلس والخرائط تقوم على الضبط والتحديد سواء في مواقع الاعلام الجغرافية أم منازل القبائل أم اتجاهات الغزوات.

إن المراجع التي ذكرناها في أول هذا البحث تقدم لنا مادة جغرافية تبدو لأول وهلة وكأنها وافرة ولكنها تبدو محيرة عند محاولة توقيعها على الخريطة خاصة وأن بلاد الحجاز وبقية الجزيرة العربية تخلو من العدد الكافي

من المعالم الجغرافية الرئيسية التي تعين على تحديد الشكل الجغرافي لبلد ما وتساعد على تحديد مواقع الاعلام الجغرافية بشيء من التحديد، من مثل نهر كبير يعطينا المحور الرئيسي للعمران في البلد كما نجد في مصر، أو نهرين أو أكثر تتحدد بالنسبة لهما مواقع الاعلام الجغرافية كما نجد في بلاد الرافدين وفي بلاد مثل إسبانيا وفرنسا وألمانيا، أو سلسلة جبلية واضحة المعالم والتقسيم غنية بالأمطار ومواقع الخصب والحياة، فيستطيع الباحث أن يحدد المواقع الجغرافية من بلاد وقرى ووديان وطرق ومراكز عمران بالنسبة لها كما نجد في المغرب حيث تعطينا جبال الأطلس المفتاح الرئيسي لجغرافية البلاد وتحديد مواقعها ومثل سويسرا التي يتحدد كل شيء فيها بالنسبة لسلاسل جبال الألب وقممها الكبرى، وفرنسا حيث تتحدد الصورة الجغرافية العامة بالنسبة للماسيف سنترال (الهضبة الوسطى) التي تنحدر منها الأنهار وتتجمع حولها سهول فرنسا المشهورة وفي مثل هذه البلاد ذات المحاور الجغرافية الواضحة تقوم المدن ومراكز العمران وتبقى على مر العصور محتفظة بمواقعها المحددة بل بأسمائها، فالمدن التي تقوم على مجاري الأنهار لا تندثر قط، ومراكز العمران التي تقوم على مداخل الجبال وفي أعالي الهضاب المطيرة وعلى ضفاف البحيرات أو مجاري المياه تبقى أبد الدهر، لأنها تقوم في مراكز حيوية لا تنضب حيويتها، وكلّما انفضّ عنها قوم عمرها آخرون، وربما غيَّروا أسماءها ولكن الأسماء القديمة تبقى، وانظر مثلاً إلى طيشفون وبغداد وسلمان باك وكلها مراكز عمرانية قامت في مكان واحد تقريباً، وانظر كذلك إلى منف وبابليون والفسطاط والقاهرة، وقد أثبت لويس ما مفورد مؤرخ المدن أن المدن الكبرى وجدت في مواقعها الحالية أو قريباً منها من فجر التاريخ.

في الجزيرة العربية لا نجد معالم جغرافية باقية من هذا النوع إلا في حالات قليلة مثل مكة والمدينة والطائف وتربة وخيبر وفدك وتيماء وتبوك وفي مدن اليمن الباقية مثل نجران وصنعاء وعدن وفي موانىء البحار وفرضها من

أمثال أيلة والجار وينبع ورابغ وجدة ومنى والحديدة والمكلا وريسوت ومسقط وصحار والقطيف. أما بقية مراكز العمران داخل الجزيرة فقد توجد في زمان ثم تختفي، وعلة وجودها في بعض الأزمنة أنها قامت عند آبار مياه نزحت وجفت مع الزمن فاندثرت المدينة أو القرية أو تكون على طريق رئيسي للتجارة ثم يتغير الطريق أو يتوقف بسبب ما فيتلاشى مركز العمران ويتحول إلى منتجع قبلي قليل الأهمية، وأكبر مثال لذلك اليمامة.

وهنا تبرز لنا صعوبة ثانية: هي تغير أسماء المواضع باختلاف الأزمان وانعدام الوسيلة للربط بين الاسم الجديد والقديم، لأن القرى في الصحراء تسمى بأسماء القبائل صاحبتها وقد تنسب إلى من حفرها وحازها فإذا انتقلت إلى حيازة قبيلة جديدة أو مالك جديد تغير اسمها واندثر اسمها القديم. وفي بعض الأحيان يتلاشى الموضع تماماً نتيجة لجفاف مورد المياه أو تغير طريق التجارة أو هلاك القوم الذين يعيشون فيه نتيجة لحرب أو جائحة من جوائح الطبيعة.

لهذا كله نجد الكثير من المعلومات الجغرافية الواردة في مراجعنا لا تفيدنا كثيراً في تحديد المواقع الوارد ذكرها في السيرة، فإن أصحابها ينقلون معلوماتهم عن مراجع سابقة دون تدقيق في النقل، ومعظمهم لم يزوروا الأماكن التي يتحدثون عنها، وكلهم لم يحاولوا التأكد من أن المواضع المذكورة في السيرة لا زالت موجودة بأسمائها أو أنها زالت أو أن أسماءها قد تغيرت، ومن هنا فإننا نقرأ عندهم عبارات لا تفهم إذا أردنا تطبيقها على الخريطة ومثال ذلك قول الواقدي: ورابغ على عشرة أميال من الجحفة وأنت تريد قديداً. (١٠/١) فرابغ لا تقع على الطريق من الجحفة إلى قديد، ثم إن الطريق من الجحفة إلى قديد تسير جنوباً ثم تنحرف شرقاً فأين هو اليمين في هذه الحالة، وكذلك قول ياقوت في معجم البلدان: «الأبواء قرية من أعمال الفرع بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً» (٩٢/١). وقول ابن سعد في الطبقات إن الجماء:

جبل ناحية العقيق، بينه وبين المدينة ثلاثة أميال» (٢/٤) وقول البكري: «نخلة اليمانية هي بستان ابن عامر عند العامة، والصحيح أن نخلة اليمانية هي بستان عبيد الله بن معمر.. (معجم ما استعجم، (٢/٥٧٧) وقول الواقدي في كلامه على غزوة ذات العشيرة أن رسول الله «سلك على نقب من بني دينار بيوت السقيا (١/١٣) وقول ياقوت في معجم البلدان: «السقيا قرية جامعة من عمل الفرع، بينها مما يلي الجحفة تسعة عشر ميلاً». (٥/٩٤).

وهذه الأقوال كلها تبدو لنا ذات فائدة ونحن نقرأها ولكننا إذا أردنا توقيعها على خريطة لم نستطع، لأنها غير دقيقة أولاً ثم أنها منقولة دون تدبير ثانياً.

هذا عن التحديدات، أما فيما يتعلق بالاتجاهات فالأمر أشد غموضاً، ومثال ذلك وصف ابن هشام لطريق الهجرة، فهو يقول مثلاً إن عبد الله بن أرقط أو أريقط سار بالرسول صلى الله عليه وسلّم وصاحبه أبي بكر من جبل أبي ثور في اتجاه البحر، ثم «عارض بهما الطريق أسفل من عسفان» وسار بهما جزءاً من الطريق ثم «عارض الطريق أسفل من أمج»، ثم «عارض» الطريق مرة أخرى أعلا قديد، فما المراد بلفظ «عارض» هنا، لقد رجعت إلى القواميس ألتمس لها المعنى الصحيح فلم تهدني إلى شيء واضح.

وعندما يصف البكري الطريق إلى بدر من المدينة يذكر المواضع واحداً بعد الآخر دون أن ندري حقيقة الاتجاه وخاصة بعد أن يترك الرسول صلى الله عليه وسلّم الجادة أو المحجة عند المنصرف وهي المسيجيد اليوم ويتجه إلى بدر ، وبعد قليل يذكر طريقاً آخر، فإذا وصل إلى بدر لم يصف سهلها، ولا نجد وصفاً مقبولاً بعض الشيء لسهل بدر إلا عند ابن بطوطة ولكن ذلك كان بعد أكثر من سبعة قرون، وقد تغيرت الأرض وما عليها.

ولكننا لا بد على أي حال من جمع هذه الاشارات الجغرافية وترتيبها وتبويبها، ثم لا بد من تطبيقها على رسم جغرافي مرة بعد أخرى ولا بد من دراسة جغرافية الحجاز دراسة دقيقة جداً، لأن الخرائط التي بين أيدينا مهما كان مقياسها كبيراً فهي لا تشفي الغلة، ونحن نريد أن نتعرف على مواضع خافية بين بعضها وبعض في حالات كثيرة ما لا يزيد على ميلين، وهي مسافة لا تكاد ترى على أي خريطة.

وقد ذهبنا إلى تلك البقاع وحاولنا التعرف على بعض الطرق والمواقع، ولكن حركة التعمير والإنشاء الواسعة المدى في المملكة العربية السعودية غطت على الكثير من المواقع. والطرق القديمة، فإن تلك الطرق كثيراً ما تكون أخاديد أو وديان جافة أو أراضي مرتفعة، وهذه كلها تقضي عليها الطرف الحديثة الواسعة، فلا يلبث الإنسان أن يفقد الطريق الذي كان يتبعه ولا يدري إلى أين يسير:

فما هي إذن الطريقة الممكنة المتاحة لنا لعمل ذلك الأطلس؟.

هذه الطريقة في رأيي تكون على مراحل كما يلي:

١ - قراءة كتب الجغرافية والرحالة العربية المتاحة لنا قراءة متأنية، والعناية بالأجزاء الخاصة بالجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام حتى دمشق وشرقي إيران والخليج العربي وسيناء ومصر، وتسجيل كل المعلومات التي تتعلق بمواضع هذه البلاد وأعلامها الجغرافية في بطاقات من نسختين.

ثم ترتب هذه البطاقات مرتين: الأولى أبجدية والثانية بحسب المواضع والنواحي: شمالي الحجاز - مدين ووادي القرى - الحجاز - تهامة - عسير - اليمن - العروض - جبال السراة - نجد - البحرين - عمان - شمال شبه الجزيرة العربية... إلى آخره.

٢ - قراءة المعاجم الجغرافية العربية وخاصة معجم ما استعجم

للبكري ومعجم البلدان لياقوت الحموي والروض المعطار لابن عبد المنعم الحميري وتسجيل كل المعلومات التي تتصل بالسيرة وجغرافيتها ووقائعها في نفس البطاقات أو في بطاقات جديدة.

٣ - قراءة المعاجم اللغوية الكبرى وخاصة تاج العروس ولسان العرب في المواد المسجلة في البطاقات التي عملناها وإضافة ما يتيسر من المعلومات الجديدة.

٤ - قراءة كتب الحديث وخاصة البخاري ومسلم وكتاب الرجال الكبير واستخراج كل المادة الواردة فيها عن الغزوات والمواضع وتسجيلها في بطاقات ويستحسن قراءة شرح لكل من كتب الحديث التي قرأناها.

٥ - قراءة كتب الرحالة الغربيين وخاصة داوتي (DOUGHTY) بالجريف (PALGRAVE) ونيلسن (NIELSON) وجوزف هاليفي (GOSEY HALEVY) وتسجيل كل ما يرد فيها من المعلومات عن القبائل والاعلام الجغرافية.

٦ - دراسة كتب السيرة جميعاً دراسة دقيقة وتسجيل كل ما يرد فيها عن المغازي واتجاهاتها والاعلام الجغرافية الواردة فيها.

٧ - دراسة مطولات التاريخ الاسلامي كالطبري واليعقوبي وأنساب الأشراف للبلاذري وابن الأثير وابن خلدون وما إليها من الأجزاء الخاصة بالسيرة والعصر النبوي مع العناية الخاصة بمغازي الواقدي وطبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام وتاريخ ابن كثير ونهاية الأرب للنويري (الأجزاء ١٦ و ١٧ و ١٨) وكتب تراجم الصحابة وخاصة الاستيعاب لابن عبد البر والاصابة لابن حجر.

٨ - دراسة كتب الأدب العربي الأساسية وأهمها هنا الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني والكامل لأبي العباس المبرد والعقد الفريد لابن عبد ربه

واستخراج كل المادة الجغرافية الخاصة بجزيرة العرب والعراق والشام وسيناء منها وتسجيلها.

وكذلك دراسة كتب الشعر الجاهلي وشروحه لاستخراج ما بها من مادة جغرافية أو إشارات تنفعنا في مطلبنا هذا.

٩ - دراسة كل الخرائط الواردة في كتب الجغرافية العربية وخير مرجع لخرائطها هو كتاب الخرائط العربية. (MAPPAE ARABIEAE) الذي عمله ملر مع العناية الخاصة بخرائط الادريسي.

١٠- دراسة كتابي الأزرقي عن مكة والسمهودي عن المدينة وتدوين كل المادة الخاصة بمواقع مكة والمدينة وما حولها.

وبهذه المناسبة نشير إلى كتاب التراتيب الادارية لعبد الحي الكتاني فهو كتاب حافل بالمادة التي تنفعنا في هذا الوجه.

١١ - دراسة كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي وصفه جزيرة العرب للهمداني وتعليقات الأكوع وحسن الجاسر عليه، ودراسة كل ما نشر العلامة السعودي حسن الجاسر سواء في مجلة العرب أو في غيرها وتسجيل ملاحظاته وبياناته بغاية الدقة فهو في الواقع علامة وحجة كبرى في ذلك الميدان.

ولا بد أنه فاتني شيء من المراجع ولكن هذه هي أهمها على أي حال والمادة التي فيها كافية.

١٢- دراسة كل الخرائط التي نشرتها البلاد العربية وخاصة دول الجزيرة العربية من خرائط عن الجزيرة بصورة عامة أو عن الدول المختلفة.

١٣- وتصلح الخريطة المفصلة التي وضعتها شركة الزيت العربية (أرامكو) أساساً لرسم الخريطة، ومن الممكن تكبير الجزء الخاص بالحجاز وغربي الجزيرة منها إلى مقياس أكبر مثل ١ : ٥٠٠٠٠٠ واتخاذ هذا التكبير أساساً لتوقيع الأماكن.

١٤- ويحتاج الأمر بعد ذلك إلى القيام برحلات مع اتجاهات الغزوات والسرايا وطريق الهجرة، وهذا مطلب عسير كبير النفقة ولكن لا بد منه.

فإذا تم ذلك كله أمكن السير في عمل الاطلس وتقسيمه على النحو الذي يراه المؤلف، ولا بد على أي حال من خرائط لمكة والمدينة والطائف، وخرائط لمواضع المواقع العسكرية الكبرى مثل بدر واحد والخندق وحنين واتجاهات السير إلى هذه المعارك.

ولا بد أن يفسر الرسم الجغرافي تفسيراً تاريخياً، بمعنى أننا نفسر الغزوات والسرايا الثمانية الأولى حتى نخلة على انها مدت نفوذ المدينة ومجال سلطانها على شمال الحجاز من المدينة إلى قرب مكة، فإذا درسنا موقعة خيبر فمعنى ذلك أن نطاق سلطان المدينة شمل كل مناطق خيبر وفدك وتيماء ومنازل غطفان، وعندما نصل إلى غزوة بني سليم بنجران بناحية الفرع في ربيع الأول سنة ثلاث للهجرة نفهم من ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيطر تماماً على منطقة الحجاز حتى أحواز مكة، وأدخل في طاعة المدينة كل القبائل الضاربة في هذه النواحي، لأن الواقدي يقول في حديثه عن سرية القردة التي قادها زيد بن حارثة في ربيع الأول سنة ثلاث للهجرة أي بعد غزوة بني سليم بنجران مباشرة «إن صفوان بن أمية قال لجماعة قريش: «إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا فما ندري كيف نصنع بأصحابه، لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن في دارنا هذه ما لنا بها نفاق (جمع نفقة)، إنما نزلناها على التجارة إلى الشام في الصيف، وفي الشتاء إلى أرض الحبشة، قال له الأسود بن المطلب: فنكب عن الساحل وخذ طريق العراق»... (١ / ١٩٧) أي أن أمة الإسلام في المدينة سيطرت تماماً على طرق التجارة إلى الشمال وبسطت سلطانها على مناطقها وقبائلها، ومن هنا فكر المكيون في سلوك

طريق العراق أو أحد الطرق إلى العراق وأوله ذات عرق التي يقول فيها ياقوت إنها «مهد أهل العراق، وهو الحد الفاصل بين نجد وتهامة» (٢ / ١٤٧)، وبالفعل خرج صفوان بن أمية بتجارة مكة عن هذا الطريق، وبلغ الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل زيد بن حارثة على رأس قوة من المسلمين أدركت القوم عند القردة «من أرض نجد بين الربذة والغمرة ناحية ذي عرق» (طبقات ابن سعد، ٢ / ٢٤). وهنا ينبغي أن نمد نطاق نفوذ المدينة إلى طريق نجد هذا وعلى المسافة الواقعة من شرقي السراة حوله إلى مداخل نجد.

وعندما ندرس غزوة خيبر ينبغي أن نمد سلطان المدينة على منطقتها وعلى ديار غطفان وفدك وتيماء ووادي القرى ومدين إلى البحر، وكذلك ينبغي أن نفعل عندما ندرس غزوة تبوك.

بهذه الطريقة نستطيع أن نجمع مادة الأطلس على وجه من الدقة فحسب، ونستطيع كذلك أن نتتبع اتساع نطاق أمة الإسلام في المدينة شيئاً فشيئاً وتفسر الحقيقة التي أشرت إليها في سياق البحث وهي دخول شبه الجزيرة كله في أمة الإسلام في مستهل العام التاسع للهجرة، وهذا أمر على جانب كبير من الأهمية من الناحية التاريخية.

وقد اتبعت هذه الطريقة في رسم خرائط أطلس السيرة الذي عملته وهو جزء من أطلس تاريخ الإسلام العام الذي أعان الله وأنجزته وهو اليوم في المطبعة، ولكن ينبغي أن أقدر أن أطلس السيرة هذا الذي عملته ما هو إلا مدخل لأطلس كامل عن السيرة ينبغي أن يعمل، وهي محاولة ليس إلا، وفي بعض الأحيان عملنا الخرائط توضيحية فحسب دون مراعاة تحديد المواقع على وجه الدقة لأن ذلك بدأ لنا أمراً عسيراً جداً على التحقيق على يد رجل واحد يعمل على قدر ما يسر الله له، وهو سبحانه الموفق، له الحمد والمنة سبحانه.

د. حسين مؤنس
أستاذ التاريخ الاسلامي
كلية الآداب - جامعة القاهرة

مراجع البحث

عن المراجع الجغرافية الواردة في مستهل البحث أنظر تحقيقات الأستاذ حسن الجاسر في مقالاته القيمة في مجلة العرب وخاصة ما يتصل منها بجغرافية الحجاز وغربي الجزيرة بصفة عامة، وكذلك تحقيق كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني على يد الأستاذ الاكوع ومراجعة الأستاذ حسن الجاسر، وكتاب الجغرافي الأندلسي أبي عبيد البكري تأليف الدكتور عبد الله الغنيم، وكذلك كتاب جزيرة العرب عند البكري له أيضاً، ودراسة الدكتور حسين نصار عن أوائل الجغرافيين العرب وتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون لما عثر عليه من جغرافية عرام بن الأصبغ.

ثم أنظر المراجع التالية:

١ - المطبوعات:

ابن الأثير، عز الدين، علي بن عبد الكريم - ٦٣٠هـ:

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، أربعة أجزاء، المطبعة العثمانية، القاهرة، ١٣١١هـ.

(٢) جامع الأصول من أحاديث الرسول، اثنا عشر جزءاً، نشره الشيخ حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٦٨ / ١٣٧٤هـ.

أحمد بن حنبل، (الامام) - ٢٤١هـ:

المسند، بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، صدر منه خمسة عشر جزءاً، دار المعارف، القاهرة، ١٣٦٨ / ١٣٧٥هـ.

اسماعيل باشا البغدادي - ١٣٣٩هـ:

(١) إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، جزءان، استانبول، ١٣٦٤ / ١٣٦٦هـ.

(٢) هدية العارفين. أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. جزءان، ١٩٥١ / ١٩٥٥م.

آغا بزرك الطهراني، محمد محسن:

الذريعة إلى تصانيف الشيعة، صدر منه خمسة عشر جزءاً، طبعت في النجف وطهران ١٣٥٧ / ١٣٨٤هـ.

البخاري، محمد بن اسماعيل بن ابراهيم - ٢٥٦هـ:

(١) التاريخ الكبير، أربعة أقسام في ثمانية أجزاء بتحقيق الشيخ عبد الرحمن المعلمي مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٦٠ / ١٣٧٨هـ.

(٢) الجامع الصحيح، أربعة أجزاء، طبعة الحلبي، القاهرة دون تاريخ.

بروكلمن، كارل - ١٩٦١م.

تاريخ الأدب العربي، الترجمة العربية، للدكتور عبد الحليم النجار، صدر منها ثلاثة أجزاء، دار المعارف القاهرة ١٩٥٩ / ١٩٦٢م.

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر - ٢٧٩هـ:

(١) أنساب الأشراف، الجزء الأول، بتحقيق الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي دار المعارف، القاهرة ١٩٥٩م.

(٢) فتوح البلدان، ثلاثة أجزاء، نشره الدكتور صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦ / ١٩٦٠.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن، يوسف - ٨٧٤هـ:

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، صدر منه اثنا عشر جزءاً، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٩ / ١٩٥٦م.

الجمحي، محمد بن سلام بن عبيد الله - ٢٣٢هـ:

طبقات فحول الشعراء، بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٢م.

الجوهري، اسماعيل بن حماد - ٣٩٣هـ:

الصحاح، ستة أجزاء، بتحقيق أحمد عبد الغفور العطار، مطبعة دار الكتاب العربي، القاهرة ١٣٧٦ / ١٣٧٧هـ.

ابن أبي حاتم الرازي، عبد الرحمن بن محمد - ٣٢٧هـ:

كتاب الجرح والتعديل، تسعة أجزاء، بتحقيق الشيخ عبد الرحمن المعلمي مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٦٠ / ١٣٧٣هـ.

حاجي خليفة، كاتب حلبي، مصطفى بن عبد الله - ١٠٦٧هـ:

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، جزءان، بتصحيح الأستاذ شرف الدين يلتقايا، والمعلم رفعت بيلكة الكليسي، مطبعة وزارة المعارف التركية، استانبول، ١٣٦٠ / ١٣٦٢هـ.

ابن حبيب، أبو جعفر، محمد بن حبيب بن أمية - ٢٤٥هـ:

كتاب المحبر، بتصحيح الدكتورة إيلزه ليختن شتيتر، والدكتورة محمد حميد الله الحيدر آبادي، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن الهند، ١٩٤٢م.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل، أحمد بن علي بن محمد - ٨٥٢هـ:

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، أربعة أجزاء، نشرته الجمعية الأسيوية الملكية كلكتا، الهند، ١٨٧٧م.

(٢) لسان الميزات، ستة أجزاء، مطبعة حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٢٩ / ١٣٣١هـ.

(٣) تهذيب التهذيب، اثنا عشر جزءاً، مطبعة حيدر آباد، الدكن الهند، ١٣٢٥ / ١٣٢٧هـ.

ابن أبي الحديد، عز الدين، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد - ٦٥٥هـ:

شرح نهج البلاغة، عشرون جزءاً، بتصحيح الشيخ محمد الزهري الغمراوي. مطبعة دار أحياء الكتب العربية (الحلبي)، القاهرة ١٣٢٩هـ.

ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد - ٤٥٦هـ:

جوامع السيرة (النبوية)، بتحقيق الدكتورين إحسان عباس، وناصر الدين الأسد، ومراجعة الشيخ أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٢م.

حسان بن ثابت بن المنذر - ٥٤هـ:

ديوان شعره، نشر في سلسلة جب التذكارية، بعناية هرتويج شفيلد، لندن، ١٩١٠م.

حميد الله، محمد حميد الله الحيدر آبادي:

مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي، والخلافة الراشدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٨م.

الخشني، مصعب بن محمد بن مسعود - ٦٠٤هـ:

شرح غريب سيرة ابن إسحاق، جزءان، نشره يوسف برونلة، مطبعة هندية القاهرة، ١٩١١م.

الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت - ٤٦٣هـ:

تاريخ بغداد، أربعة عشر جزءاً، نشرته مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة القاهرة، ١٣٤٩هـ.

ابن خلكان، أحمد بن محمد بن ابراهيم - ٦٨١هـ:

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، جزءان، مطبعة بولاق، القاهرة ١٢٩٩هـ.

الخوانساري، محمد باقر بن زين العابدين الموسوي - ١٣١٣هـ:

روضات الجنات في تاريخ العلماء والسادات، جزءان، الطبعة الثانية طبع حجر، طهران، ١٣٤٧هـ.

ابن دريد الأزدي، محمد بن الحسن - ٣٢١هـ:

الاشتقاق، بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٨م.

الذهبي، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان - ٧٤٨هـ:

(١) العبر في خبر من عبر، صدر منه أربعة أجزاء، بتحقيق الأستاذ فؤاد سيد والدكتور صلاح الدين المنجد، الكويت، ١٩٦٠ / ١٩٦٣م.

(٢) تذكرة الحفاظ، أربعة أجزاء، بتحقيق الشيخ عبد الرحمن المعلمي مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٧٥ / ١٣٧٧هـ.

الربعي، عيسى بن ابراهيم - ٤٨٠هـ:

نظام الغريب، نشره يوسف برونلة، مطبعة هندية، القاهرة، دون تاريخ.

الزبيدي، مرتضى، محمد بن محمد بن محمد - ١٢٠٥هـ:

شرح القاموس المحيط، المسمى تاج العروس من جواهر القاموس، عشرة أجزاء، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٦ / ١٣٠٧هـ.

الزبير بن بكار - ٢٥٦هـ:

جمهرة نسب قريش، بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر، الجزء الأول القاهرة، ١٣٨١هـ.

الزرقاني، عبد الباقي بن يوسف بن أحمد - ١٠٩٩هـ:

شرح على المواهب اللدنية، ثمانية أجزاء، مطبعة بولاق، القاهرة ١٢٩١هـ.

الزمخشري، محمود بن عمر بن محمد - ٥٣٨هـ:

أساس البلاغة، جزءان، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦٠م.

ابن سعد، محمد بن منيع - ٢٣٠هـ:

كتاب الطبقات الكبير، تسعة أجزاء، لندن، ١٩٠٥ / ١٩٢١م.

ابن السكيت، يعقوب بن اسحاق - ٢٤٤هـ:

إصلاح المنطق، بتحقيق الأستاذين الشيخ أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٦م.

السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور - ٥٦٢هـ:

كتاب الأنساب، نشره بالزنكوغراف مرجليوث، نشر في سلسلة جب التذكارية، لندن، ١٩١٢م.

السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله - ٥٨١هـ:

الروض الأنف، شرح سيرة ابن هشام، جزءان، طبع بنفقة السلطان مولاي عبد الحفيظ، المطبعة الجمالية، القاهرة، ١٣٣٢هـ.

ابن سيد الناس اليعمري، أبو الفتح، محمد بن محمد - ٧٣٤هـ:

عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، جزءان، نشرته مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٦هـ.

الصفدي، صلاح الدين، خليل بن أيبك بن عبد الله - ٧٦٤هـ:

الوافي بالوفيات، صدر منه أربعة أجزاء بتحقيق ريتر وديدرينغ، نشرته جمعية المستشرقين الألمان في استانبول، ودمشق، ١٩٣٦ / ١٩٦٠م.

الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير - ٣١٠هـ:

(١) تفسير القرآن المسمى جامع البيان، بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر، صدر منه خمسة عشر جزءاً، دار المعارف، القاهرة، ١٣٧٤ / ١٣٧٩هـ.

(٢) تاريخ الرسل والملوك.
ثلاثة عشر جزءاً، لدن ١٨٨١ / ١٨٨٢م.

الطوسي، أبو جعفر، محمد بن الحسن بن علي - ٤٦٠هـ:

الفهرست، فهرست كتب الشيعة، منشورات الجمعية الأسيوية الملكية، كلكتا ١٢٧١هـ.

ابن عبد البر، أبو عمر، يوسف بن عبد الله بن محمد - ٤٦٣هـ:

الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أربعة أجزاء، بتحقيق الأستاذ علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، دون تاريخ.

أبو عبيد الله البكري، عبد الله بن عبد العزيز - ٤٨٧هـ:

معجم ما استعجم، ثلاثة أجزاء، نشره وستنفلد، جوتا ١٨٧٦ / ١٨٧٧م.

ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد - ١٠٨٩هـ:

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ثمانية أجزاء، نشرته مكتبة القدسي القاهرة، ١٣٥٠ / ١٣٥١هـ.

ابن فارس، أحمد بن فارس - ٣٩٥هـ:

مقاييس اللغة، ستة أجزاء، بتحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٣٦٦ / ١٣٧١هـ.

أبو الفدا، اسماعيل بن علي بن محمود - ٧٣٢هـ:

المختصر في أخبار البشر، أربعة أجزاء، المطبعة الحسينية، القاهرة ١٣٢٥هـ.

أبو الفرج الاصبهاني، علي بن محمد - ٣٥٦هـ:

كتاب الأغاني، نشرة دار الكتب المصرية، صدر منه ستة عشر جزءاً، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٣ / ١٩٣٥م.

ابن فرحون، ابراهيم بن علي بن محمد - ٧٩٩هـ:

الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، المطبعة الجمالية القاهرة، ١٣٢٩هـ.

الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب بن محمد - ٨١٧هـ:

القاموس المحيط، أربعة أجزاء، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٩٣٨م.

القالي، أبو علي، اسماعيل بن القاسم بن عيذون - ٣٥٦هـ:

كتاب الأمالي، نشر بنفقة يوسف دياب، جزءان، دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٢٦م.

القرشي، عبد القادر بن محمد بن نصر الله - ٧٧٥هـ:

الجواهر المضية في طبقات الحنفية، جزءان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن - الهند، ١٣٣٢هـ.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم - ٢٧٦هـ:

كتاب المعارف، بتحقيق الدكتور ثروت عكاشة، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٦٠م.

قيس بن الخطيم، نحو ٢ قبل الهجرة:

ديوان شعره، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد، مطبعة المدني القاهرة، ١٩٦٠م.

ابن قيس الرقيات، عبيد الله بن قيس بن شريح - نحو ٨٥ هـ:

ديوان شعره، بتحقيق الدكتور محمد يوسف نجم، دار صادر، وبيروت بيروت، ١٩٥٨م.

قيس بن الخطيم، نحو ٢ قبل الهجرة:

ديوان شعره، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد، مطبعة المدني القاهرة، ١٩٦٠م.

ابن كثير القرشي، اسماعيل بن عمر - ٧٧٤هـ:

البداية والنهاية، أربعة عشر جزءاً، نشرته مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٥١ / ١٣٥٨هـ.

ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب - ٢٠٤هـ:

كتاب الأصنام، بتحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٤م.

مالك بن أنس (الامام) - ١٧٩هـ:

الموطأ، نشره الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، جزءان، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٣٧٠هـ.

محسن الأمين، محسن بن عبد الكريم بن علي - ١٣٧١هـ:

أعيان الشيعة، بيروت، ١٩٥٩م.

مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري - ٢٦١هـ:

الجامع الصحيح، نشره الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، خمسة أجزاء مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٩٥٥ / ١٩٥٦م.

ابن منظور، أبو الفضل، محمد بن مكرم بن علي - ٧١١هـ:

لسان العرب، عشرون جزءاً، بولاق، القاهرة، ١٣٠٠هـ.

ابن النديم، محمد بن إسحاق بن محمد - ٤٣٨هـ:

الفهرست، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٣٤٨هـ.

نور الدين الحلبي، علي بن ابراهيم بن أحمد - ١٠٤٤هـ:

السيرة الحلبية، جزءان، مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٣٤٩هـ.

ابن هشام، أبو محمد، عبد الملك بن هشام بن أيوب - ٢١٣هـ:

السيرة النبوية، أربعة أجزاء، بتحقيق الأساتذة مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٩٣٦م.

اليافعي، عبد الله بن أسعد بن علي - ٧٦٨هـ:

مرآة الجنان وعبرة اليقظان، أربعة أجزاء، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٣٧هـ.

ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي - ٦٢٦هـ:

(١) معجم البلدان، عشرة أجزاء، نشره الخانجي، القاهرة، ١٩٠٦م.

(٢) معجم الأدباء، المسمى إرشاد الأريب، عشرون جزءاً، نشره أحمد فريد رفاعي، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٩٣٥/ ١٩٣٨م.

اليغموري، أبو المحاسن، يوسف بن أحمد بن محمود - القرن السابع الهجري:

نور القبس المختصر من المقتبس، في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء، بتحقيق رودلف سلهايم، النشريات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمان، بيروت، ١٩٦٤م.

* * *

(ب) المخطوطات

الذهبي، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان - ٧٤٨هـ:

سير أعلام النبلاء.
مخطوطة أحمد الثالث، استانبول، رقم ٢٩١٠.
الجزء السابع، ترجمة الواقدي.

ابن عساكر، أبو القاسم، علي بن الحسن بن هبة الله - ٥٧١هـ:
تاريخ مدينة دمشق.
مخطوطة أحمد الثالث، استانبول، برقم ٢٨٨٧.
الجزء الثاني، ترجمة الواقدي.

* * *

Paul Broemmie, Commentar on Ibn Hisham's biography of Mohammad according to Abu Dharr's Man uscript Cairo 1911.
Leom Caetani, Annali Dell Islam, Millano, 1905.
Levi Dela Vida, Article «Sira» in Encyc. of Islam.
Joham Fueck, Muhammad Ibn Ishak-Frankfurt, Am 1925.
Alfred Guillaume, Ibn Ishak's Life of Mohammad. Oxford 1955.

وهي الترجمة الانجليزية لسيرة ابن هشام.

J. Worowitx, the Early works of the campaigns, of Mohammad and its Authors.. 1914.

وقد ترجم هذا الكتاب د. حسين نصار بعنوان: كتب المغازي الأولى ومؤلفوها:

Massden Jones Articles Published in P.O.S.A.S. Rol. XIX (2) 1957, XXII (I) 1959.
Theodor Noeldecke, Geschichee Dess Korans, Leibxig 1919-1938.
Alfred Von Kremer Wokidi's History of Muhammad's-Campaigns, Calcutta, 1855.
J. Wellhausnen Mohammad in Madina. Perlin 1882.
Montgomery Watt, Mohammad in Mekka, Cambridg 1960.
Montgomery Watt, Mohammad in Medina, 1961.
J. Pfannmuller, Handwoertenbuch des Islams 1925.

الطــب النبوي

بحث بقلم
الدكتور/ صلاح الدين كشريد
الصيدلي، والكاتب الاسلامي
(تونس)

بسم الله الواحد الأحد والحمد لله حمداً بلا عد والصلاة والسلام على نبينا الأسعد. حضرات المشائخ والأساتذة الأفاضل - سادتي الكرماء.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

إنه لمن سوابغ نعم الله علي ولمن دواعي الفخر والاعتزاز أن أتلقى من هذا البلد العربي المسلم المضياف دعوة كريمة للمشاركة في هذا الحفل البهيج الذي نريده إشراقة فجر ساطع بالأنوار وسفير خير وبشير فتح مبين لهذا القرن الجديد الذي أهل على الأمة المحمدية باليمن والبركات.

وإني وإن رحبت بهذه الفرصة السعيدة التي تجعلني الآن بـأطيب وأخلص وأزكى ما أنجبته أمتنا اليوم من رجالات أفذاذ يعيشون للاسلام وفي الاسلام ويعملون جاهدين بما آتاهم الله. من صدور منشرحة ومن بصائر متفتحة ومن قلوب عامرة ومن آذان واعية ومن أرواح شفافة ومن عقول كشافة يعملون في سبيل هذا الدين الحنيف وهذه المحجة البيضاء لاظهارها من جديد بوجهها الحقيقي ولا جلاء ما تراكم عليها من غبار الاهمال والنسيان ولدحض الأراجيف والترهات التي طالما نسجتها وحبكتها خفافيش الظلام وعناكب المكر الخبيث والحقد الدفين.

إن كنت شديد الاغتباط بهذه الفرصة السعيدة فإني مشفق على نفسي من هذا التكليف الخطير الذي قبلته بدون أي تردد رغم عظمة الموضوع وعلو مقام صاحبه، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ورغم بضاعتي المزجاة وقصر باعي وضيق معرفتي ولكني إذ تطاولت عليك يا رسول الله، وإذ ظلمت نفسي بتحميلها ما لا تطيق، فلعلمي بأنك مثال الحلم والتواضع وبأنك لعلى خلق عظيم.

وحين نتناول اليوم بالبحث شخصية سيد الأنبياء والمرسلين من هذا الجانب فليس لنزيده رفعة وجلالاً إذ يكفيه شرفاً وتقديراً أن اصطفاه ربه وفضّله على العالمين بالنبوة والرسالة ويكفيه فخراً وعزاً أن الله سبحانه وتعالى أنزل على القرآن الكريم الذي لو أنزله على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله - ﴿ولقد أتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ - (الحجر: ٨٧).

ولكنك يا رسول الله محط الأشواق وقرة الأعين وكعبة العشاق ولا بد لمن أحب الشيء أن يتنعم بجميع نواحي جماله وإنك كالماسة بأضلعها المتعددة التي يضيء كل ضلع منها بنوره الخاص فلا تدري أيها أشد نوراً وأيها أبهر اشراقاً.

والعبقري ترى عبقريته من كل جوانبه ولله در القائل في هذا النبي الكريم:

لو لم يقل إني رسول لكا
ن شاهد في هديه ينطق

ذلك أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليس كما يدعي بعضهم مجرد آلة لالتقاط الوحي وليس واسطة جامدة بين السماء والأرض وصل عن طريقها القرآن الكريم ولكنه هو والقرآن حدثان مرتبطان وظاهرتان ملتزمتان لا يكتمل إلا بالآخر وإذا كان القرآن الكريم كتاب الله المكتوب في

الصحف والمنقوش في سويداء القلوب، فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، هو بسيرته كتاب الله المرئي والملموس والمعاش ولولا تعلق صحابته المتين بذاته وتلقفهم لكل ما صدر منه من كلمات وحركات وإشارات، ما كان يمكن فهم القرآن على حقيقته ولبقي هذا الكتاب الجليل معنى فلسفياً مغمضاً وقاموساً مجرداً ومرتعاً سائباً للتأويلات الخاطئة وتصورات الخيال.

إنك كنت في مدينتك الفاضلة التي بعثها الله على يدك الطاهرة المباركة، كنت الرائد الحكيم والمعلم الكيّس والصاحب الكريم والزوج العطوف الحليم والقاضي الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم والقائد الموفق والمجاهد المغوار الذي لا تلين قناته والأب العادل الحنون والملاذ الذي لا يمل ولا يتبرم، تجيب دعوة الحر والعبد وتبدأ الصبيان بالسلام وتأكل من المساكين وتأخذ بيد المظلوم ولا تتأثر أبداً لنفسك بل كنت تدرأ بالحسنة السيئة وتقابل الصلافة بالاحسان.

فلا عجب إذا كنت المرجع الأوحد في كل ما يعتري حياة قومك ولا عجب أنهم توسموا فيك العلم والكمال واطمأنوا لنصائحك وتعليماتك في كل ميدان.

وهكذا أصبحت طبيبهم في أسقام أبدانهم بعد أن كنت الطبيب المنقذ لأرواحهم والمطهر لقلوبهم من كل العلل والأدران.

ولقد صور لنا الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي حالة الطب العربي في الجاهلية في مقدمة كتاب «الطب النبوي» للعلامة المرحوم ابن قيم الجوزية الذي حققه الدكتور وعلق عليه تعليقاً علمياً شيقاً تظهر من خلاله معرفة جيدة بالطب المعاصر مع ثقافة إسلامية واسعة وعقيدة إيمانية راسخة (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ولا أجد خيراً من أن أقدم لكم نبذة من هذه المقدمة التي يقول فيها الدكتور قلعجي: «وعند عرب الجاهلية، والبيئة التي نشأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف كانت تبدو، صورة

الطب في مطالع البعثة المحمدية؟... وكيف كان حال المعارف العلمية الطبية والعلاجية؟.. لم تكن معارف العرب الطبية قبل القرن السابع للميلاد إلا بعض معلومات فن الشفاء التي كانت شائعة بين معاصريهم تلك الأيام والمنية على تجارب قاصرة ووصفات متوارثة عن مشائخ الحي وعجائزه إلا أنه ليس على قانون طبيعي أو ... بعقاقير وأدوية من نبات وأغذية وكان الكي عماد معالجتهم كل مرض معضل.

واعتقدوا كذلك بالأرواح الشريرة وأنها سبب الأمراض ولا يشفي منها إلا السحر والتمائم على يد الكهّان والعرّافين وزاجري الطير والسحرة والمشعوذين.

وقد زعموا أن بين طلوع النجوم وغروبها أمراضاً وأوبئة وعاهات وكانوا ينسبون إليها التأثيرات من خير وشر وإنه إذا فشا الموت في الجرزان خصب الناس وأنه إذا أنّ ديك في دار فشا فيها مرض الرجال وإن أنّت دجاجة فشا مرض النساء... (انتهى كلام الدكتور قلعجي).

وأما في البلاد الأوروبية المسيحية فكان يعتبر كل مرض عقاباً ولعنة من الله وكان المجنون يضرب ضرباً مبرحاً حتى يخرجوا، بزعمهم، الشيطان الساكن فيه.

وكانت العجائز الباحثات عن خصائص النباتات الطبية تحرق بتهمة السحر والاتصال بالعوالم الشيطانية.

وكان الهنود والفرس يعتمدون في التداوي على كثير من النباتات وبعض المعادن وكان أغلب أدويتهم المفردات في حين أن البيزنطيين كانوا يفضلون المركبات.

ولقد تعلم بعض العرب من هؤلاء وهؤلاء بعض القواعد الطبية وعلموها في بلادهم ومن أشهرهم: الحارث بن كلدة، من الطائف، تعلم الطب في مدرسة «جندي سابور» وتمرن هناك وحصل على معارف في الداء

والدواء - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يوصي بالتطبيب عنده وكان له معالجات كثيرة ومحاورة شهيرة مع كسرى وقد جاء فيها قوله عن الداء: «إدخال الطعام على الطعام، وهو الذي يفني البرية» - وله تلك الحكمة البليغة التي كثيراً ما تنسب غلطاً إلى الحديث الشريف: «المعدة بيت الداء والحمية أصل الدواء».

ولقد توفي الحارث أيام معاوية ومنهم من يقول أنه مات هو وسيدنا أبو بكر رضي الله عنه في نفس الأسبوع متضررين بطعام مسموم أكلا منه جميعاً، والله أعلم.

كما أشتهر في الطب - النضر بن الحارث بن كلدة - الذي أظهر عداوة وبغضاً لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقد قتل على الكفر بعد معركة بدر.

وكذلك - ابن أبي رمثة التميمي - المشتهر بصناعة الجراحة.

و - ضماد بن ثعلبة - الذي أسلم على يد رسول الله قبل الهجرة.

و - الشفاء بنت عبد الله - اشتغلت بالطب في الجاهلية بالرقي ومعالجة «النملة» (وهي قروح في الجلد كعضة النملة) أسلمت وبايعت الرسول، صلى الله عليه وسلم بمكة واستأذنته لمتابعة عملها فأذن لها وعلمها دعاء «اللهم رب الناس أذهب البأس، إشف أنت الشافي وعاف أنت المعافي... ولقد جاء القرآن الكريم محرماً كل أنواع السحر والكهانة والدجل ومعلنا سلطان العقل على كل الأشياء ومبيناً أن الله عز وجل جعل في هذا الكون قوانين ثابتة واضحة وأن هناك أسباباً يجب على العقل أن يطلبها عن طريق التجربة العلمية والبحث وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى التداوي «تداووا عباد الله، فان الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء» وفي حديث أبي الزبير عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل» وفي مسند الامام أحمد من حديث زياد بن علاقة عن أسامة بن

شريك قال: «كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وجاءت الأعراب فقالوا: يا رسول الله أنتداوي؟ فقال: نعم يا عباد الله - تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داءٍ واحد فقالوا: ما هو؟ قال: الهرم».

وجاء في نفس الوقت ينهي عن الشعوذة وأنواع التدجيل في أحاديثه الشهيرة.

. «من علق تميمة فقد أشرك» التولتة: السحر والتمائم والرقي من الشرك «المنجم كاهن والكاهن ساحر والساحر كافر».

وسوف نبحث عن الطب النبوي في ما جاء به القرآن الكريم من قواعد حفظ الصحة واجتناب الأمراض وفي ما جاءت به الأحاديث الشريفة من حكم وتوصيات لأزال العلم المعاصر يؤيد صحتها وجدواها.

والقرآن الكريم سن للحياة دستوراً محكمًا لو أتبعه الناس بصدق واخلاص لسلم المجتمع الانساني من أشد الأمراض فتكاً وأصعبها علاجاً والتي تستعصي اليوم على كل ما وصل إليه الفكر من اكتشافات علمية ومن أدوية شديدة المفعول كمشتقات السلفا (Sulfamides) والمواد المضادة للحيوية (Antibiotiques) والكرتيزون وغيرها من الاختراعات الباهرة التي تمثل مفخرة هذا القرن العشرين.

إن القرآن جعل الصلاة عماد الدين ولقد أوضحت لنا السنة المطهرة شروطها وكيفية إقامتها وما يسبقها من تطهر ووضوء وسواك ونظافة الملبس والمكان وما تشتمل عليه من حركات رياضية معتدلة ومنشطة لكل عضلات الجسم.

فالطهر الأكبر واجب بعد كل اتصال جنسي يقظة أو مناماً وبعد النفاس والحيضة وهو مندوب قبل صلاة الجمعة وصلاة العيدين. ومن البديهي أن غسل جميع البدن وتدليكه باليد ينشط الدورة الدموية ويهديء

الأعصاب ويفتح المسام ويزيل الأوساخ والروائح الكريهة ونحن نعلم أن على سطح الجلد تعشش أنواع كثيرة من الجراثيم الخطيرة.

(Staphylocoque, Streptocoque) التي تعيش في شبه نعاس حتى إذا وجدت المناخ الصالح عادت إلى الحياة النشيطة وتسببت في أخبث الأمراض.

والوضوء يتكرر عدة مرات في اليوم الواحد مبتدئاً بغسل اليدين غسلاً محكمًا كما أنه من السنّة غسل اليدين قبل الأكل وبعده وهذا من أحسن أسباب حفظ الصحة كما تعلمون.

ثم تأتي المضمضة وهي تطهير للفم واللثة والأسنان وقد تبين علمياً أن بعض أمراض القلب تنشأ عن تعفن الأسنان زيادة على ما يتسبب فيه وسخ الفم من رائحة كريهة ومن تسوس الأسنان ومن التهاب الحلق واللسان.

أما الاستنشاق والاستنثار فهما يغسلان داخل الأنف والأنف هو باب التنفس ومدخل الهواء للحلق والرئتين وإذا لم تتجدد مواده المخاطية كانت حقلاً خصباً للجراثيم والفطريات (Champignons) الفتاكة وتضاءلت من جرائها حاسية الشم.

وغسل الوجه والعينين يزيل عنهما رواسب الغبار والعرق ويحفظ لها نضارتها وجمالها. وكذلك غسل الذراعين والمسح على الرأس وتخلل الاذنين وغسل الساقين. والصوم أصبح اليوم من أنجح الوسائل العلاجية لأمراض القلب والشرايين الناتجة عن ارتفاع نسبة المواد الشحمية ومن أخطرها مادة «الكولستيرول» - وإني جربت منذ أعوام صيام الأيام البيض من كل شهر فأغناني ذلك، والحمد لله، عن تناول أدوية كثيرة وشعرت بتحسن كبير رغم ترك الدواء جملة. والصوم تقوية للجهاز الهضمي الارادي واللاإرادي وينظم هكذا عمل الغدد ويقويها - وهو في نفس الوقت يعطي الجهاز

الهضمي مهلة للراحة يستفيد منها خير استفادة مع أنه يقوي قدرة امتصاص الأمعاء للمواد الغذائية النافعة التي كان يضيع الكثير منها مع الفضلات.

وأريد أن الاحظ أن بعض المسلمين اليوم جعلوا من شهر الصيام شهر الشره والانهماك في تناول أنواع المآكل الدسمة فتضيع هكذا كل الفوائد الصحية والروحانية من صيامهم بل تنقلب إلى كوارث لا تحمد عقباها حتى أن بعضهم يرتكز عليها ليقدح باطلاً في شعيرة الصوم.

والحج ارتحال عن الأوطان بما في ذلك من مشقة السفر ومن ترك عادات الراحة المنزلية ومن التزام تدبير شؤون المآكل والمنزل في كل مرحلة من مراحله الكثيرة ولهذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم «جهاد النساء».

والحاج ينام على الأرض بعد الفراش الوثير وفي ذلك فوائد جمة، منها التخوشن وهو من أكبر أسباب الرجولة في حين أن الترف والبذخ من أسباب التخنث وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أخشوشنوا، أخشوشنوا)، والنوم على اليابسة شرط أساسي في معالجة أنواع البرد (Rhumatisme) وخصوصاً منها عرق النسا (Sciatique) وهو كذلك منشط للدورة الدموية ومساعد على إزالة الترسبات الشحمية في الجلد (Cellulite). هذه في عجالة الفوائد الصحية لما أوجبه الله من فرائض لا يتم الاسلام إلا بها. وأما فوائد ما حرمه القرآن والسنة فقد أصبحت من باب تحصيل الحاصل إذ لا ينكرها أحد مهما كان تعصبه وتحامله على الاسلام.

فتحريم الزنا يجنب الفرد والمجتمع أمراضاً وعاهات يعسر علاجها وتذهب في ذلك العلاج أموال طائلة بدون طائل. ومن تلك الأمراض - الزهري (Syphilis) الذي يؤدي إلى الجنون (Tabes) أو الموت بالسكتة القلبية ويتسبب في أمراض جلدية عديدة ومشوهة كأكل الأنف وشق الشفة وفي إسقاط الجنين قبل أوانه وفي إضعاف مخ المولود واختلال مداركه الذهنية.

وكذلك مرض - السيلان الأبيض (Blennorragie) الذي يفتك بالرجال وهو أخطر بكثير عند النساء ويمكن الجزم بأنه من أعسر الأمراض مداواة رغم البنسلين والمواد الأخرى المضادة للحيوية. وهذا المرض العضال يؤدي إلى العقم ويتسبب في أوجاع مؤلمة في بعض المفاصل كالرسغ. وإذا وصلت جرثومته إلى العين كثيراً ما تؤدي إلى عماها.

وتحريم الخمر والمخدرات يتطلب مجلدات لتبيين ما فيه من فوائد عظيمة لصحة الفرد والمجتمع ولسلامة هذا المجتمع من العنف والاجرام والعربدة وسقوط الأخلاق ويوفر للبلاد أموالاً تمثل نسبة هائلة من ميزانيته. وتحريم تزوج المحارم فيه حفظ للجنس من التقهقر الذاتي والانحلال والضعف. وتحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير فيه وقاية من أخطر الأمراض والتسممات - ذلك أن السائمة إذا ماتت من مرض كانت حاملة لجراثيم ذلك المرض الذي يتسرب إلى الانسان عن طريق الأكل. والدم سريع التعفن والانحلال وإذا لم يفرغ من الحيوان بعملية الذبح أو النحر تعفن في البدن وجعل اللحم غير صحي. ولحم الخنزير غني بأنواع الديدان الخطرة وبمادة الكولستيرول وبمواد سرطانية اكتشفت أخيراً. وتحريم قرب النساء عند المحيض وفي فترة النفاس يقي الرجل والمرأة من أمراض عديدة. ويمكننا هكذا أن نرى أن الاسلام لو طبق بصدق واخلاص لخلق مجتمعات سليمة، بعيدة عن الرخاوة والميوعة والمسخ، محصنة عن أشد الأمراض فتكاً وأغلاها معالجة وأعسرها دواء. وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء متمماً لهذا الدستور القرآني البديع بحكمه الصحية ومنهجه في ممارسة الحياة من كل جوانبها.

إنه يؤكد فضل النظافة في كثير من أحاديثه: «النظافة من الايمان والوسخ من الشيطان» «الطهور شطر الايمان» - خمس من الفطرة: «الاستحداد والختان وقص الشارب ونتف الابط وتقليم الأظافر» - «لو لا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك قبل كل صلاة». وكان صلى الله

عليه وسلم يوصي بتغطئة الاناء وايكاء القربة - وكان يفضل الماء البائت في الشنان لحكمتين بليغتين:

فالأولى هي اعطاء الماء مهلة لترسب المواد الرملية وغيرها وهكذا يصفو الماء.

والثانية أن الماء يرشح من مسام الشنة ويتبخر فيبرد الماء. ومن خصائص الشنان والقرب أنها تطلي عادة بشيء من القطران والقطران غني بعقاقير ماحقة للجراثيم ويعطي الماء البارد نكهة خاصة. وكان يحذر من الأمراض الكثيرة التي يتسبب فيها الكلب إذا ولغ في الاناء أو إذا مسح عليه الانسان. ذلك أن الكلب كثيراً ما يحمل في لعابه جراثيم الكلب أو بويضات أنواع خطيرة من الدود وأخطرها ما يسمى Toenia) (echinococcus الذي يحدث أكياساً في حجم البيضة أو البرتقالة في الرئتين أو الكبد أو الأعضاء التناسلية وهو ما يسمى بمرض الكيس Kyste) (hydatique وهذا الكيس يضغط على الشرايين والأعصاب ويتسبب في أوجاع كبيرة، وإذا انفلق في العضو استوجب ذلك الأمر العملية الجراحية السريعة.

وكثيراً ما يحمل جلد الكب حشرة الجرب فتنتقل منه إلى الانسان. ولهذا فان الأحاديث تؤكد نجاسة الكلب وتحث على الوقاية من أضراره. «إذا ولغ الكلب في اناء أحدكم فليرقه ثم ليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب».

وكان صلى الله عليه وسلم ينهى عن دخول البلد الذي فيه الطاعون (Peste) وعن الخروج منه. فلا ينبغي دخوله اجتناباً للعدوى ولا ينبغي لمن كان فيه أن يخرج منه حتى لا يحمل المرض إلى بلد آخر - وهذا ما هو متبع اليوم في الأمراض المعدية والوبائية. وكان يوصي باجتناب المجذوم (Lepreux) في قوله: «فر من المجذوم فرارك من الأسد» ونظراً لأن البدن

القوي النشيط أقل تعرضاً للأمراض وأكثر قدرة على مقاومتها، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يحث على ممارسة الرياضة منذ الصبا وفي الحديث: «علموا أولادكم السباحة والرماية» وفي حديث آخر: «كل شيء ليس من ذكر الله لهو ولعب إلا أن يكون أربعة.. ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشي الرجل بين الغرضين، وتعليم الرجل السباحة» (رواه النسائي: صحيح).

وكان يحب المصارعة ويشجع على تعلمها كما كان يحص على تعلم الفروسية والرمي. وقد ورد في صحيح مسلم من حديث عقبة بن عامر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، إلا أن القوة الرمي «يرددها ثلاث مرات» ولقد صرع رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد معاصريه قوة وبطشاً منهم ركانة وأبو الأسود الجمحي ويزيد بن ركانة.

وأما في شؤون الأكل فإنه من أسلم القواعد الصحية إذ كان يلتزم أقسى أنواع التقشف وكان يعيش على الأسودين: التمر والماء - ومن أحاديثه الشهيرة: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا فلا نشبع» وفي مسند الامام أحمد وغيره: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه». يحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان لا محالة: فثلث لطعامة وثلث لشرابه وثلث لنفسه (رواه أحمد والترمذي).

وفي القرآن الكريم: (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) - الأعراف: ٣١. وكلنا يعلم أن ما يؤكل فوق الحاجة يتعب المعدة والكبد وبقية الجهاز الهضمي ويخلف ترسبات شحمية تثقل البدن وترهق القلب وتعطل عمل الأعضاء وتزيد في خثورة الدم وتتسبب في تجلط الشرايين. ومن الأكيد أن الذين يموتون من التخمة أكثر بكثير من الذين يموتون جوعاً.

والسمنة تتسبب في مرض البول السكري وارتفاع الضغط في الشرايين والذبحة الصدرية والسكتة القلبية.

كل ما ذكرناه يتعلق بالطب الوقائي ونحن نعلم أن الوقاية خير من العلاج. أما في الطب العلاجي فبالرغم من أن دائرة العلوم الطبية في ذلك الوقت كانت ضيقة بالنسبة لما وصل إليه العلم المعاصر فإننا نلاحظ بكل إعتزاز أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على علم لا بأس في هذا الميدان وكل ما أوصى به من طب له حكمته وتفسيره المنطقي.

هديه في معالجة الحمى:

إنه كان يوصي بصب الماء البارد على المحموم وقد جاء في الصحيحين عن نافع عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ﴿إنما الحمى - أو شدة الحمى - من فيح جهنم، فأبردوها بالماء﴾ ومن أكبر أسباب الحمى في الجزيرة العربية ضربة الشمس التي يذهب ضحيتها الكثير من الحجيج في الصيف. وخير علاجها بالماء البارد أو المثلج مع تناول أقراص الملح. فلا بد من وضع كيس من الثلج على الدماغ وإلا أصيب المخ بتشويهات كثيرا ما تخلف عند الصغار مرض الصرع التشنجي (Epilepisie) الذي لا يعرف له دواء.

رأيه في العسل:

ومن سنن ابن ماجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «عليكم بالشفائين: العسل والقرآن وكان صلى الله عليه وسلم يشرب العسل بالماء على الريق وان امتنع عن شرب العسل بالحليب تواضعا منه وفرارا من الترف. وكان يصف العسل في كثير من الأمراض والتسممات. وفائد العسل أصبحت من الحقائق الثابتة وقد كتبت البحوث المطولة في شأنها وسوف نسوق منها الأهم حتى لا نخرج عن دائرة الموضوع.

يحتوي العسل على نسبة ٧١,٤٪ من المواد السكرية وأغلبها سكر العنب (Clucose) الذي تمتصه الأمعاء بدون أي عملية هضم فينتفع منه القلب والمخ وجميع العضلات بعد وقت قصير من تناول العسل وهو بمثابة حقنة شرجية (Injection I.M) من مادة الـ (Clucose) ويحتوي كذلك على عدة فيتامينات منها:

الفيتامين (C) المساعد في علاج أمراض الدم والاسقربوط (Scorbut).

الفيتامين ك (K) المضاد للنزيف الدموي.

الفيامين د (D) المضاد للكساح ((Rachitisme).

مجموعة فيتامينات ب (B)(B1 B6 B12) المصالحة لمعالجة عدة التهابات... والمساعدة على عمليات التمثيل الغذائي.

الفيتامين أ (A) الضروري للتنمية البدنية وللوقاية من الأمراض التعفنية ولتقوية البصر ولتجديد البشرة واندمال القروح الجلدية وإزالة مخلفات الحرق.

والعسل يحتوي كذلك على معظم الأملاح اللازمة للحياة كالكلسيوم (Ca) والفسفور (P) والحديد (Fe) والكبريت (S) والمغنسيون (Mg) والكلور (CL)... واليود (I) والصوديوم (Na) والبوتاسيوم (K) وبه كذلك عدة خمائر (Levures) وأنزيمات (Enzymes) تساعد على هضم وتمثيل المواد السكرية ولهذا فان المصابين بمرض البول السكري لا يتضررون من تناول شيء معقول من العسل في حين أن السكر العادي يزيدهم توعكا وهزالا.

والعسل نافع لأقراح المعدة والأثني عشر (Duodenum) وملينّ للسعال ومضاد للسموم ومسهل للطبيعة - فمن أجل ذلك ذكر بالقرآن الكريم في سورة النحل ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾ الآية: ٦٩.

هديه في معالجة الاستسقاء (Hydropisic):

جاء في الصحيحين من حديث أنس بن مالك قال: «قدم رهط من عرينة وعكل على النبي صلى الله عليه وسلم فاجتووا المدينة (يعني كرهوا المقام بها) فشكوا ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «لو خرجتم الى إبل الصدقة فشربتم من أبوالها وألبانها، ففعلوا...» والاستسقاء هو تورم يقع في البطن إما لضعف في القلب أو في حالة تشمع الكبد (Cirrhose) أو انتفاخ الطحال (Rate) الناتج عن عدة أمراض منها حمى المستنقعات (Malaria) التي كانت متفشية بالمدينة حتى سميت «يثرب» قبل مجيء الرسول.

وحليب النياق فيه سكر الحليب (Lactose) الذي له مفعول في إدرار البول وفيه خلاصة الأعشاب العطرية التي ترتعي فيها الجمال كالأكليل والسعتر التي تنشط الكبد وتيسر خروج المرة الصفراء من غدتها. وإني أذكر أننا في الحرب العالمية الثانية فررنا من الغارات الجوية الى البادية وأني أصبت هناك باليرقان (وهو ما تسميه العامة أبو صفير) فلم تنفعني أدوية الطبيب طيلة شهر كامل وقد أنهك المرض قواي حتى كنت أشعر بالدوران - فنصحني بعض الشيوخ بشرب حليب النياق، فكنت تراني أنتقل بين مراعي الابل لأحصل على هذا الدواء ولقد شفيت فعلا في أيام قلائل.

وأما البول ففيه زيوت الأعشاب العطرية المذكورة سابقا وفيه مادتان مدرتان للبول وهما الـ (Urobiline)والـ (Bilirubine).

هديه في كف النزيف الدموي:

لما اشتدت معركة أحد واقتحم الكفار صفوف المسلمين حتى انكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم، تزاحم عليه المشركون من قريش لقتله فقاومهم هو ومن معه بشجاعة الأبطال وصبر الصالحين ولكنهم هشموا بيضته على رأسه الشريف وشجوا وجهه الكريم وكسروا رباعيته فكان الدم ينزف بشدة من هاته الجروح.

وفي الصحيحين عن أبي حازم أن فاطمة الزهراء كانت تغسل الدم عن وجه أبيها وكان علي بن أبي طالب يسكب عليها بالمجن (الترس). فلما رأت فاطمة الدم لا يزيد إلا كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقتها حتى إذا صارت رماداً ألصقته بالجرح فاستمسك الدم».

ويفسر الدكتور قلعجي هذه الظاهرة بأن الحصير كان من ورق البردي (Papyrus) وأن رماده يعمل على المواد القابضة مثل الشب والدباغ - «فانها عندما تستعمل على الجروح ترسب البروتين السطحي وتكون طبقة من التهتكات وتحميها من المخترقات، وفي الجروح توقف النزيف بواسطة ترسب بروتين الدم ولها خاصية قتل البكتيرية حيث ترسب بروتينها فتموت. ونحن نعلم أن أي مادة جافة تختلط بالمادة الليفية (Fibrine) الموجودة في مصل الدم (Serum) تجعلها تترسب في الثقوب والثغرات فتسدها وينقطع هكذا النزيف.

الحجامة والكي:

في صحيح البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الشفاء في ثلاث. . شربة العسل وشرطة محجم وكية نار - وأنا أنهى أمتي عن الكي». والحجامة تنقسم الى حجامة جافة وحجامة رطبة. فالحجامة الجافة هي وضع كأس على الجلد وبالكأس قطعة قطن أو قرطاس مشتعلة، فحين يلصق الكأس بالجلد يفرغ منه بعض هوائه المحترق ويمتص الجلد فيأتي هكذا الدم المحتقن بداخل العضو الى سطح الجلد ويستريح العضو. وهو طريقة كانت تستعمل في حالات الاحتقان الصدري التي تصيب القلب أو الرئتين.

وأما الحجامة الرطبة فهي نفس العملية مع إحداث جروح داخل الكأس فيقع امتصاص الدم الزائد وكانت تستعمل في بعض أوجاع الرأس أو المفاصل.

وشرطة المحجم تستعمل لاستفراغ الدم الزائد في حالات ارتفاع الضغط الدموي وكانت تجنب المريض النزيف المخي الذي يخلف الفالج الشقي (Hemiplegie).

وأما الكي بالنار فهو من المعالجات القاسية التي ربما زاد ضررها على نفعها ولا تستعمل إلا عند الضرورة القصوى مثل تعقيم بعض التعفنات الخطرة كالأكال (Cangrere) أو لايقاف النزيف إذا تعذر الربط وهو ما يسمى الآن (THermocaauterisation).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي بالحجامة وكان يحتجم في بعض الحالات. في الصحيحين من حديث طاوس عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى الحجام أجره - وفي حديث آخر رواه البخاري: (خير ما تداويتم به الحجامة).

وفي حديث آخر قال: أنس بن مالك رضي الله عنه» كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتجم في الأخدعين (وهما عرقان في صفحتي العنق) وفي الكاهل (وهو ما يلي الرقبة من الظهر) - وأما في شرطة المحجم فكان يقول:

«لا يتبيغ (أي يتقوى - يطغي) بأحدكم الدم فيقتله» من سنن ابن ماجة عن أنس بن مالك) هدية في علاج عرق النسا (Sciatique).

هدية في علاج عرق النسا (Sciatique(:

وروى ابن ماجة في سننه من حديث محمد بن سيرين عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «دواء عرق النسا إليه شاة أعرابية تذاب ثم تجزأ ثلاثة أجزاء ثم تشرب على الريق في كل يوم جزء».

هدية في علاج القبض أو الامساك:

روى الترمذي في جامعه وابن ماجة في سننه من حديث أسماء بنت عميس قالت: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بماذا كنت تستمشين؟

قلت: بالشبرم قال: حار، حار ثم قلت: استمشيت بالسنا فقال: لو كان شي يشفي من الموت لكان السنا».

وفي سنن ابن ماجه عن ابراهيم أبي عبلة قال: «سمعت عبد الله بن أم حرام (وكان ممن صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم القبلتين) يقول: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «عليكم بالسنا والسنوات فان فيهما شفاء من كل داء الا السام» قيل: يا رسول الله وما السام؟ قال: الموت.

والغالب على الظن أن السنوت وهو عسل فيه قليل من السمن. والسنا شجرة صغيرة تنبت بالحجاز والسودان وأوراقها نافعة لمقاومة الامساك وهي كثيرة الاستعمال في وقتنا الحاضر وتصنع منها حبوب ومركبات أخرى.

والعسل ملين لطيف للبطن وهو في نفس الوقت يقلل من حدة مفعول السنا.

هدية في علاج ذات الجنب (Pleuresie):

وروى الترمذي في جامعة من حديث زيد بن أرقم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تداووا من ذات الجنب بالقسط البحري والزيت». والقسط هو العود الهندي المسمى عامة بالقماری والمستعمل في البخور. وهو غني بمشتقات الحامض البنزويكي (Ac. Benzoique) الذي يديب البلغم ويقتل الجراثيم ولا زالت مشتقاته تدخل في كثير من الشرابات المضادة للسعال. واستعماله مسحوقا في الزيت المحمي أما للتدهن أو للعق على غاية من... المعقولية وكان آنذاك من أنجح أدوية ذات الجنب.

هديه في علاج العذرة أو التهاب الحلق واللويزتين:

ثبت في الصحيحين أنه قال: «خير ما تداويتم به الحجامة والقسط البحري - ولا تعذبوا صبيانكم بالغمز من العذرة».

فكان يوصي بحك القسط بالماء ثم إدخال هذا الماء الى الحلق عن طريق المناخر، وهو ما يسمى بالسعوط.

هديه في علاج الصداع والشقيقة:

روى ابن ماجة في سننه حديثا في صحته نظر هو: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا صدع غلف رأسه بالحناء ويقول: إنه نافع باذن الله من الصداع «وفي الترمذي عن سلمى أم رافع مولدة رسلو الله صلى الله عليه وسلم قالت: «كان لا يصيب النبي صلى الله عليه وسلم قرحة ولا شوكة الا وضع عليه الحناء» وكان يوصي كذلك بالحجامة لازالة الصداع.

هدية في توازن المأكولات:

ثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن جعفر قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل الرطب بالقثاء» والقثاء نوع معروف من الخيار (Concombre) يمتاز بكثرة مادة السليلوز (Cellulose) فيه وبما يحتويه كذلك من مواد لزجة ومن بعض فيتامينات ب. ولهذا فان القثاء اذا أكلت بدون إفراط ساعدت على الهضم ومنعت الأمساك في حين أن التمر والرطب غنية بالمواد الغذائية الأساسية في حجم صغير وهي من أبطأ المأكولات هضما. ولهذا كان أكل الرطب بالقثاء علامة على حذق كبير في فن التغذية السليمة. وكان صلى الله عليه وسلم يأكل التمر بالبطيخ وكان البطيخ والعنب أحب الفواكه اليه.

وكان يحب اللحم ويقول أنه أكل أهل الجنة وأنه سيد الطعام. وكان يفضل الذراع والعنق لقلة شحمها ويسر هضمها.

هدية في التزام الحمية في بعض الأمراض:

في سنن ابن ماجة وغيره عن أم المنذر بنت قيس الأنصارية قالت: «دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه علي، وعلي نَاقِهْ من مرض ولنا دوال (يعني عراجين بسر) معلقة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم

يأكل منها وقام علي يأكل منها فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلي: «إنك نَاقِهٌ - حتى كفَّ.

قالت: وصنعت شعيرا وسلقا فجئت به فقال النبي صلى الله عليه وسلم من هذا أصب فأنه أنفع لك. ولقد نهى عليا عن أكل الرطب وهو مرمد وكذلك نهى صهيبا عن أكل التمر ما دام به رمد. ونحن نعلم أن التمر غني بالسكر وأن السكر يزيد في تعفن الأقراح ويبطيء اندمالها.

إرشاده الى دفع مضرات السموم بأضدادها:

لقد أتحفنا أخيرا الطبيب الفرنسي «موريس بوكلي» بكتابه التوراة والانجيل والقرآن والعلم إذ بين فيه بأسلوب علمي نزيه وحجج منطقية دامغة أن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي لا يتعارض مطلقا مع معطيات العلم الحديث بل كلما انكشفت للانسان حقائق هذا الكون إلا وازداد يقينا بصحة القرآن وتيسر له فهم بعض ألغازه التي لم يفهمها السابقون. ولكنه تناول حديث الذباب بشيء من التسرع في الحكم وقلة التروي في حين أن هذا الحديث إن دل على شيء فانما يبرهن عن عبقرية وإلهام هذا النبي الكريم الذي لا يقول إلا صدقا ولا ينطق عن الهوى. في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فامقلوه (أي أغمسوه) فان في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء».

فمن العلماء من قال بقبول هذا الحديث من باب الايمان ولو غابت عنا حكمته. ومنهم من يقول أنه مجاني أي نظر القلة الماء في الحجاز فوقوع الذباب فيه يكون بمثابة السم لأنه يحرم الناس من هذه المادة الحيوية الثمينة وإذا غمس فيه الذباب تكسرت النفس وأقبلت على شرب هذا الماء وفي ذلك يمكن الشفاء.

ولكن بعض العلماء المعاصرين، أو كما يؤكده الدكتور قلعجي في

كتابه - الطب النبوي - ص/١٨١، اكتشفوا في أحد جناحي الذبابة نوعاً من الفطريات (Chapignons) التي تفرز مواد مضادة للحيوية لها مفعلو شديد على الجراثيم السالبة لصبغة «غرام» كجراثيم الزحار (Dysenterie) والتفويد والبراتيفويد وكذلك جراثيم الكوليرا (الهيضة) والكزاز (Tetanos) والتراخوما والسل وكلها أمراض فتاكة يتسبب الذباب في نشر عدواها.

ومن المعقول جداً أن كل حيوان حامل لسم إلا وله طبيعية ضد هذا السم بالذات ولولا هذه الوقاية لهلك. ولهذا فلا عجب أن يحمل الذباب في نفس الوقت السم ودواء السم والله ورسوله أعلم. وعلى باحثينا وعلمائنا أن يدرسوا هذا الموضوع وسوف يكتشفون بدون أي شك ولا ريب ما يؤيد صحة هذا الحديث الذي اتخذه بعضهم مطعناً في السنة المطهرة ووسيلة للتشكيك في وصول هذا الدين ولكننا نقول لهم مسبقاً ان حجتهم منقلبة لا محالة عليهم وسوف ينقلب البصر خاسئاً وهو حسير. وهذا يذكرني أنني لما كنت صبياً بالتعليم الثانوي كنت أقرأ في كتب الجغرافيا أن الشمس قارة وأن الأرض والكواكب الأخرى تدور حولها - فكنت كلما مررت على الآية الكريمة: والشمس تجري لمستقر لها - (يس) كنت أقول في نفسي في تحسر وإشفاق: «ليته لم يقلها» حتى اكتشف العلم أخيراً أن نظامنا الشمسي ما هو إلا واحد من أنظمة أخرى تعد بالمليارات وأن الشمس تجري منذ خلقت في مجرتنا حسب خط حلزوني وأنها سوف تستقر بنقطة ما من الفضاء لتتكور وتتفجر وتموت كما تموت كل يوم آلاف النجوم الأخرى تاركة ما يسمى في علم الفلك الحديث النوفا (Nova).

فلم يبقى لي حين ذاك إلا أن ناديت في الظلمات مثل ذي النون: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».

بقية الأدوية التي كان يوصي بها صلى الله عليه وسلم:

الكمأة - كان عليه الصلاة والسلام يقول: «الكمأة» (Truffe) من المن ومأوها شفاء للعين «والكمأة هي نوع من الفطريات تعيش تحت

الأرض وتشبه البطاطس ونسميها عندنا «الترفاس» ويقول الدكتور قلعجي ان العلماء المعاصرين قد استخرجوا بالفعل من الكمأة دواء نافعاً للملتحمة. فهذا حقل آخر للبحث والاكتشاف موكول إلى همم علماء المسلمين.

الذريرة:

ذكر ابن السني في كتابه عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: «دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وقد خرج في إصبعي بثرة (دمل) فقال: عندك ذريرة؟ فقلت: نعم قال: ضعيها عليها وقال قولي: اللهم مصغر الكبير ومكبر الصغير صغّر ما بي «والذريرة دواء هندي يتخذ من قصب الذريرة وبها مواد عطرية لها مفعول في جلب الدمل وفي قتل الجراثيم الموجودة به.

وكان يوصي في الخراج وبعض الأورام الجلدية بعملية البط لاستفراغ مدتها.

الحبة السوداء:

وكان يقول في الحبة السوداء (الشونيز): «عليكم بهذه الحبة السوداء فان فيها شفاء من كل داء إلا السام» (يعني الموت). وكانت الحبة السوداء تستعمل بنجاح في تذويب الكلى والمثانة وفي مرض اليرقان]Cresson[- والصبر نبات شوكي معروف تسيج به البساتين (Afoes) ويستخرج من الصبر مادة صمغية (رانتج) لها مفعول شديد ضد الامساك. ومن حكمته صلى الله عليه وسلم أنه كان ينهى عن ممارسة حرفة الطب من لا علم له بهذا الفن وكان يحمل جهلة المتطببين مسؤولية أخطائهم. روى أبو داوود والنسائي وابن ماجة من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رس الله صلى الله عليه وسلم: «من تطبب ولم يعلم منه الطب قبل ذلك فهو ضامن (يعني مسؤول)».

نهيه عن التداوي بالمحرمات:

كان العرب في الجاهلية يتداوون بأنواع النجاسة كالجيفة والدم والحيوانات المستقذرة.... كالضفادع والديدان وكانوا يتداوون كذلك بالخمر فجاء الاسلام محرماً تلك الممارسات المخلة بكرامة الانسان والتي تضر ولا تنفع. وروى أبو داود في سننه من حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء،.. فتداووا ولا تتداووا بالمحرم «وفي السنن أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن الخمر يجعل في الدواء فقال: «إنها داء وليست بالدواء» وفي حديث آخر: «من تداوى بالخمر (أو بنجس) فلا شفاه الله».

وبعد، فهذه نبذة مختصرة من هديه صلى الله عليه وسلم في معالجة الأمراض الموجودة في زمانه وإنها رغم بساطتها تنم عن عقل حصيف وعن ذكاء نافذ وعن الهام من الله عز وجل. فهنيئاً لقوم قلت أمراضهم وانحصر طبهم في نطاق بسيط ويا تعس أقوام كثرت أمراضهم وتكاثرت أدويتهم وعلاجاتهم فتضررت من الأمراض نفسها.

ذلك أنهم ابتعدوا عن الفطرة السليمة واخترعوا لأنفسهم أدوية بعيدة كل البعد عما تنتجه فكثر مرض السرطان بأنواعه والأمراض النفسية والعقلية، في حين كانت الطبيعة لا تترك على قيد الحياة إلّا نخبة ممن سلمت أبدانهم وعقولهم من الأمراض والعاهات الوراثية تدخل الانسان بحمقة وتطاوله على قوانين الطبيعة فقلل كثيراً من نسبة الوفايات بين الصغار مما أدى إلى ضررين عظيمين تقاسي منهما البشرية.

١ - لما منعنا الطبيعة من عملية التصفية والانتقاء تكاثرت الأمراض والعاهات الوراثية فضعف الجنس البشري وتكاثرت أسقامه.

٢ - كانت الطبيعة تنظم الولادات والوفايات بقدر تحمل الأرض وتوفر الماء والغذاء ولكن الانسان بتدخله الغبي في قوانين الطبيعة خرم

توازن فصائل الاحياء وجعل البشرية تتكاثر على نسق مهول فضاقت الأرض بمن عليها وسوف يتزايد هذا الاكتظاظ الذي تتولد عنه الكراهية والعنف وتشنج الأعصاب وأنواع الشذوذ الجنسي فتصبح الحياة على الأرض جحيمًا لا يطاق.

فنحن لسنا ضد التطور العلمي والاختراع ولكن ضد الخروج عن قوانين الطبيعة وكشف أستارها واستعمال الهرمونات بدون روية والتدخل في دورات الحياة بما أبدعناه تألهاً منا وتطاولاً على الخالق البارىء المصور مما يؤكد لنا صحة وحكمة الحديث الشريف: «كل جديد بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار». لقد تأله الانسان ونسي حقوق الربوبية وترك المتوكل على الله والافتقار إليه وآمن بحول نفسه وقوتها وتعلق بالدنيا ونسي الموت والآخرة وكثر حرصه وقلت سكينته وتعقدت معيشته وتشعبت مسالكه وتزاحمت مشاكله وتبلبلت أفكاره فأصبح متوتر الأعصاب ضيق الصدر والشرايين يسمم نفسه بنفسه بكثرة إفرازاته الداخلية لشدة التشنج والانفعال وزاد في شقاواته أنه التمس دواءه في المحرمات من ممارسة الجنس والدعارة ومن تناول أنواع المسكرات والمخدرات ولقد صدق الشاعر الحكيم عبد الله بن المبارك حين قال:

رأيت الذنوب تميت القلوب
وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب
وخير لنفسك عصيانها

فيكفينا النظر في الحيوانات البرية التي تعيش في تناسق كامل مع الطبيعة ولا تحيد قيد أنملة عن نواميس الفطرة التي فطرها الله عليها فهي تنام بالعراء ولا تأكل إلا وجبة واحدة ولا تعرف أي دواء سوى بعض الأعشاب وهي رغم ذلك بل من أجل ذلك أقوى بكثير من الانسان.

– والدين الاسلامي ما هو إلا نداء صريح إلى الرجوع إلى الفطرة وإلى ترك البدع والفضول وكل ما يزيد على الحاجة في حين أن اقتصاد العالم اليوم لا يعتمد إلا على الاكثار من الحاجات المختلفة اختلافاً حتى أن الحياة أصبحت وكأنها لا تستقيم ولا تكتمل إلا بتلك الكماليات المبتدعة والآلات المعقدة سريعة العطب فأصبح الانسان مصداقاً حياً للآيات الكريمة من سورة الأعراف.

واتل عليهم نبأ الذي أتيناه أياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين (١٧٥) ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقص القصص لعلهم يتفكرون (١٧٦) ساء مقلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون (١٧٧).

ففي هذا الحفل المبارك وعلى مشارف هذا القرن السعيد نرفع أيدينا إلى الله مبتهلين ضارعين أن ينفعنا بجميع علوم سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم وأن يعود بنا إلى اتباع كتابه العزيز وسنّة نبيه الكريم في كل أعمالنا وأقوالنا وأن يكتب لنا جميعاً السلامة والعافية وحسن المنقلب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الدكتور صلاح الدين كشريد

دراســـــة
للمعاهدات في العهد النبوي

بقـلم
المفتي/ عتيق الرحمن العثماني
رئيس المجلس الاستشاري الاسلامي لعموم الهند
رئيس ندوة المصنفين بدلهي - الهند

الحمد لله الذي أسبغ علينا نعمه وجعلنا من الذين يتشرفون بنبيه الخاتم الذي أرسله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، صلوات الله عليه وسلامه.

أما بعد!

إن دراسة المعاهدات في العهد النبوي يمكن أن نقسمها إلى قسمين، إحداها ما عقدت بين المسلمين وغيرهم من المشركين والنصارى واليهود وأخراها ما عقدت بين مختلف طبقات المسلمين -وإن كان المؤرخون لا يعدون الأخرى في قسم المعاهدات فمن ثم نرى أن نضع الأولى ى موضع الاهتمام ونصرف الأنظار عن الأخرى كي لا نقع في مباحث طويلة.

وقبل أن نبدأ بالبحث يجب علينا أن نشير إلى أن المعاهدة لها أسماء أخرى منها الصلح والهدنة والتحالف، وإنها استعملت كمترادفات بمعنى واحد عند فقهاء الاسلام ومؤرخيه. ومن المتفق عليه أن الصلح أعمّ من الهدنة -لأن الهدنة قد تكون مؤقتة والصلح ليس له ما يؤقته أي هو معاهدة نهائية تجعل الحرب منقطعة وتسبب الصلح الدائم.

والمعاهدة التي تقع بين طرفين مسؤولين في وقت معلوم ويشترط فيها شرائط مخصوصة بعضها تعتبر في صحة العقد في حق العاقد، وقد تختلف إذا اختلف المعقود عليه وقد لا يجوز العقد إذا لم يكن العاقد إماماً ومسؤولاً أكبر، أو من يكون نائباً عنه متى كانت المعاهدة تتعلق بأمور الدولة كلها -ومن أهم الشروط لصحته هو أن تكون المعاهدة في صالح المسلمين والمتوقع دخول الاسلام في قلوب ذوي الطرف الآخر بسبب ما- وأن لا تكون هي مضرة بالاسلام.

إن الله تعالى قد أمر المسلمين بأن يوفوا عهودهم إذا عاهدوا ولا يخفروها -وإن إيفاء العهود من خصائص الاسلام، وأن ما أراه في هذا المقام هو أن أنقل كل ما ورد في القرآن والسنّة فقد قال الله تعالى:

﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾.

﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾. (التوبة: ٦-٧).

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا. وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾. (المائدة: ٢).

﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ (آل عمران: ٩).

﴿لا يخلف الله الميعاد﴾. (الزمر: ٢٠).

﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾ (آل عمران: ١٩٤).

﴿ولن يخلف الله وعده﴾ (الحج: ٤٧).

﴿فلن يخلف الله عهده﴾ (البقرة: ٨٠).

﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ (التوبة: ١١١).

﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ (البقرة -١٧٧).

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ (المعارج-٣٢).
﴿وأوفوا بالعهد أن العهد كان مسؤولاً﴾ (الاسراء-٣٢).
﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ (الرعد ٢٠-٢١).
﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهداتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً﴾ (النحل -٩١).
﴿وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾
(الأنعام -١٥٢).
﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا غير معجزي الله﴾ (التوبة ١-٢).
﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾
(التوبة -٤).
﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ (المائدة -١).

ومن أقواله صلى الله عليه وسلم:
المؤمنون تتكافأ دماؤ هم ويجير عليهم أدناهم وهم يد على من سواهم
(رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه نيل الأوطار ١٧٩/٨٢)

عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آبائهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة (رواه أبو داود -مشكوة المصابيح) ، (باب الصلح) ورواه البيهقي أنظر السنن الكبرى ٢٠٥/٥.

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كتب إلى عامل له في اليمن بأن لا يجبر أحداً من النصارى أو اليهود على تركه دينه، وكتب (من كان على يهودية أو نصرانية فلا يفتنن عنها).

فقد أثبت النبي صلى الله عليه وسلم فيما عقد من صلح الأراضي التي فتحوها أنه عامل الطرف الآخر معاملة حسنة وكان من شأنه أنه لم يستبد ولم يمل الشروط بدافع الانتقام والغيظ والغرور بقوته، وكان إذا عاهد مع المغلوبين عاهد كريماً فأقرهم على عقائدهم وشعائرهم وأمر برعايتهم والمحافظة على أموالهم.

إنه عاهد مع قبيلة تغلب سنة ٩ من الهجرة وكان دينه قد قوي وخضعت له العرب وأباح لتغلب أن تبقى في العرب على نصرانيتهم.

وعاهد نصارى نجران ولم يتركهم إلا أحراراً في دينهم.

ونراه صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية قد قبل ما اشترطت قريش عليه صلى الله عليه وسلم فيها شروطاً قاسية حتى أن وقعت واقعة فرار أبي جندل المسلم من أذى قومه في مكة، وألح على الرسول صلى الله عليه وسلم في ضمه إلى المسلمين ولكنه صلى الله عليه وسلم أنكر، وسلمه قريش مكة وفاء بما عاهد عليه، فقال أبو جندل: إنهم يعذبونني فقال له صلى الله عليه وسلم -أصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنّا قد قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وأنا لا نغدر بهم (سيرة ابن هشام ج٣ ص٣٦٧).

وانظروا في أحوال هؤلاء الذين عاهدهم الرسول صلى الله عليه وسلم، تجدونهم ينقضون عهودهم وينكثون إيمانهم، ويؤدون إلى الفساد، ويتمثلون في عدة خيانات لا مفرّ من عقاب الرسول صلى الله عليه وسلم عليها.

فبنو قينقاع كانوا قد حنقوا عليه صلى الله عليه وسلم لانتصاره في غزوة بدر فتحرشوا به صلى الله عليه وسلم واعتدى أحد منهم على امرأة مسلمة في سوقهم فقتله المسلم، فوثب اليهود عليه ثم قتلوه، فأجلاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن المدينة. (الكامل لابن الأثير ٢ ص٦٥).

وبنوو قريظة قد نكثوا المعاهدة مع النبي صلى الله عليه وسلم فأجلاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن المدينة، أنهم كانوا يتربصون بالمسلمين كل شر ويكيدون للمسلمين ويحرّشون أخوانهم من بني قينقاع وبني النضير، هم غدروا كراراً مراراً وأحدثوا الفساد والشر.

وأما بنو النضير فقد عاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم على اشتراكهم في الدفاع عن المدينة إذا تعرضت للاغارة عليها -ولكنهم زينوا لني قريظة أن ينضموا إلى الذين يحاصرون من مكة، وقد نجحت مؤامراتهم وأدت المؤامرات إلى غزوة الأحزاب.

والمسيحية كانت جهود أتباعها في القضاء على الاسلام وتعويقه كثيرة، إنهم كانوا يكيدون للاسلام كيد اليهودية بل أكثر، وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل إن هدى الله هو الهدى، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾ (البقرة -١٢٠).

﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفو واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير﴾ (البقرة -١٠٩).

﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ (البقرة -٢١٧).

ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن ابعت أهوائهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين﴾. (البقرة-١٤٥).

﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ (التوبة-٣٢).

فقد عاهد النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران كما أسلفنا وأعطاهم كل ما كان من شأنه صلى الله عليه وسلم وتركهم أحراراً في دينهم ولم يتعرض لهم، وإن تأهب للهجوم المفاجيء عليهم فتأهب عندما ظهر الفساد من عندهم.

إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يشدد في رعاية العهود وذلك يرجع إلى آيات القرآن الكريم بما فيها من أمر ونهي وتخويف وزجر فمثلاً قوله تعالى:

﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً، إن الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة إنكاثاً تتخذون إيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾ (النحل ٩١-٩٢).

وقوله تعالى: ﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ (الأنفال -٧٢).

وقوله تعالى: ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾. (النساء -٩٠).

نرى أن الآية جعلت رعاية العهد فوق الجميع، وقد كانت المعاهدات في الأمم قبل الاسلام تملى من القوي على الضعيف وتكتب من الأغنياء على الفقراء -ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم هو أول من عاهد ولم يتعد وهو أول من عاقد ولم يظلم- وحياته السياسية خير شاهد على ذلك.

كانت معاهدة اليهود أول معاهدة في الاسلام وكانت غير موقوتة وكذلك كانت معاهدة بني ضمرة عاهد الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود على السلم وحسن الجوار إذا استقر المقام به وبالمسلمين في المدينة -إنها كانت عقد جوار بين الأمتين عقداً دائماً وكانت في مجموعها مسجلة أحسن وأروع الأسس والمبادىء التشريعية الداخلية خاصة والدولية عامة -وهنا أورد أمثلة منها:

(١) فقد عوهد على أن النصر والمساواة لمن تبع العصبة من اليهود حيث نصه في المعاهدة (وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم).

(٢) أن يعلن الحرب على أمة مسلمة فيعلن لها على جميع المسلمين، كما ورد في المعاهدة -(وإن سلم المسلمين واحدة لا يسالم مؤمن في قتال في سبيل الله ألا على سواء وعدل بينهم).

(٣) لا ينصر مجرم حيث ورد فيها (وأنه لا يحل لمؤمن آمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه وإنه من نصره أو آواه فعليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة لا يؤخذ منه صرف ولا عدل).

(٤) ضمنت لكل من المسلمين واليهود الإستقلال، وكذا ضمنت محالفة عسكرية تقتضي تعاونهما في كل حرب على أن تنفق كل منها نفقة جيشها فقد جاء في المعاهدة (وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن على اليهود نفقتهم وإن بينهم النصر على من دهم يثرب أي المدينة).

(٥) إحتفاظ كل من اليهود والمسلمين بدينهما ووجوب التشاور والتناصح على كل فريق قبل دخول إحداهما الحرب حيث يدل عليه نص المعاهدة (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم وأموالهم وأنفسهم إلا من ظلم- وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم- وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم).

(٦) إن قريشاً ليست عدواً للمسلمين فقط بل لليهود أيضاً كما أورد في المعاهدة (ومن تجار قريش ولا من نصرها).

ويجدر بنا أن نذكر أن هذه المعاهدة لم تفرض فيها الجزية وإنها كانت دائمة غير موقوتة ما أقام اليهود على الحفاظ للعهد.

وأما معاهدة بني ضمرة فتدل على أنها كانت غير موقوتة بمدة كما ورد في نصها.

(هذا كتاب محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصر على من رامهم- وأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم للنصر أجابوهم عليهم بذلك ذمة الله ورسوله ولهم النصر) (زاد المعاد).

والذي يهمنا هو مدى احترام الرسول والمسلمين لعهودهم وتشددهم في تنفيذها وقيامهم بشروطها وقصة أبي جندل خير شاهد على ذلك التي حدثت بعد صلح الحديبية.

إن صلح الحديبية يدل على ما ذكرنا سلفاً من معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم كمعاهد لا يتعدى ولا يطغى وإليكم قصة الحديبية:

إن المسلمين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وسكنوها والأنصاريين الذين بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على نصرته وآمنوا بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم كانوا ينتظرون الفرج والاذن لهم بالاعتمار إلى بيت الله الحرام والطواف حوله -وحين سمعوا أن قريشاً فتحت البيت طبقاً للشروط التي اشترطتها قريش ووضعتها لمن يريد زيارة البيت- فتوجه الرسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة معه إلى مكة وهم ليسوا سوى ألف ونيف ليس معهم السلاح، ولكنهم عندما قربوا من مكة سمعوا أن قريشاً لا ترضى طوافهم بالبيت الحرام وتقرر أن تصدهم عنها، إنهم مستعدون للحرب معهم وقد جمعوا لهم كل ما أمكن لها من الجموع والسلاح، وسمعوا أن خالد بن الوليد سيلقاهم بمائتي فارس كمقدمة الجيش وعند ذلك رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوم بتغيير خط سيره ثم أمر بالنزول فجمع أصحابه ثم قال:

أما بعد! فإنه قد بلغني أن قريشاً قد جمعت جموعها تريد أن تصدنا عن البيت فأشيروا عليّ بما ترون -أترون أن نعمد إلى الرأس- يعني أن نعمد إلى أهل مكة- أو نعمد إلى الذين أعانوهم فنحالفهم إلى منازلهم فإن

جلسوا جلسوا موقورين مهزومين وإن طالبونا طلبوا طلباً مدانياً ضعيفاً فأخزاهم الله، فقام أبو بكر قائلاً نرى يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم أن نعمد إلى الرأس فإن الله جل ثناؤه ناصرك وأن الله معينك ومظهرك فتوجه الرسول إلى البيت ولكن عندما قرب من مكة بركت ناقته فقال الناس: خلأت يعني امتنعت، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم:

ما خلأت وما الخلأ بعادتها ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة لا تدعني قريش إلى تعظيم المحارم فيسبقون إليه -هلموا بنا ها هنا.

فنزل في الحديبية -إسم بئر...

علمت قريش بما فعل محمد فاختارت حليس بن علقمة مبعوثاً ليفاوض محمداً وليعرف ما عنده فلما عرف الرسول صلى الله عليه وسلم إسمه فقال «هذا رجل من قوم يعظمون الهدى فابعثوا له الهدى حتى يراه» -فقدمت له الابل عليها علامات الهدى تدل على أنها مهداة فلما رآها عاد إلى مكة ولم يكلم أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت له قريش ما وراءك، أجاب: أتى القوم بالهدى والقلائد -وأقبلوا قاصدين البيت معظمين لحرماته ليس معهم سلاح فلا أراهم يصدون عن قصدهم فغضبت قريش وقالوا له إنما أنت أعرابي لا علم لك بهذه الأمور ولقد أخطأنا ببعثك أنت إليهم.

ثم اختاروا عروة بن مسعود الثقفي وبعثوا إلى محمد فتوجه إليه وقابله وقال يا محمد -جمعت أوباش الناس ثم سرت بهم إلى عقرك وبيضتك التي تفلقت لتبيد خضراءهم تعلم أنني جئت من عند كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد لبسوا جلود النمور عند العوز المطافيل يقسمون لا تعرضون لهم خطة إلا عرضوا لك أمراً منها.

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: أنا لم نأت لقتل ولكن أردنا أن نقضي عمرتنا وننحر هدينا فهل لك أن تأتي قومك فإنهم أهلي وأن الحرب

قد أخافتهم وأنه لا خير لهم أن تأكل الحرب منهم، إلا قد أكلت فيجعلون بيني وبينهم مدة يزيد فيها نسلهم ويؤمن فيها شرهم، يخلوا بيني وبين البيت فنقضي عمرتنا وننحر هدينا، ويخلو بيني وبين الناس فإن أصابوني فذلك الذي يريدون وإن أظهر نبي الله عليهم اختاروا لأنفسهم أما قاتلوا معدين وإما دخلوا في السلم وافرين سالمين.

فلما إن سمع عروة مقالة النبي صلى الله عليه وسلم رجع إلى قومه قريش وقال، تعلمن أنكم أخوالي وأحب الناس إلّي، ولقد استنفرت لكم الناس في المجامع، فلما لم ينصروا أتيتكم بأهلي حتى سكنت بين أظهركم إرادة أن أواسيكم، ولقد تعلمن أني ما أحب الحياة بعدكم وتعلمن أني قد رأيت العظماء وقدمت على الملوك فأقسم بالله إني ما رأيت ملكاً ولا عظيّما أعظم في أصحابه من محمد- إن منهم رجل يتكلم حتى يستأذنه في الكلام فإذا أذن تكلم وإن لم يأذن له سكت ثم أنه ليتوضأ فيبتدرون وضوءه يصبونه على رؤوسهم يتخذونه حناناً.

فلما سمعوا هذه المقالة أحاطهم الرعب وفكروا في الأمر وتراجعوا وتشاوروا.

كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يتأكدون أن الحرب لا بد منها ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأذن لهم بها ولا بالمجابهة -وبلغ الأمر غايته حينما جاءهم خبر من مكة بأن قريشاً قد قتلت عثمان بن عفان غدراً به- وكان مبعوثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة- فثار المسلمون واجتمعوا حول الرسول صلى الله عليه وسلم وطلبوا منه الاذن لهم بالقتال مؤكدين له خبر الغدر بعثمان بن عفان، فوافق الرسول صلى الله عليه وسلم على رد اعتداء أهل مكة والأخذ بدم عثمان بن عفان -إن لم يكن قتل- فوقف النبي صلى الله عليه وسلم تحت شجرة وأمر مناديه بأن ينادي في الناس:

«الا أن روح القدس قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم

فأمره بالبيعة فأخرجوا على اسم الله تعالى فبايعوه (تفسير الألوسي ج٢٦ ص٩٧) فأقبلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف تحت شجرة كبيرة في الحديبية وأخذوا يبايعونه على عدم الفرار وعلى الثبات حتى الاستشهاد أو الانتصار.

قال سلمة بن الأكوع -بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت، وقال جابر بايعناه على أن لا نفر.

وشاءت الأقدار أن يكون أول من يبايع هذه البيعة الكريمة هو أبو سنان، وهب ابن محض الاسدي أخو البطل الشهيد عكاشة بن محصن الأسدي الذي بشر بالجنة في حياته ولقي الشهادة في حروب الردة فقد أقبل أبو سنان أولاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له في صدق وإخلاص يا رسول الله أبسط يدك أبايعك فقال النبي صلىّ الله عليه وسلم على ماذا؟ فأجابه أبو سنان على ما في نفسك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم وما في نفسي؟ فأجابه أبو سنان الفتح أو الشهادة -فسر الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك وبسط يده فبايع بها أبو سنان (تهذيب الأسماع ج١ ص١٤٩).

وأقبل الصحابة من وراء أبي سنان يبايعون الرسول قائلين نبايعك يا رسول الله على ما بايعك عليه أبو سنان ولما انتهت المبايعة بآخر جنده، وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده اليسرى على اليمنى وقال هذه عن عثمان وأنزل الله تعالى الآيات تتلى مدى الدهر:

﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيمًا، وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيمًا، وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً﴾ (الفتح ١٨-٢١).

إن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رغبوا في أن يصالحوا ولكن أعداءهم اضطروهم للقتال فاستعدوا له استعداداً يغلب كل قوة مادية وهنا جاءهم الخبر ما زال عثمان بن عفان حياً، ولم يقتل فهدأت النفوس وازداد الأمل ثم أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن سهيل بن عمرو يستأذن في مقابلته آتياً من مكة نائباً عن قريش فقال الرسول صلى الله عليه وسلم إذا سهل الأمر ائذنوا له -فدخل عليه صلى الله عليه وسلم ومعه عرض من قريش، فقال للرسول صلى الله عليه وسلم، وطلب منه رجوعه عن مكة عامة هذا فإذا كان العام القابل قدم إلى العمرة، ودخل مكة واشترط أن لا يكون معه فرس ولا سلاح- فقبل الرسول صلى الله عليه وسلم الطلب ونادى علي بن أبي طالب وأمره بكتابة عقد الصلح.

وبعد أن اتفق الطرفان على الشروط قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب إكتب -بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل، أبداً لا نكتب هذا أبداً، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم فكيف نكتب قال أكتب: باسمك اللهم فقال الرسول صلى الله عليه وسلم «هذه حسنة اكتبوها» ثم قال أكتب «هذا ما تقاضي عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال سهيل «والله ما نختلف إلا في هذا «قال النبي صلى الله عليه وسلم كيف. . .؟ قال لو كنا نعتقد بأنك رسول الله لصدقناك ولكن أكتب اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله قال «وهذه حسنة أكتبها» وكان من أهم الشروط التي وضعت وتم الاتفاق عليها «أن بيننا العيبة مكفوفة وأنه لا أغلال ولا ألال وأن من أتى من قريش إلى المدينة يرد إلى مكة ومن أتى من المدينة لا يرد إليها وإن من رغب من القبائل الدخول في شرط الفريقين فله مثل شرطه وهكذا كتب على العقد ووقع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جانب المسلمين وسهيل بن عمرو عن جانب قريش.

وعندما انتهى الأمر رأى المسلمون أبا جندل بن سهيل بن عمرو يلتجيء إليهم فراراً من مكة وقد ربطته قريش عندما أسلم، فقالوا! اللهم

أبو جندل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هو لي» فتدخل أبوه سهيل وقال: لقد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يلتحق بك هذا فهو لي، فكانت الشروط التي تنص على أنه لسهيل فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرد أبو جندل إلى سهيل -فأخذ أبو جندل يبكي وينادي: يا رسول الله يا معشر المسلمين أتردونني إلى المشركين يفتنونني في ديني، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم يا أبا جندل قد لجت القضية بيننا وبينهم، ولا يصلح لنا الغدر، والله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، وخرج وفد قريش من المسلمين حاملاً معه عقداً موقعاً وتوجه إلى قومه.

وهكذا تميز الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالوفاء في الساعة الحرجة.

ولا يمكن لنا أن ندرس المعاهدات في العهد النبوي إلا إذا راجعنا الوثائق التي تتعلق بالمعاهدات في عهده صلى الله عليه وسلم ولهذا نجمع الوثائق كي يتسنى لنا دراسته دراسة صحيحة كاملة- وإليكم وثائق امعاهدات التي نقلناها من مجموعة الوثائق السياسية للأستاذ الدكتور حميد الله الحيدر آبادي أستاذ الحقوق الدولية سابقاً بالجامعة العثمانية بحيدر آباد دكن.

هدنة الحديبية:

باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين؛ يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.

وعلى أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجاً أو معتمراً أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو إلى الشام يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله.

وعلى أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه.

وإن بيننا عيبة مكفوفة، وإنه لا أسلال ولا أغلال.

وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

فتواثبت خزاعة فقالوا «نحن في عقد محمد وعهده» وتواثبت بنو بكر فقالوا «نحن في عقد قريش وعهدهم».

وإنك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، ولا تدخلها بغيرها.

وعلى أن هذا الهدى حيث ما جئناه فلا تقدمه علينا.

أشهد على الصلح رجال من المسلمين، ورجال من المشركين.

أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عبد الرحمن بن عوف، [illegible] الله بن سهيل، سعد بن أبي وقاص، محمود بن مسلمة، ومكرز بن حفص، وعلي بن أبي طالب...

(مجموعة الوثائق السياسية ص١٤)

معاهدته صلى الله عليه وسلم مع أهل أيلة:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه أمنة من الله ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام أهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه من الناس.

وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر.

هذا كتاب جهيم بن الصليت وشرجبيل بن حسنة بإذن الرسول الله (صلى الله عليه وسلم) (ص٣٤).

معاهدته صلى الله عليه وسلم مع أهل جربا وأذرح:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي لأهل أذرح، أنهم آمنون بأمان الله ومحمد وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة -والله كفيل عليهم بالنصح والاحسان للمسلمين ومن لجأ إليهم من المسلمين من المخافة والتعزيز إذا خشوا على المسلمين وهم آمنون حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه.

(مجموعة الوثائق السياسية ص٣٥).

معاهدته صلى الله عليه وسلم مع أهل مقنا:

بسم الله الرحمن الرحيم

(من محمد رسول الله) إلى بني حبنة وإلى أهل مقنا.

أما بعد فقد نزل علي آيتكم راجعين إلى قريتكم فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون لكم ذمة الله وذمة رسوله.

وإن رسوله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم.

وإن لكم ذمة الله وذمة رسوله لا ظلم عليكم ولا عدى.

وإن رسول الله جار لكم مما منع منه نفسه.

فإن لرسول الله بركم وكل رقيق فيكم والكراع والحلقة إلا ما عفا عنه رسوله أو رسول رسول الله.

وإن عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخلكم وربع ما صادت عروككم وربع ما اغتزل نساؤكم.

وإنكم برئتم بعد من كل جزية أو سخرة -فإن سمعتم وأطعمتم فإن على رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم.

أما بعد فإلى المؤمنين والمسلمين.

من أطلع أهل مقنا بخير فهو خير له ومن أطلعهم بشر فهو شر له وأن ليس عليكم أمير إلا أنفسكم أو من أهل رسول الله.

والسلام - (وكتب علي بن أبي طالب في سنة تسع)

(مجموعة الوثائق السياسية ص٣٦)

ورواية أخرى عن معاهدة مقنا المذكورة:

هذه الوثيقة وجدت بالخط العبراني واللغة العربية في خطية في مصر وقد وضعنا بين ( ) الكلمات المخرومة في الأصل.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول الله لحنينا ولأهل خيبر والمقنا ولذراريهم ما دامت السموات على الأرض - سلام أنتم - إني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو أما بعد - فإنه أنزل علي الوحي - إنكم راجعون إلى قراكم وسكني دياركم فارجعوا آمنين بأمان الله وأمان رسوله - ولكم ذمة الله وذمة رسوله على أنفسكم ودينكم وأموالكم ورقيقكم وكل ما ملكت أيمانكم، وليس عليكم أداء جزية ولا تجز لكم ناصية ويطأ أرضكم جيش ولا تحشدون ولا تحشرون وتعشرون ولا تظلمون، ولا يجعل أحد عليكم رسماً ولا تمنعون من لباس المشققات والملوّنات ولا من ركوب الخيل ولباس السلاح ومن قاتلكم فقاتلوه ومن قتل في حربكم فلا يقاد به أحد منكم ولا له دية. . ومن قتل منكم أحد المسلمين تعمداً فحكمه حكم المسلمين، ولا يفترى عليكم بالفحشاء ولا تنزلون منزلة أهل الذمة وان استعنتم تعانون وإن استرفدتم ترفدون. . . ولا تطالبون بيضاء ولا صفراء ولا سمراء ولا كراع ولا حلقة ولا شد الكشتير ولا لباس المشهرات ولا يقطع لكم نعل ولا تمنعون دخول المساجد ولا تحجبون عن ولاة المسلمين ولا يولىّ عليكم وال إلا منكم أو من أهل بيت رسول الله

ولا يوسع لجنائزكم إلا إلى أن تصير إلى موضع الحق اليقين. وتكرموا لكرامتكم ولكرامة صفية ابنة عمكم وعلى أهل بيت رسول الله وعلى المسلمين أن تكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم - ومن سافر منكم وهو (فهو) في أمان الله وأمان رسوله ولا إكراه في الدين ومن منكم اتبع ملة رسول الله ووصيته كان ربع ما أمر به رسول الله لأهل بيته تعطون عند عطاء قريش. وهو خمسون ديناراً وذلك بفضل منيّ عليكم وعلى أهل بيت رسول الله، وعلى المسلمين الوفاء بجميع ما في هذا الكتاب فمن اطلع لحنينا وأهل خيبر والمقنا بخير فهو خير له ومن اطلع لهم بـ (شر) فهو شر له ومن قرأ كتابي هذا أو قرىء عليه أو نخالف شيئاً فعليه لعنة الله ولعنة اللاعنين من الملائكة والناس أجمعين - وهو بريء من ذمتي وشفاعتي يوم القيامة وأنا خصمه - ومن خصمني فقد خصم الله ومن خصم الله فهو في النار وبئس المصير.

شهد الله الذي لا إله إلا هو، وكفى به شهيداً ملائكته حملة عرشه ومن حضر من المسلمين وكتب علي بن طالب بخطه ورسول الله يملي عليه حرفاً حرفاً يوم الجمعة لثلاث ليال خلت من رمضان سنة خمس مضت من الهجرة.

شهد عمار بن ياسر وسلمان الفارسي مولى رسول الله وابو ذر الغفاري.

(مجموعة الوثائق السياسية ٣٩)

معاهدته صلى الله عليه وسلم مع نصارى نجران:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب محمد النبي رسول الله لأهل نجران إذ كان عليهم حكمه في كل ثمرة وفي كل صفراء وبيضاء ورقيق فافضل ذلك عليهم وترك ذلك كله لهم على ألفي حلة من حلل الأواقي في كل رجب ألف حلة وفي

كل صفر ألف حلّة مع كل أوقية من الفضة فما زادت على الخرج أو نقصت عن الأواقي فبالحساب وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالحساب وعلى نجران مؤنة رسلي ومتعتهم ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك ولا تحبس رسلي فوق شهر.

وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً إذا كان كيد باليمن ومعرّة. وما هلك مما أعاروا رسلي من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض فهو ضمين على رسلي حتى يؤدّوه إليهم.

ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لا يغير أسقف من أسقفيته ولا يطأ أرضهم جيش ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أكل رباً من ذي قبل فذمتي منه بريئة، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر وعلى ما في هذا الكتاب جوار الله - وذمة محمد النبي رسول الله حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم غير مثقلين بظلم.

شهد أبو سفيان بن حرب وغيلة بن عمرو ومالك بن عوف من بني النصر والاقرع بن حابس الحنظلي والمغيرة بن شعبة، وكتب لهم هذا الكتاب عبد الله بن أبي بكر - (ص٨٢).

ولأبي الحارث بن علقمة اسقف نجران:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد النبي إلى الأسقف أبي الحارث وأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم وأن لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير من بيعهم وصلواتهم ورهبانيتهم وجوار الله ورسوله لا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم ولا شيء مما كانوا عليه (على ذلك جوار الله ورسوله أبداً) ما نصحوا واصطلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين، وكتب المغيرة (ص٨٤).

معاهدته مع بني ضمرة:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا في دين الله ما بل بحر صوفه وأن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله ولهم النصر على من برّ منهم واتقى (ص١٤٣).

معاهدته صلى الله عليه وسلم مع مجدي بن عمرو سيد بني ضمرة:

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لاثنتي عشرة ليلة مضت من صفر في السنة الثانية للهجرة في سبعين رجلاً ليس فيهم أنصاري يريد قريشاً وبني ضمرة فاتفق له موادعة لسيد بني ضمرة هو مجدي بن عمرو واستقرت المصالحة على أن يغزو بني ضمرة ولا يغزونه ولا يكثروا عليه جمعاً ولا يعينوا عليه عدواً ولم يرو النص الكامل - ١٤٤..

محالفته صلى الله عليه وسلم خزاعة:

كانت خزاعة حلفاء جدّه عبد المطلب وكان النبي صلى الله عليه وسلم بذلك عارفاً ولقد جاءته خزاعة يوم الحديبية بكتاب جدّه فقرأه عليه أبي بن كعب وهو:

باسمك اللهم

هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة إذ قدم عليه سرواتهم وأهل الرأي منهم غائبهم يقرّ بما قاضى عليه شاهدهم ان بيننا وبينكم عهود الله وعقوده وما لا ينسى أبداً.

وفي رواية/ باسمك اللهم/ هذا ما تحالف عليه عبد المطلب بن هاشم ورجالات عمرو بن ربيعة من خزاعة تحالفوا على التناصر والمواساة ما بلّ بحر صوفة حلفاً جامعاً غير مفرق - الأشياخ على الأشياخ والأصاغر

على الأصاغر والشاهد على الغائب، وتعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد وأوثق عقد لا ينقض ولا ينكث ما اشرقت شمس على ثبير وحنّ بغلاة بعير وما أقام الأخشبان واعتمر بمكة انسان - حلف أبد لطول أمد يزيده طلوع الشمس وظلام الليل مدّا، وان عبد المطلب وولده ومن معهم ورجال خزاعة متكافئون متضافرون متعاونون، على عبد المطلب النصرة لهم بمن تابعه على كل طالب وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معهم على جميع العرب في شرق أو غرب أو حزن أو سهل وجعلوا الله على ذلك كفيلاً وكفى به جميلاً، فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب قال: كل حلف كان في الجاهلية فلا يزيده الاسلام إلا شدّة - ثم اتفق الطرفان على تقرير هذه المحالفة وتجديد عهدها إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترط أن لا يعين ظالماً وإنما ينصر مظلوماً.

وروى كتابه هذا لخزاعة أيضاً:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى بديل (بن ورقاء) وبشر وسروات بني عمرو (فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو)أما بعد فاني لم آثم بالّكم ولم أضع في جنبكم وإن أكرم أهل تهامة عليّ وأقربهم مني أنتم ومن تبعكم من المطيبين.

أما بعد - فإني قد أخذ لمن هاجر منكم مثل ما أخذت لنفسي ولو هاجر بأرضه إلا ساكن مكة إلا معتمراً أو حاجاً فاني لم أضع فيكم منذ سالمت وإنكم غير خائفين من قبلي وإلا محصرين.

أما بعد فانه قد أسلم علقمة بن علاثة وابنا هوذة وبايعا على من تبعهم من عكرمة - وأن بعضنا من بعض في الحلال والحرام واني والله ما كذبتكم، وليجنّبكم ربكم - ص١٤٥.

عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأقارب سلمان الفارسي المجوسيين:

نسخة منثورة بخط أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه كتبها على الاحريم الاحمر.

هذا كتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمهدي (كذا) فروح بن شخسان أخي سلمان الفارسي رضي الله عنه وأهل بيتك من بعده وما تناسلوا من أسلم منهم أو أقام على دينه -.

سلام الله إليك: إن الله أمرني أن أقول لا إله إلا الله لا شريك له أقولها وأمروا (كذا) الناس الخلق خلق الله والامر كله لله خلقهم وأحياهم وأماتهم ثم ينشرهم وإليه المصير وكل أمر يزول ويفنى وكل نفس ذائقة الموت ولا مرد لأمر الله ولا نقصان لسلطانيته (كذا) ولا نهاية لعظمته ولا شريك له في ملكه سبحان مالك السموات والارض الذي يقلب الأمور كما يريد - ويزيد الخلق على ما يشاء.

سبحان الذي لا يحيط به صفة القائلين ولا يبلغه وهم المتفكرين الذي افتتح بالحمد كتابه وجعل له ذكراً ورضي من عباده شكراً.

أحمده لا يحصي على أحد عدده ممن حمد الله واشهد أن لا إله إلا الله. فهو في الغيب والسرّ الكلاة والعصمة.

يا أيها الناس اتقوا الله واذكروا يوم ضعضعة (كذا) الأرض ونفخ (كذا) نار الجحيم والفزع الاكبر والندامة والوقوف بين رب العالمين آذنتكم كما آذن المرسلون لتسألن عن النبي العظيم، ولتعلمن نبأه بعد حين فمن آمن بي وصدق ما جاء فيما أوحى إليّ من ربي فله ما له وعليه ما علينا وله العصمة في الدنيا والسرور في جنات النعيم مع الملائكة المقربين والانبياء والمرسلين والأمن والخلاص من عذاب الجحيم.

هـذا ما وعـد الله المؤمنين وأن الله يـرحم من يشاء وهـو العليم

الحكيم، شديد العقاب لمن عصاه وهو الغفور الرحيم «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله».

ومن لا يؤمن به وهو (كذا) من الضالين ومن آمن بالله وبدينه ورسله وهو في درجات الفائزين.

وهذا كتابي: إن له ذمة الله وعلى (كذا) أبنائه على دمائهم وأموالهم في الأرض التي أقاموا عليها سهلها وجبلها وعيونها ومراعيها غير مظلومين ولا مضيق عليهم من قرىء عليهم كتابي هذا فليحفظهم ويبروهم (كذا) ومنع الظلم عنهم ولا يتعرض لهم بالاذى والمكاره -.

وقد رفعت عنهم جزّ الناصية والزنارة والجزية إلى الحشر، والنشر وسائر المؤن والكلف وأيديهم مطلقة على بيوت النيران وضياعها وأموالها ولا يمنعوهم من اللباس الفاخر والركوب وبناء الدور والاصطبل وحمل الجنائز واتخاذ ما يتخذونه في دينهم ومذاهبهم ويفضلوهم على سائر الملل من أهل الذمة - هذه كانت نسخة عهد نشرها جمشيد بي جيجي بهامي نيت من أعاظم مجوس الهند سنة ١٨٥١ المسيحية وقد نقلناها من كتاب الاستاذ حميد الله، ص٢٨٩..

وهناك ننقل عهود النبي صلى الله عليه وسلم كما وجدناها في كتاب الاستاذ والتي قال فيها انه ينقل تلك الآثار من خزائن كتب أوروبا الغنية بالآثار الشرقية لما وجد فيها من أسباب الألفة والاتحاد بين أهل الأوطان على اختلاف الاديان فوجه الالحاظ إلى تلك الآثار فأمعن فيها النظر وقابل بين النسخ التي حصل عليها، فإذا بعضها يختلف عن البعض الآخر في المعاني والالفاظ والزيادة والنقصان مع استقائها من مورد واحد ورجوعها إلى مصدر فرد، فبقي مرتاباً في الامر ولا يسعه أن يحكم فيه حكماً فصلا ويقول الاستاذ: نحن نطلب للمشكل فضاً وللعقبة ممراً إذ أرسلت بطركخانة الأرمن الكاثوليك في الآستانة نسخة من عهد آخر نشرته في دار السلام

الجرائد الأرمنية فأوردته جريدة الاحوال في عدد ٤٨٩٣ الصادر في ٢٦ شباط في السنة الجارية (١٩١٩) وما لبثت مجلة روضة المعارف بعد زمن قليل حتى روت في عددها الثالث عشر من سنتها الاولى (ص٢٨٩ - ٢٩٥) عهدة محمدية اخرى لعملة النصرانية..

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه صورة العهد، والميثاق والشروط التي شرطها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل الملة النصرانية... وعليهم وللرهبان والأساقفة باملائه لمعاوية بن أبي سفيان يومئذ بشهادة الصحابة ممن حضر المكتوبة اسماؤهم ادناه وكتب بالمدينة عام تاريخه بذيله -.

كتبه محمد رسول الله إلى الناس كافة بشيراً ونذيرا على وديعة الله في خلقه لتكون حجة الله سجل دين النصرانية في مشرق الارض ومغربها وفصيحها وأعجمها وقريبها وبعيدها ومعروفها ومجهولها كتاباً جعله عهداً مرعياً وسجلاً منشوراً.

ووصيته منه تقيم فيه عدله وذمة محفوظة فمن رعاها كان بالاسلام متمسكاً ولما فيه متأهلاً، ومن ضيعها ونكث العهد الذي فيها وخالفه إلى غير المؤمنين وتعدى بها ما أمرت به كان لعهد الله ناكثاً ولميثاقه ناقضاً وبدينه مستهيناً سلطاناً كان أو غيره من المؤمنين أو المسلمين.

كتبه معاوية بن ابي سفيان باملاء رسول الله يوم الاثنين في ختام اربعة الشهر من السنة الرابعة من الهجرة بالمدينة على صاحبها افضل السلام وكفى باسمه شهيداً على ما في هذا الكتاب والحمد لله رب العالمين.

وفي العهد كلام، يعلم كل منا أن حمزة استشهد في غزوة احد في سنة ٣ ومعاوية لم يسلم إلا عام فتح مكة سنة ٨ - ولن يكون عمر عبد الله بن العباس في السنة الرابعة إلا سبع سنين.

وعهد آخر:

قيل في آخره انه خط عن إحدى النسخ الثلاث التي كتبها علي بن أبي طالب رضي الله عنه باملاء محمد رسول الله سنة اثنتين بعد الهجرة واحدى النسخ كانت في خزينة السلطان والثانية بدير الطور في سيناء والثالثة في أيدي رهبان جبل الزيتون فهذا أوله:

هذا عهد الله لكافة النصارى ولسائر الاماكن النصرانية حفظاً منا ورعاية لنجاتهم لأنهم وديعة الله بعده في خلقه ليكون حجة له عليهم ولا يكون للناس حجة على الله بعده وجعل ذلك ذمة منه وحفظاً لأمر الله العزيز الحكيم.

كتبه وأمر سائر المولّين الأمور من أهل ملته بعده أن يمتثلوه ويعاملوا به كل من انتحل دين النصرانية ودعوا بها من مشرق الارض ومغربها وقبليها وبصرها وقريبها وبعيدها وعربيها وعجميها ومعروفها ومجهولها عهداً منه وسنة لهم ليحفظوها ويراعيها كل المولّين الأمور ممن هو بالامور متمسكاً ولطاعة الأمر تابعاً ومستاهلاً.

ومن نكثها وتعداها وخالفها وضيّع عهد الآمر به وغيره وفعل بخلاف ما رسم به الآمر كان لعهد الله ناكثاً ولميثاقه ناقضاً وبذمته مستهيناً وللعنته مستوجباً.

وهذه نسخة ثانية لا شك في انها موضوعة ولكن اليعاقبة ينتحلها فيزعمون أن محمداً أعطاها جبريل مطران الطائفة السريانية لهم والنصارى الاقباط - وهي منقولة عن نسخة كوفية تنسب إلى معاوية بن ابي سفيان محفوظة في دير السريان اليعاقبة الشهير المسمى بدير الزعفران بقرب ماردين وتبتدىء هكذا:

بسم الله الرحمن الرحيم

نسخة العهد الموهوبة من نبي الله محمد لطوائف النصارى القبط والسريان اليعقوبية بمصر وأقاليمها وفي كل مكان من أقطار الارض هذا عهد مني إلى سكان جميع النواحي من السريان والقبط حفظاً لميثاقهم ورعاية لأجل الله عز وجل لأنهم وديعة الله في أرضه ومحافظون لما أنزل عليهم في الانجيل والزبور والتوراة لا يكون لهم الحجة عليهم من قبل الله تعالى وصية منه وحفظاً عليهم بأمر الله العزيز الحكيم إذ أمر معاوية بقوله -.

اكتب لهم هذا العهد مني ليطلعوا (كذا) عليه سائر المسلمين والمتولّين للحكم من الامراء والوزراء والسلاطين والعلماء والفقهاء من الملة الاسلامية العاملين بوصيتي.

وما نقلناه إلا نبذة من نسخ العهود التي نوقن أنها موضوعة.

قد جمعنا الوثائق التي لها علاقة بالمعاهدات النبوية وكان أسهل مصادرنا لها هو مجموعة الوثائق السياسية للدكتور حميد الله الحيدر آبادي ثم الفرنساوي - وقد وردت هي في طبقات ابن سعد وفي الصحاح وفي الكتب الموثوقة بها غيرها ما عدا قليل وإنا نشكر الدكتور حميد الله على ما جمع الوثائق السياسية الاسلامية بجد وكد وسهّل لنا الاستفادة منها فجزاه الله تعالى خير الجزاء والله هو المستعان وعليه التكلان.

عتيق الرحمن العثماني


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

CONSULTATIVE BOARD


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

CONTENTS